قصة الحضارة في السودان

حسب الله محمد أحمد

حاولت فى هذه الدراسة أن أقـدم صورة عن تاريخ الحضارة السودانية وذلك بتتبع النشاط الإنسانى الذى مارسه إنسان السودان من فنون وعلوم وأداب وعمارة وعلاقات أجتماعيةمنذ أن وحد هذاالإنسان على الأرض وتتبع رحلته عبر القرون حتى عرف الاستقرار وخط لحيـاته أنظمة أجتماعية مختلفة حسب ظروف معيشته وإمكانياته الإقتصادية وشارك فى الحضارة الانسانية والتقـدم الاجتماعى والبشرى متمشيامع الظروف الإقتصادية والإمكانيات الطبيعية والنظم الأجتماعية التى هى أساس كل تطور وتقدم وتوظيف تلك الامكانيات لأى مجموعة من مجموع الناس .

وقد استعنت بالمفهوم المادى للتاريخ للوصول لبعض الحقائق كما قمت بدراسة المنطقة المحيطة بالسودان وتتبـع النشاط الإنسانى فيها والبحث فى تاريخها ومايربط السودان بها إذ توفرت لبلدان الشرق الاوسط دراسات طيبة فى جميع مجالات النشاط البشرى .

وقد استعنت بالدراسات التى تتبعت الحضارة الانسانية عامة والفرعونية فى مصر فى مجال العمارة والديانات والعلوم وعلاقة هذه الحضارة بحضارة السودان واتصال تلك الحضارة بحضارة الفرس والاغريق والرومان كما تتبعت تاريخ

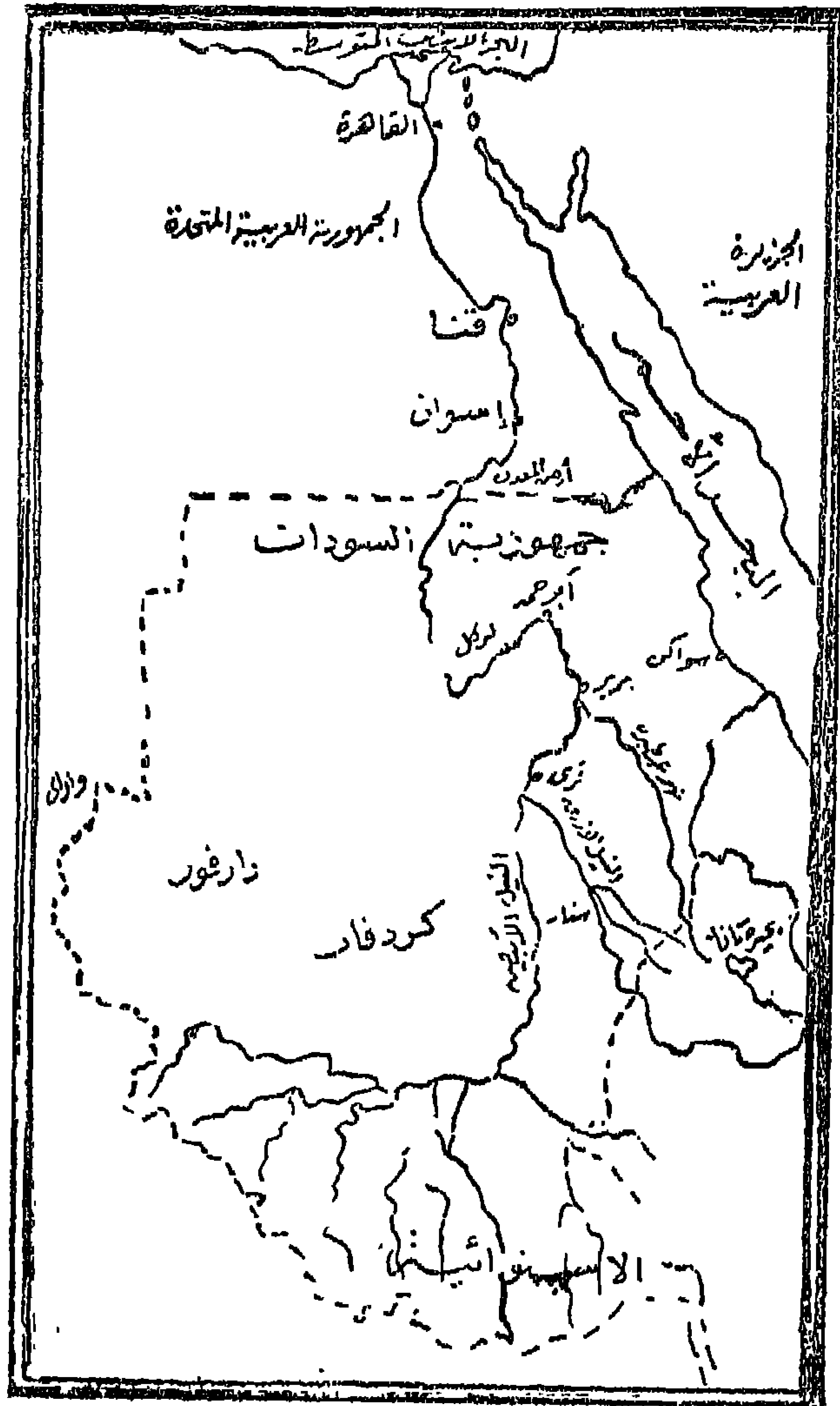
قصة الحضارة في السودان

الفترة التاريخية

من ٣٤٠٠ ق.م. إلى ١٩٠٠ ميلادية

حسب الله محمد أحمد

خريطة وادى النيل



تصـــدير

منذ فجر التاريخ يقاس دور كل أمة من أمم العالم بآثارها وحضارتها وفنونها وعلومها والسودان كأمة من هذه الأمم له تاريخ حافل بهذه الآثار والعلوم والفنون غير أنه مشوب بشيء من الغموض لعدم الباحثين عنه وكل أمة لابد لابنائها من بعث تاريخها وحضارتها ونشرها بوعى وتوضيح للعالم أجمع ولهذه الأسباب اجتمع طلبة شعبة التاريخ بجامعة الازهر بدار السودان بالقاهرة فى يوم ١٢ ديسمبر سنة ١٩٦٤ م وأسسوا جماعـــة باسم « جماعة بعث التاريخ السودانى » هدفها بعث التاريخ السودانى فى ثوب جديد وتحقيق وتمحيص و قد ما كتب عن تاريخ السودان ونشره على نطاق واسع بإصدار كتيبات أو إقامة محاضرات أو ندوات أو رسائل :

وبدأت لجنة هذه الجماعة نشاطها لابراز أهداف هذه الجماعة بوضوح وجلاء للمثقفين السودانيين وغيرها حتى التف حولها خيرة أبناء أمتنا العظيمة ومن بين هؤلاء المثابرين على العلم والمعرفة الاستاذ حسب الله محمد أحمد كما عرفناه فقد اتيحت لنا الفرصة بالتعرف عليه منذ عدة سنوات وبعد ان اشترك معنا فى لجنة هذه الجماعة قد كشف لنا عن سجاياه نوراً وضاءا وأدباً رائعاً حتى أحبه وأحترمه جميع أعضاء هذه الجماعة وكلهم يذكر نشاطه الجم فى ابراز وجه السودان القديم والحديث فى عدة مجالات فقد دأب الاستاذ حسب الله منذ عـــدة سنوات على الكتابة فى ميدانين هما التاريخ والأدب وقد ألقى عدة محاضرات بهذا الصـدد وكتابه قصة الحضارة فى السودان دليل على نشاطه وثقته فى نفسه وحبه لوطنه . فقد تناول الكتاب فى مضمونه قصة الحضارة عن أقدم العصور من آثار وآداب وفنون وعلوم موضحاً معالمها الحقيقية من ٣٤٠٠ ق.م. إلى ١٩٠٠ م ويكفيه غبطة وفخرا بأنه أول من طرق باب الحضارة فى السودان ووضع فيها مؤلف خاص بها وها هو كتابه مبسوط للقراء حسبهم مطالعته للوقوف على مزاياه

والافادة من بحر علمه الواسع . وهو كتاب يفيد كل طالب وقارىء وباحث عن تاريخ الحضارة فى السودان . وجماعة بعث التاريخ إذ تشد يد على يد هذا الشاب المثابر النشط وتهنئة على هذا العمل الجليل الذى يعد مفخرة لكل سودانى يهمه تاريخ السودان وحضارته وتحث كل مواطن على اقتناء هذا المؤلف .

وفى الختام . هذه أول تجربة تخوضها هذه الجماعة بإصدار هذا المؤلف .

وكل تجربة لابد أن يكون فيها نقص أو خطأ ولذلك تأمل الجماعة من أساتذة الفكر والعلم والأدب فى السودان وغيرهم ابداء النصح والارشاد لها نحو الأمام قدماً لتخرج تاريخ السودان قديمه وحديثه فى ثوباً يليق به .

امضـــاء

جماعة بعث التاريخ السودانى

القاهرة فى ١٨ / ١١ / ١٩٦٦

﴿ مقدمـــة ﴾

كلمة للأصدقاء :

هذه الدراسة كانت التزاماً للأصدقاء أعضاء . عالم بحث التاريخ السودانى ضمن التزامات الأعضاء بدستور الجماعة بأحياء التراث السودانى وتقـــديم الدراسات السودانية فى هذا المجال .

وقد أخترت بعد حضورى للقاهرة أن أقدم للأصدقاء والقراء دراسة يحتاج إليها كل قارىء ومثقف يود أن يلم بتاريخ الحركة الثقافية منذ أوائل القرن العشرين وذلك لكثرة الإراء والأخبار القصيرة عن هذه الفترة . وقد بدأت فى جمع مادة عن تاريخ الصحافة فى السودان فى عام ١٩٦٤ بمساعدة الأستاذ الكبير « شاطر البصيلى » وبمساعدة المسئولين بدار الكتب المصرية الذين سهلوا لى مشكورين كافة المراجع وأمدونى بالفهارس .

وقد وجدت بعد مسيرة أربعة أشهر فى تلك الدراسة التى يجب أن تكون امتدادا لتاريخ ثقافى واضح المعالم وجدت للأسف أن الدراسات التاريخـــية السابقة لاتشبع حاجة المثقف لمعرفة تطور الحياة الثقافية فى السودان عبرالقرون ولذلك وجـــدت أن كتابتى عن تاريخ الثقافة أو الصحافة فى القرن العشرين هى دراسة عن نهاية تاريخ مفقود المعالم ..

وأخترت عبء مسئولية تاريخية وفكرية ووطنية وهى ان أحاول أن أقدم صورة عن تاريخ الحضارة السودانية وذلك بتتبع النشاط الإنسانى الذى مارسة

إنسان السودان من فنون وعلوم وأدآب وعمارة وعلاقات أجتماعية منذ أن وجد هذا الإنسان على هذه الأرض وتتبع رحلته عبر القرون حتى عرف الاستقرار وخط لحياته أنظمة أجتماعية مختلفة حسب ظروف معيشته وإمكانياته الإقتصادية وشارك فى الحضارة الانسانية والتقدم الإجتماعى والبشرى متمشياً مع الظروف الإقتصادية والإمكانيات الطبيعية والنظم الاجتماعية التى هى أساس كل تطور وتقدم وتوظيف تلك الامكانيات لأى مجموعة من مجموع الناس .

وقد استعنت بالمفهوم المادى للتاريخ فى هذه الدراسة وذلك بتتبع النظام الاقتصادى للمجموعات التى عمرت أرض السودان وذلك أن النظام الاقتصادى هو الذى يوظف النشاط الانسانى ان كان فناً أو علماً أو إدارة .

وقد وجدت الدراسات التاريخية عن تاريخ السودان لاتستطيع أن تعطى صورة عن تاريخ النشاط الحضارى أن كان فيما يختص بتاريخ الحياة الأولى لانسان السودان أو فيما يختص بصورة المجتمع وملامحه وحركة الحياة اليومية والنظام الاجتماعى فيه ونشاط الانسان فى مجال العلوم والفنون .

وقد استعنت بالمفهوم المادى للتاريخ الوصول لبعض الحقائق كما قمت بدراسة المنطقة المحيطة بالسودان وتتبع النشاط الانسانى فيها والبحث فى تاريخها ومايربط السودان بها إذ توفرت لبلدان الشرق الأوسط دراسات طيبة فى جميع مجالات النشاط البشرى .

وقد استعنت بالدراسات التى تتبعت الحضارة الانسانية عامة والفرعونية فى مصر فى مجال العمارة والديانات والعلوم وعلاقة هذه الحضارة بحضارة السودان واتصال تلك الحضارة بحضارة الفرس والاغريق والرومان كما تتبعت تاريخ

الحضارة العربية وأثرها على شرق السودان قبل ظهور الاسلام ثم جعلت من الدراسات الافريقية التى ظهرت أساسا لافريقية السودان القديم وحاولت أن أجد الصورة القديمة التى عاشت بعيدة عن أثر الحضارة الفرعونية وحاولت أن أشير إلى الحضارة الافريقية بما فيها من عبادات وفنون ونظم اجتماعية ثم تابعت تاريخ المسيحية فى الشرق وفى وادى النيل والهضبة الحبشية من خلال نشاط المسيحية فى شمال النيل والهضبة الحبشية استطعت أن أتوصل إلى حال المسيحية فى السوذان وما قدمته للسودان .

كما تتبعت كل نشاط المسيحية وفكرة الدير والكنيسة ثم الاديرة التى قامت على النيل وداخل السودان ثم فى النهاية ما أضافته هذه الديانة لحضارة الانسان السودانى وإلى الفرعونية والافريقية فى السودان وما هى الاضافات التى أعطتها لذلك التراث القديم .

أما عن العرب فلم أكتفى بوجود العرب داخل السودان بل تتبعت حضارة الاسلام وأسباب نزوح العرب من الجزيرة العربية والعوامل التى دفعت بهم إلى داخل القارة الافريقية مع دراسة للحركة الاموية والعباسية والفاطمية وأثر هذه التيارات فى نزوح العرب إلى أفريقيا والسودان وأى هذه التيارات كان له النصيب الاوفر فى طرد العرب من مواقعهم ودفعهم إلى أراضى جديدة مكرهين سياسياً .

ثم تابعت دخول الاسلام والعرب إلى السودان من كل الجهات من الشمال والشرق والغرب وحاولت أن أرسم صورة الامتزاج والاختلاط الذى تم بين العرب وسكان السودان ثم دخول الاسلام إلى السودان وبأى صورة دخل الاسلام وعلى أى صورة استقر حتى ظهور السلطنة السنارية وسلطنة

الفور ثم دراسة عن حال الثقافة والفكر فى عهد السلطنة السنارية حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى .

كما أضفت إلى ذلك دراسة عن حال الثقافة العربية وتطورها فى السودان ونشأة الصوفية فى البلاد العربية وتاريخ وصولها إلى السودان مع مقارنة حال الصوفية بالسودان بالنسبة للصوفيه الاولى وتعاليمها وفكرها .

كما حاولت أن أتتبع الصراع بين الافريقية والفرعونية والمسيحية والعربية والاسلام داخل السودان حتى القرن التاسع عشر الميلادى .

وخلال هذه الدراسة قدمت بعض النماذج للحضارة الفرعونية من عادات وفنون وعلوم مع محاولتى لتوسيع تاريخ الحضارة الفرعونية فى السودان لعصور لم تتطرق لها الدراسات التاريخية السودانية . ثم أعطيت كذلك بعض النماذج للحضارة الافريقية ودياناتها وعاداتها ونظمها الاجتماعية والاقتصادية وكذلك بعض الامثلة لحياة المسيحية من الانجيل والدراسات القبطية وتاريخ الكنيسة المصرية ورهبان وادى النطرون . ثم دراسة عن تاريخ الشعر العربى فى السودان . بجانب الحياة الاقتصادية ونظمها وأثرها فى هذا التاريخ الذى يمتد من ٣٤٠٠ ق م. إلى ١٩٠٠ م .

وأنا أعتذر للقراء والباحثين لقصر هذه الدراسة عن التوسع والتدقيق الكافى الذى يستلزم فى مثل هذه الدراسة وعذرى هو ضيق الامكانيات وعدم وجود الاستقرار الكافى حيث الالتزامات بالقاهرة لاتترك للفرد الذى يحيا بالنشاط الاجتماعى والفكرى أى طاقة لعمل آخر . وأملى أن تكون هذه الاعوام من الدراسة والتحقيق قد أرضيا الاصدقاء والباحثين فى محاولة لاكتشاف تاريخ الحياة فى السودان عبر القرون ..

آمل أن كانت هناك أخطاء أن يغفرها الأصدقاء ويكفيني حسن النية لاعطاء حياتنا الثقافية بعض المجهود الجاد وآمل منهم تنويري للخطأ وأن كان هنـــاك أختلاف في الرأي فأمل أن يكون أختلاف رأي مسموح به في مجال الدراسات العلميــة .

ولأصدقائي من رابطة رواد الأدب الذين بحبهم أحببت الأدب والثقافة أقدم هذا العطاء البسيط وللرفاق بجامعة بعث التاريخ السوداني بالقاهرة أقدم هذه المشاركة البسيطة علها تكون حافزا للرفاق والزملاء لاعطاء الدراسات السودانية المزيد من الاهتمام والتضحيات .

حسب الله محمد أحمد

عضو لجنة جماعة بعث التاريخ السوداني بالقاهرة

وعضو لجنـــة رابطة روادالأدب بالسودان

وعضو اللجنة الخارجية لاتحاد الادباء السودانيين

السودان

أطلق اسم كوشى وأثيوبيا فى العصور السابقة قبل الميلاد على الاراضى جنوب مصر وشرق أفريقيا ما بين خط عرض ٢٤و٩ ولم يعرف اسم النوبة المطلق على جنوب مصر وشمال السودان حتى العصر الرومانى .

يخترق النيل أرض السودان من الجنوب إلى الشمال ، وتتميز المنطقة الشمالية منه بالاراضى الصحراوية شرقاً وغرباً ويضيق بشاطىء النيل وتقل الاراضى الصالحة للزراعة وتحوطه سلسلة الجبال والصخور .

والأراضى الزراعية الخصبة على النيل تتسع قبل التقاء نهر النيل ونهر عطرة حيث تخصب وتتسع كلما سرت جنوبا وتمتاز أراضى الجزيرة الواقعة بين النيل الازرق والنيل الأبيض بخصوبة أرضها ومساحاتها الكبيرة المتساوية وخلوها من الجبال والهضاب .

أما غرب النيل فتظهر فى شماله الاراضى الصحراوية وتظهر السافنا وتختفى كلما سرت إلى الجنوب . من أهم مناطقها منطقة جبل مره ووديانه حيث تزرع أنواع كثيرة من الحبوب والمحاصيل ، تربى الجمال والابقار فى اقليمى الغرب دارفور وكردفان . عمرته قبائل أفريقية قديمة اختلطت بالدماء العربية بعد ظهور الاسلام وانتشار العرب فى أفريقيا .

وجنوب السودان منطقة استوائية غزيرة الامطار والنباتات والادغال تسكنها قبائل أفريقية قديمة وأقدمها الشلك .

اصل سكان وادى النيل

الرأى المتفق عليه بين علماء الأجناس بأن زحف الإنسان الأول بـــدأ شمال الجزيرة العربية . . وتكاثرت البشرية . . وبدأ تضيق بالاقامة فى مجموعات وبدأ جو الخلافات والمشاحنات يسودهـا . . . ففضلت الترحال لاغيره باحثة عن أرض جديدة أو أرض منفصلة بكل مجموعة لتعيش فى سلام . . نزح منهم الحاميون لجنوب الجزيرة العربية . . ثم رحل جزء من الساميين إلى أفريقيا عن طريق مضيق قناة السويس . وذهب جنس لشمال الفرس فكون الجنس القوقازى كما تكون الجنس الادريانى من المجموعة السامية . . وإذا تتبعنا رحلة هذه المجموعات وكيف وصلت إلى أرض النيل فى زمن كانت فيه الأرض مغطاة بغابات والوحوش الضارية . ، وكان الإنسان ليس أقل من وحش ضارى . . . قبل أن تظهر هذه الصحراء الأفريقية بشكلها الحالى الذى يكاد يخلو من نبات إلا فى بعض الواحات والوديان . . ولكن وجود بعض الأشجار مجموعة (*ACCACIA ARABICA*) أشجار الصندذات الأشواك والتى تعيش على ماء قليل يدل دلالة على أن الحياة كانت نامية فى هذه الصحراء والوديان .

وفى هذا الزمن الأول تظهر لنا اتجاهات المجموعات البشرية الأول فى زحفها إلى أفريقيا . . فعند القرن الإفريقى . . تدفقت المجموعات الأولى إلى هضبة الحبشة فى زمن ليس كزمننا ولا ظروف الحياة الآن . . إنما فى ظروف تشبه إلى حد كبير حياة الغابة ووحشيتها . . ما يدفعنا للتساؤل عن الدوافع الأصلية إلى نزوح هذه المجموعات إلى أرض أكثر وحشية من التى كانوا بها . . حيث يحاول الحيوان أن يرحل من الأرض التى يتقدم فيها الإنسان أو يرحل الانسان تاركا الأرض للوحش وهى لاشك دوافع قوية ربما يكون منها إضطهاد المجموعات

لبعضها البعض بفعل التكاثر أو بظهور زعامات جديدة تود أن تخلق لنفسها عالمها الخاص . . أو حول زعامات قديمة لاتستطيع أن تقاوم الزعامات الجديدة أو بفعل ظروف طبيعية . . أو بفعل تصورات غيبية تسيطر عليها أو كانت تعتقد فيها تدفعها البحث عن أرض أطيب من يعيشون بها :

ومن هذا يتبين لنا أن النقل فى تلك الأزمنة كان معناها الهروب من جحيم الإنسان المتوحش إلى جحيم الحيوان والطبيعة المتوحشة. ودخلت تلك المجموعات إلى أرض أفريقيا .جزء سار إلى داخل القارة عن طريق هضاب الحبشة المتوحشة وجزء سار متابعا الشاطىء الشرقى لأفريقيا . . متوغلا إلى الداخل حتى كون فيما بعد السلالات الزنجية الحالية . . . ثم طال الزمن بالمجموعات الأخرى حتى تصل أو تجد مكانا تستقر به إلى أن هبطت من الهضبة الحبشية التى بطبيعتها أكثر وحشية من الوادى الذى يكون أرض السودان . .ومن هذه المجموعات سكنت أول مجموعة على شاطىء البحر الأحمر مكونة سلالات البجا التى ظلت تحتفظ بشكل سكان وادى النيل والتى يزعم المؤرخون وعلماء الأجناس أن الفراعنه من سلالة واحدة مع هؤلاء البجة . . . لأوجه الشبة فى كثير من الصفات الطبيعية فى تركيب العظام والجمجمة خاصة .

ومن هـــذه الرحلة تدفقت المجموعات الغير مستقرة لتجد النيل مهدا صالحا الاستقرار للصفات الكثيرة التى توفر جو الاستقرار والإقامة . . كما جاءت بعض الجماعات السامية من شمال أفريقيا عن طريق قناة السويس بعد ما انتشرت على شمال أفريقيا . . . ولكن النيل كان أصلح تلك المناطق للاستقامة ولذلك سرعان ما كثرت به الجماعات واستقرت وعرفت أول معنى للاستقرار ومارست الزراعه بصفة طيبة .. .. وبدأت الحياة البشرية تكون حياة بشرية لها معنى وطعم ومذاق .

وبدأ منذ ذلك الوقت مجتمع وادى النيل يتعقد وتظهر الزعامات وتكونت الطبقات الاجتماعية التى ظهرت بصورة سافرة فى عهـــد الفراعنة . . . وظهر المجتمع الطبقى من ملوك . . . ومساعديهم وجند وعبيد . . . وظهر الانسان الآله . . فى صورة فرعون مصر الأول ولكن مجتمع الطبقات لازال مجتمع الملوك والقواد والتجار والعبيد أو عبيد المملكة الفرعونية من فلاحـــين وبقية الشعب التى كانت بوضعها الاجتماعى والدينى هى خادمة الملك والمملكة .. ومن هذا التركيب الاجتماعى القائم على السادة والعبيد الذى قامت على أكتافه أول حضارة للانسان على أرض النيل من عمارة وطب وفن وعـــلوم امتدت من أرض الدلتا حتى وصلت إلى أرض الجزيرة وجنوب النيل الازرق بعد قيام مملكة مروى القديمة .

نظره على المجتمع الأول .

لنجعل تطور العلاقات الاجتماعية تتطورا للفكر ، وتتطور الحياة إذا تطور العقل وتتطور العلاقات حتى نستطيع من خلال تطور العلاقات أن نصل إلى آخر مراحل التطور التى وصل إليها مجتمعنا اليوم على أساس أنه فكريا أكثر تطورا من المجتمعات الأولى .

وإذا حاولنا أن نرسم صورة عامة للعلاقات فى المجتمع الأول الذى استوطن أرض النيل ومساحات السودان الشاسعة علينا أن نتذكر مناخــــه فى تلك الظروف الطبيعية التى مهدت لخلق مجتمع زراعى مستقر وظروف السهل مهدت لخلق الحياة البدوية ولحياة الرحل التى هى أكثر مشقة وأبعد بكثير من حياة الاستقرار التى فى ظلها يرتقى الفن وتتطور علاقات الناس .

إذا فالظروف الطبيعية خلقت لنا مجتمعين أحداهما مهدت له ليرتقى سلم

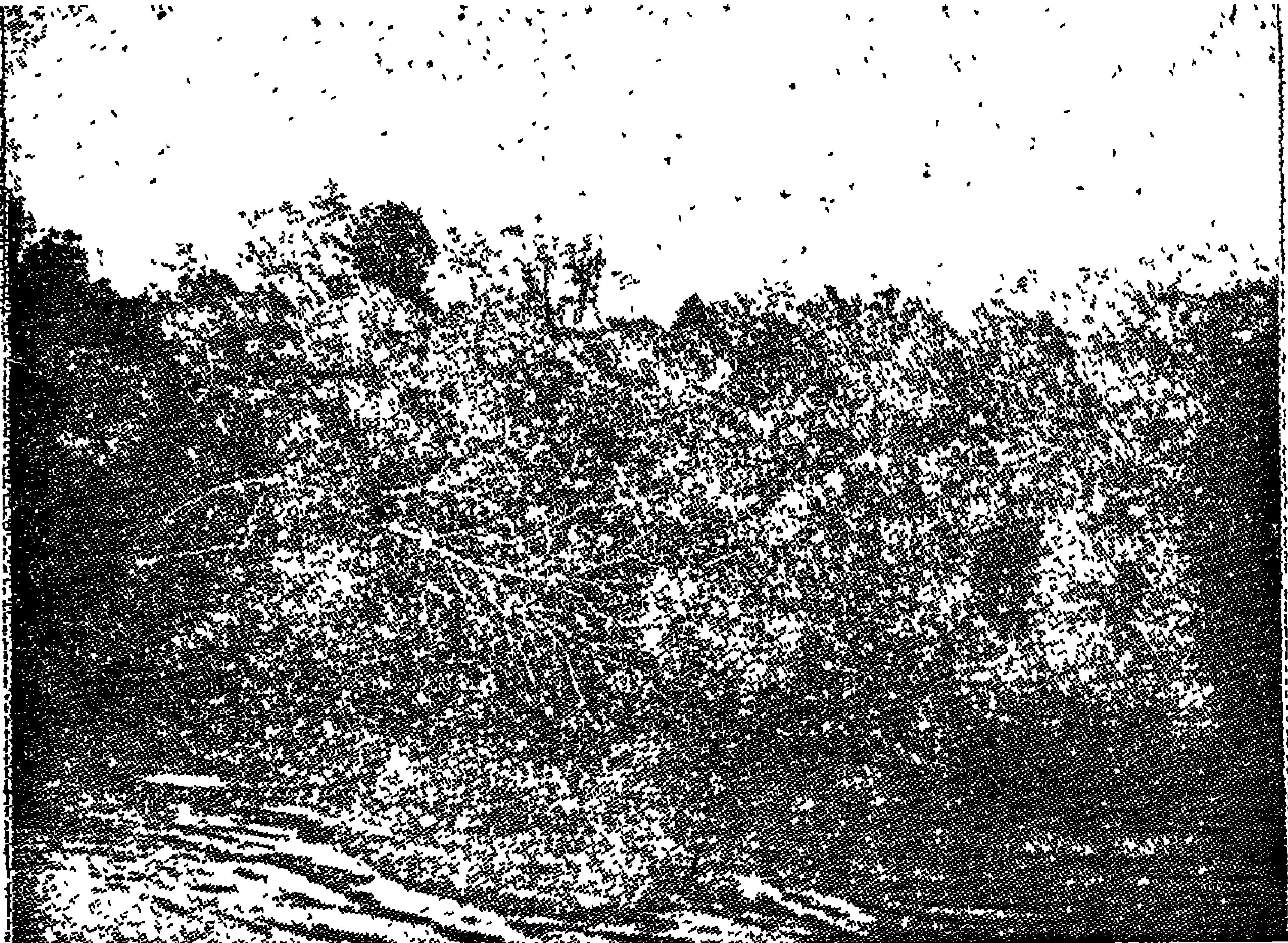
التطور خلال الاستقرار وآخر حرمته من هذا التطور ليعيش فى حياة التنقل والترحال ويعاشر الطبيعة الام من غير لمسات الانسان المبدعة.

وإذا أردنا أن نتتبع هذه المجموعات سنجد سكان النيل عند البحر الابيض المتوسط إلى داخل أفريقيا حيث ينتهى النيل عند بحيرة فيكتوريا . . هــــذا النيل كان معمورا بالحياة الانسانية حيث تختلف ظروف النيل وتمهيده لحياة الاستقرار . ففى الشمال مهدت الظروف بعد هروب الحيوانات المفترسة وسهولة الأرض لتمهيدها وصناعة العشش والمنازل مكن الانسان ان يستقر فى الشمال نسبته للظروف الطبيعية الخشنة التى وجدها الانسان فى أرض صالحة للزراعة بعيدة عن تجمعات الحيوانات المفترسة ولكن كلمـــا سرنا الجنوب ظهرت الطبيعة الأكثر وحشية والحيوانات المفترسة حتى تدخل منطقة السدود بعد ملكال حيث تتغير الصورة وتصبح حياةالنيل غير تلكفىالشمالوتصبحلاتختلف فى شىء عن حياة الغـــابة إذا يصعب وجود سهل على ضفتيه بل أشجارغزيرة وحشائش كثيفة مهدت لتأخر تطور الانسان الذى سكن نيل الادغال فلم يفدة النيل فى شىء ولم يقدم له أى مساعدة كما قدم للإنسان الأول الذى استوطن شمال النيل .

هذا تصورنا للحياة الطبيعية فى أرض السودان قبل مئات الآلاف من السنين بأن شكل اراضية لم يكن كالآن ، فأرض الجزيرة كانت عبارة عن مستنقعات والصحراء الكبرى التى تغطى نصف مساحة السودان وتـــزحف كل يوم إلى إلى الجنوب لم تكن موجوده بهذه الصورة وانما التغيرات الطبيعية التىحدثت للكرة الأرضية هى التى مهدت لهذه الصحراء أن تمتدكل يوم إلى داخل القارة



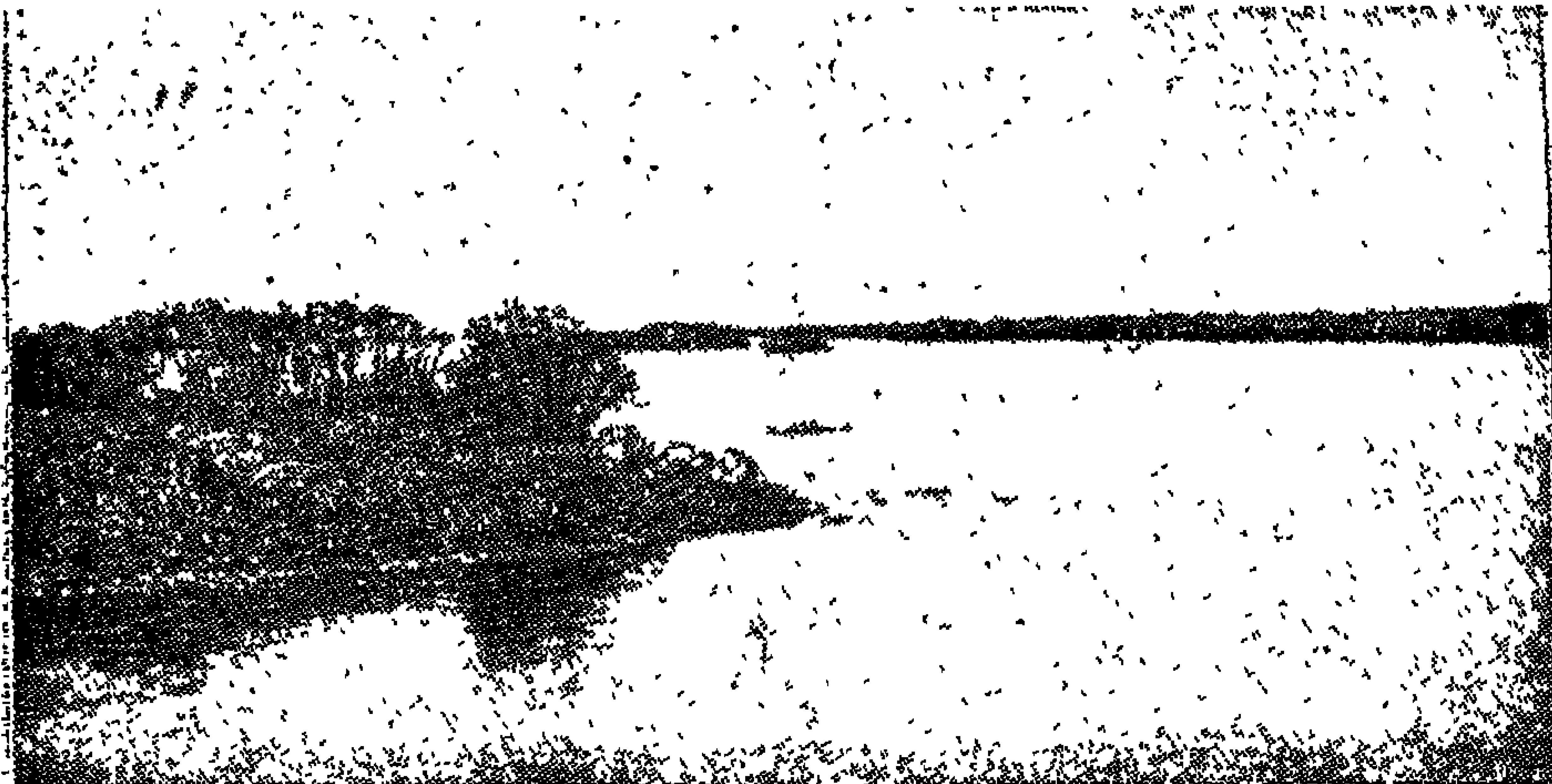
تمثال أمنحوتب الثالث ــ بقايا آثار مملكة نبتة (القرن الثامن قبل الميلاد عند جبل البركل)



الطبيعة هى اساس الفن والعمران والتقدم . . . وقفت هذه الأشجار الملتحمة ضد قدرة الإنسان لتطويع الطبيعه لمنفعته والاستفادة من خيراتها فى جنوب النيل .



انسان النيل فى جنوب السودان (افراد قبيلة الشلك) استغلوا خيرات الطبيعة فى اعالى النيل للسكن بدل الصلصال والحجاره لتناسب مناخ الجنوب



بحيرة نو والطبيعة الغنيـــة فى الجنـوب كانت خيراتها للحيوانات أكثر من الإنسان

مغيرة على كل حى . . واقفة ضد حياة الحياة النباتية فى الصحراء . وبشكل الصحراء الحالى لم نستطيع أن نكتشف الحياة البشرية التى كانت فى كثير من السهول القديمة والتى تقطيها الأراضى الصحراوية اليوم كانت بها حياة بشرية وكانت بها مدنية . هذا ماتخفية الرمال . . . ولكن كثير من الدلائل والآثار برهنت على أن هناك حضارات وحياة انسانية كانت فى هـــذه الصحارى بعيدة عن النيل . . . وأن الرمال قد دفنت هذه الآثار التى يصعب العثور عليها الآن حيث يصعب التنقيب فى مكان معين إلا إذا حفرنا كل الصحراء لتحدثنا عن اسرار الماضى . . . ولكن ما اكتشف على بعد كبير من النيل بقرب منطقة النوبة يدل على أن هناك حضارة وحياة بشرية كانت قائمة بعيدة عن النيل اندثرت بفعل الرمال المتحركة التى تستطيع أن تغطى قرية بحالها فى ليلة واحدة .

هذا بالتالى يجعلنا نسأل أو أو نتصور أن هناك تجمعات بشرية كانت فى هذه الصحراء خلاف التجمعات البشرية الموجودة الآن أو من بداية تاريخ حضارة النيل قبل ثلاثين قرنا قبل الميلاد .

ونحن نعرف أن تجمعات البحر الاحمر البجة الان كانت موجودة من قديم الزمان فى هذه البقعة ثم جاءت اليها مجموعات أخرى بتقدم الزمن .. ولكن هذا لا يعفينا من تصور مجتمعات فى تلك الرمال التى قضت على حياة كثيرة كانت نامية من قبل .

وهذا لا يمنعنا أيضا من تصور مجموعات فى الغرب أتت عن طريق ليبيا ونحن نعرف حسب الحفريات الأخيرة بأن هنالك كثير من المدنيات قامت بعيدة عن النيل .. وإن العنصر الليبى لم تكن حدوده الاراضى الحالية .. وربما بعض الاكتشافات التى تجرى الآن فى الصحراء غرب أرض النوبة وبنشر بعض التقارير الأولية التى أرسلتها البعثة السوفيتية أن هناك حياة

بشرية ومدنية قامت بعيدة عن أرض النيل كان للرياح الرملية الأثر الأول لدثر تلك الحياة . وتتصور حياة بشرية غرب النيـــل اندثرت أو هرب أصحابها للغرب وتوغلوا حتى غرب أفريقيا وعمروها يجعلنا نعتـقد أن كثير من الهجرات والزحف داخل أفريقيا جاء من شمال أفريقيا وسهول النيل .

واذا أردنا أن نحصر السلالات البشرية التى سكنت أرض السـودان بعـد هذا التوضيح فنجد النوبة وهى القبائل السمراء التى سكنت النيل . أو(تنهانسو) أو (أثيوبيا) كما كانت تسمى سابقا .. اذا كان هذا الاسم يميز سكان جنوب النيل عن سكان مصر الافتح لونا .. وما عـدا ذلك فهم نوبة أواثيوبيين . اذ النوبة فى الوقت الحاضر أرض صغيرة تمتد شمال حلفـــا الى أرض الـكنوز وجنوبها الى أرض المحس — فى حين كانت كل هذه الاسماء الآن غير موجودة قديما فلم يكن فى الشمال قبائل محسية أو تنقلاوية أو شايقيـــة أو عبدلاب أوميرفاب أو جعلين أو بشاريين أو شكريه .. اذ كان اسم كل هذه المجموعات هو أثيوبيا . . هـــذا بالنسبة للتاريخ القديم والتسمية التى عثر عليها أهـــل التاريخ .. ولـكن حقيقة هل كان كل سكان النيـل جنوب أرض النوبة الآن هم عنصر واحد ونحن نعرف أن الليبين كانت لهم غزوات هناك وكانت قبائل كثيرة تجاور النيـل كما أن سكان البحر الاحمر كانوا يزحفون على النيل .. ونحن نعنى من ذلك أن مجتمع القبلية والعصبية الذى عاش على أرض السودان لم يكن موجودا فى الفترات القديمة .

لم تزعفنا الآثار القديمة أو المخطوطات التى وجدت فى معرفة شـــكل المجتمع القديم .. لقد كان هنالك ملك أو من ينوب عنه فى المناطق الـكبيرة .. ثم تتدرج السلطة حتى تصل الى مرتبة الشيخ الآن . ولـكن هذا المجتمع الصغير الذى كان يرأسه الشيخ هل كانت تربطه روح القبيلة أم روح السلطة والملـكية اذ كان الشيخ هو أكثر مجموعته غناءا وعبيداً وسلطة .. مجتمع صـغير يقوم على الرهبة ولا يقوم على الولاء الطبيعى للقبيلة كما كان مفهوماً عند العرب .

هذا المجتمع الصغير الذى يرأسه الشيخ أو أغنى هذه المجموعة الصغيرة كان يكون الشكل العام للمجموعة كلها .. ويمثل هذا المجتمع الصغير كخادم لذلك الملك يعطيه كل الولاء والتقدير اذ يقوم الملك وأعوانه برعاية شئون العبادة وتوظيف الكهنة والاهتمام بهم .. وهذا ما كان يحتاجه الانسان ليملأ به حيرته وتساؤلاته فى الالتجاء الى شىء فوق قدرته .

ولكن بصورة عامة يمكن أن نتصور حياة هذة الحضارات الكبيرة التى عاشت على النيل خلال البحث عن العلاقات فيها ومن خلال هذه التجمعات الصغيرة التى تعطى السلطة للملك الذى هو سيد الكل والذى أحكامة لا اعتراض عليها من رؤساء المجموعات الصغيرة أو المجموعات الاكبر ومن أعوانه ومديرى شئون مملكته .

ومن هذا نستطيع أن نقول أن حياة الاثيوبيةوهو الذىسكن أرض النيل فى أرض النوبة الحالية حتى أرض الجزيرة حيث تمتد من هناك مجموعات أخرى ثم مجموعات البحر الأحمر البجة والمجموعات التى سكنت سهول النيل الأزرق لم يعرف عن تاريخها القديم أى شىء حتى الآن ولكنها لا شك هى جزء من السلالات الحبشية التى امتزجت بالعناصر العربية أخيرا وتنقلت مع مجرى النيل الأزرق أو مع إنحدار الهضبة الحبشية .

* * *

تطور المجتمع الزراعى الاول

لو عدنا مع الزمن آلاف السنين بل قبل الميلاد ونظرنا إلى أرض السودان سنجد أرض النيل بها جماعات مستقرة تعيش فى مجموعات بخلاف المجموعات الأخرى التى تعيش فى السهول والوديان .

بما يعطيه المجتمع الزراعى من استقرار للفرد . . . وهذا الاستقرار يعنى استقراراً فى الحياة المعيشية فى المقام الأول وضمان وجودها بقرب الأرض ... هذا الاستقرار المعيشى سيوفر للفرد مجالا آخر التفكير والترويح والترفيه عن نفسه بعد مشقة العمل . . . كان الانسان مزارعا لم تكن الزراعة بشكلها الحالى بل ربما كانت الزراعة اليدوية هى أن يلتقط الحبة ويغطيها بالتراب ثم تتطور وبدأ يعمق لهذه الحبة بعد أن رأى الطيور تأكل الحبة والديدان تفسدها . . . ثم الأعشاب التى بدأت تنمو على الزراعة فتعوق نمو عودها وثمارها ، فكر فى إذالتها . . ثم رأى أن يده تتعب من حفر الأرض فبحث عن عود بدل يده . . . ثم بدأ يشكل هذا العود يستعمل رجله لأن الانحناءة تتعبه . . . ثم كثرة المجموعات فأصبحت الأرض المروية بسيطة . . . والنيل بعيداً عنها . . . ففكر فى الشاتوف فهذا كان آخر ما وصل إليه فى دنيا التطور والزراعة .

بعد أن صنع الشاتوف وصنع السلوكة ومحراث الخشب الذى يجره آخر ... وطورية الحطب . . والجاروف . . . ثم طور المحراث الانسانى إلى محراث تجره الحيوانات بأن ربط المحراث إلى الثور أو البقرة . . . وبذلك وفر جهـــدا جسمانيا عليه . . . فأصبح عنده شاتوفاً ومحراثاً . . . وطورية وسلوكه ـــ هـــذه كل معدات الزراعة الأولية بعـــد تطور المجتمع وحتى وصل إلى حضارة الفراعنة .

ثم كانت الافات الزراعية الكثيرة منها الطير والزرزور والجراد وفرس البحر

كلها تفتك بزرعه الأمر الذى فرض على الانسان أن يفكر وان يبدع حتى يقاوم الطبيعة . . . ففرس البحر كان موجوداً على طول النيل . . . وخروجه بالليل يعنى إفساد مزرعته بكاملها وضياع الحصول على مالكه . . . فلابد للانسان أن يفكر للتخلص من هذا الوحش الذى لا يرحم مجهود الليالى والأيام وتعب الزراعة والرى والنظافة . . . يأتى عليه فى ليلة واحدة . . . ففكر فى حفر حفرة عميقة يغطيها بالاغصان والاعشاب وعندما يأتى ليلا هذا الوحش يقع فى هذه الحفرة وبذلك يسهل قتله أو حرقه .

ثم كان أمر السكن فاستعمل الاغصان فلم تفلح فى هذا الطقس الجاف صيفاً وشتاءاً . . . ثم فكر فى بناء منزل من الطين ربما أخذت التجربة الأولى عشرات الاشكال وفشلت المحاولات الأولى أكثر من مرة لعدم وضع أساس المنزل كلية أو بدرجه عميقة أو لعدم معرفة خلط الطين جيداً . . . أو لعدم معرفة عرض سمك كمية الطين . . . للطوف » — أو ربما لعدم اعطاء الطوف كمية كافية من الجفاف حتى يضع عليه الطوف الثانى — ثم كان أمر عرشه كيف يعرشه . . . طبعا لم يفكر أن يضع عليه ساق شجرة طويلة فى أول الأمر . . . عشرات المحاولات والتجارب حتى اهتدى إلى ساق شجرة طويل ثم تغطيتة بالأغصان والأعشاب والطين . . وهذه المنازل الطينية على النيل الآن هى خبرات عشرات الآلاف من السنين بدأها الأولون ثم يضيف إليها كل جيل بعض التعديلات . . . وربما لم تكن بها نوافذ فى بداية الأمر لأنه لم يعرف كيف يصنع النوافذ ويضع لها أخشاباً من فوق ويقطع الطينه وهى لينه . . وربما كان الاولون يفتحون النوافذ بفتح ثقب بأى آلة واى وسيلة .

ثم تطور الزمن فعرف أن ساق الشجرة ربما سقط عليه وضره . . ولذلك فكر فى وجود آخر يضعه تحته . . هذه الاضافات اتت لاشك بمرور الزمن . . فلزمن طويل لم تكن هناك أبواب كالتى نعرفها اليوم فالنجارة لم يتفرغ ،

إليها أحد كما أن آلات النجارة لم تكن معروفة والحديد لم يكن بالوفرة اليوم لصنع المناشير والفارات وخلافه من أدوات النجارة .

لو حاولنا البحث عن شكل العلاقات بين هذه الجماعات التى سكنت النيل وملأت ضفافه كيف كانت فى البداية . . لاشك أنها لم تتمركز فى نقطة واحدة ثم انتشرت شمالا وجنوب . . بل كل مجموعة . . سكنت بعيدة عن الأخرى لاتعرف عنها شيئا فى بداية الأمر . . ثم كان أمر هـــذه الجماعات الصغيرة المنعزلة فى البداية لاشك ستختلف بينهما بعض الخلافات . . . وتضع لها قوانين ففيها الكسلان . . . وفيها الأحمق . . . وفيها العاقل . . . وفيها كل ضعف البشرية هـــذه الجماعات كان لابد من وجود مدير بينها ليحكم فى خلافاتها . . . ربما فى البداية شخصيته وشجاعته وقوته هى التى فرضت نفسها على المجموعة . وبذلك أصبح مهابا من المجموعة لأنها تحتاج إليه لحمايتها من الأشرار من أفرادها .. ربما يظهر زعيم آخر له نفس القوة فيحدث القتال بين الاثنين فيفرض القوى سيطرته ومشورته على الاخرين .. ومن خلال هـــذه التجارب أدرك الإنسان حوجته لزعيم .. ومن هذه الحوجة كان الزعيم .. وتطور الحال وأصبحت هذه الزعامة وراثية بعد سيطرة فرد وأسرته على كل مشاغب ومغامر .. ومحاولتها لحفظ النظام والأمن للمجموعة .. الأمر الذى جعل للمجموعة أن تترك لها هذا العبء الثقيل وتتولى مصادمة الشر والخارجين عن النظام .. ثم كان أمر هذه الأسرة المسيطرة بعد عشرات السنين .. بعد أن تمكنت من فرض السيطرة على المجموعة . . وشعورها أن المجموعة ترهبها . وإنها تقدم خدمات المجموعة . . فلا بد من أن تقدم هذه المجموعة مقابل هذه الخدمات . . . ربما تتولى المجموعة المساعدة فى زراعة حقول هذه الأسرة .. وحصدها .. أودفع شيء من حصادها لهذه الأسرة التى بدأت تأخذ صفة الاسرة المالكة أو زعيم القبيلة أو المجموعة . . وظهرت الضريبة على المجموعة فى شكل خدمات أو عطاء

فى بداية الأمر .. واستمر الحال عند هذه المجموعة الصغيرة حتى قويت الأسرة المتزعمة .. وبدأت تفرض شروطها وآراءها على الجماعات .

ويشكل هذه المجموعة تكونت على النيل أعداد هائلة من المجموعات . . . ولكثرة سكانه . . وانتشارهم على النيل والبحث على ضفافه عرفوا أن هنالك مجموعات تعيش بالقرب منهم وبدأت الغارات بين هذه المجموعات فى شكل سرقات بسيطة من أفراد ضالين مطرودين أو من الجماعات نفسها . . . أو زعيمها . . . إذا رأى عند الجماعة الأخرى خيرا أكثر . . . وبدأت هذه المجموعات فى الاحتكاك ببعضها ونهب بعضها . . وبذلك أصبحت شخصية الزعيم أكثر ضرورة لتنظيم الدفاع والهجوم وتعويض الأسر المكلومة أو المنهوبة .

وظهرت مجموعة كبيرة بين هذه المجموعات شعرت إنها بعد هذا الاحتكاك .. وغلبها لمعظم هذه الجماعات أن تفرض سيطرتها على المجموعات الأخرى بالقوة .. بعد أن أخضعت المجموعات القريبة منها استغلتها لاخضاع المجموعات الأخرى وبذلك ظهر مجتمع الدولة الأول على النيل بحكم زعيم أكبر مجموعة . . . يساعده فى إدارة مملكته زعماء المجموعات الأخرى .. وأصبح يطالب هؤلاء الزعماء ببعض الضرائب لحاجته للمال لإدارة شئون رعيته وتكوين جيش وصنع سلاح وللتفرغ لهذا العمل الجديد .. وبالتالى .. لم يرى زعماء الجماعات غير رعاياهم ليتحصلوا منهم هذه الضريبة . . وأصبح هؤلاء الزعماء فى مركز أقوى بالنسبة لجماعتهم . . وذلك لمساندة الملك لهم . وأنهم أصبحوا يمثلون الملك .. وماكان على الجماعة المغلوبة التى تحارب الطبيعة فى آفاتها وحشراتها وطيورها من الخضوع لهذا التنظيم الجديد الذى يعيش على ماتبقى لهم من آفات الطبيعة . فقد كانوا يساعدون الزعيم .. فأصبحوا يساعدون الزعيم والملك . . وأعوان الزعيم وحراسة .

وبهذا الشكل تكون شكل الدولة الاول . . . وظهرت المملكية فى مناطق متعددة من النيل . . أصبحت كل مملكة تترقب المملكة الأخرى . فقد كانت التجربة الأولى هو تغلب مجموعة كبيرة على مجموعات صغيرة . . والاستعانة بها فى التغلب على المجموعات الأخرى ولكن التجربة الجديدة هى الشعور أو المعرفة بوجود مجموعات متحدة فى شكل مملكة .. وبدأ الاعتداء الأول فى محاولة أحدى الممالك فى السيطرة على مجموعة من مجموعات المملكة الأخرى .. وربما تخضع المملكة التى أخذ منها جزء من مجموعاتها لضعفها .. فلو سكنت فيعنى ذات أن المملكة التى فازت على الأولى ستحاول أن تفرض سيطرتها على المجموعات التالية حتى تأتى على مجموعة الملك نفسه . . وإذا لم ترضى المملكة المجاورة بالتجربة الأولى فستكون الحرب . وربما يكون هناك صلح أو ربما لايكون وفى النهاية هو إخضاع مملكة لأخرى ..

وبهذا الشكل تتوسع المملكة .. ويصبح الملك المهزوم مندوب الملك الغالب أو ربما يعين خلافة أو أحد أفراد مملكته . . وبالضرورة أصبح لهذا الملك جيشه ونظام إدارة مملكته التى توسعت .. وبهذا الشكل قامت على النيل مملكات مختلفة .. هـــذا بالنسبة للمجموعات التى فى أرض السودان . . أما المجموعات التى فى أرض مصر . . فيبدو أنها كانت أقوى من مجموعات السودان وظهور المملكية فى مرحلة أبعد من مرحلة السودان .. وربما أقوى .. ولذلك زحفت سيطرة مصر على مجموعات السودان .. وفرضت عليها سيطرتها . . ودياناتها . . وأصبحت هذه الممالك السودانية تابعة للمملكة المصرية الفرعونة بعد قرون طويلة من النضال والبحث عن بعض .

ونحن لانستطيع أن نتحدث عن حال المجموعات التى حكمها المصريون لأن الوثائق القديمة غير كافية حتى الآن ولكن مايهمنا الآن هو بداية استقلال المملكة السودانية عن المملكة الفرعونية . . . وتزعم هذه المملكة القوية

على ممالكات السودان . . . وفرض سيطرتها حتى على مصر .. ومحاولتها طرد أعداء مصر من الليبيين وقبائل أرض فلسطين والقبائل الآتية من الشمال وذلك منذ القرن الثامن قبل الميلاد .

وقبل البحث عن تطور هذه المجموعات الحضارى والثقافى حتى القرن العشرين نود أن نعود مرة أخرى إلى المجموعات الأخرى التى تسكن بعيدا عن النيل حتى نكمل صورة المجموعات التى كانت تملأ أرض السودان الحالى .

* * *

مجموعات السهل

يذكر التاريخ الحديث لنا أسماء قبائل عديدة تسكن السهول شرق النيل وأخرى غرب النيل وأخرى جنوب النيل .

هذه المجموعات التى تسكن الشرق الان مثل العبابدة والرشايد والشكرية وبنى عامر والامرار والبطاحين وكلها أسماء حديثة وعربية وهى أسماء أتت بعد الإسلام .. فقد كانت هذه القبائل المهاجرة التى استوطنت أرض السودان والنصف الشمالى من أفريقيا هى أول من سكن هذه السهول والوديان والأنهار أم كانت هناك مجموعات قبلها . . وهل كانت هذه المجموعات رعوية أيضا .

عرفنا قديما بأن أرض السودان لم تسكنه المجموعات النيلية وحدها . بل هناك مجموعة أخرى على ضفاف البحر الأحمر .. وهى البجة .. ولكن لو حاولنا أن نبحث عن بداية حياة هذه المجموعات هل كانت رعوية . وهل محاولة رعاية الحيوانات تأتى بدون مقدمات وتأليف هذه الحيوانات وكيف الفت .. وأين كان أصل هذه المجموعات .

بدأت لاشك هـــذه المجموعات بالزراعة على الانهر الكثيرة الساقطة من الجبال والوديان تحت الهضبة الحبشية وجبال البحر الأحمر .. وبدأت الإنسان يدرك هل أسهل تأليف الماعز أو الاسد أم الحمار فوجد أن الماعز أفضل لأنها تحتاج للعشب فى حـــين يحتاج الأسد للحم . . لحمه أو لحم الماعز . . ولذلك فضل الانسان تأليف الحيوانات التى يمكن أن ترعى .. ويأتى لها بالعشب فى مكانها فى البداية حتى ألفت عليه .. وتوالدت وكثرت .. وبذلك بدأ الإنسان يبحث عن مرعى للماشية التى كثرت وأصبحت تعطيه اللحم واللبن والشحم

وتحمله . . وتنقله . . حتى توسع فى الاستفادة منها فى المقايضة بها فى مقابل حاجياته الأخرى كالملابس والملح وخلافه .

عرفت السهول السودانية الجمل منذ قديم الزمان قبل الإسلام والمسيحية . . وكانت هناك مجموعات تعيش على زراعة الوديان والأنهار ورعى الماشية . . هذه المجموعات كانت أكثر شراسة من سكان النيل ولذلك لما تفرصه الحياة المدنية والعشرة مع مجموعات على تلطيف طباع الإنسان .. ووجوده فى مكان دائم يجعله يفكر باستمرار لتحسين أحواله وأدواته .. أما ذلك الراعى فلا أنيس له الا تجمع أسرته فى الليل .. وماشيته طول النهار لاهم له إلا البحث عن مكان أخضر .. وصيد الحيوانات المفترسة عنها فقد عرفت هذه السهول كل الحيوانات المفترسة والاليفة كما أن هذا الراعى لا يحتاج لأدوات كثيرة ليستعملها أو لمسكن دائم يفكر فى تحسينه .. فالماشية تعطيه وبرها وجلدها ليصنع منه منزله المتنقل ونعله .. وأناء لبنه ومائه .

قد عرفت الأبل من قديم الزمن وربما الأبل التى استعملها الفراعنة أخذت من هذه المجموعات التى ترعى شرق النيل وضفاف البحر الأحمر

ولكن كيف تكونت هذه المجموعات وما هى القوانين التى سارت عليها فى رقيها وتطورها .. لاشك أن تجمع هـــذه المجموعات فى مجموعات كبيرة لايختلف فى شكله عن المجموعات النيلية وحوجتها لهـــذا التجمع حتى أضاع بفرديتها .. فكانت المجموعات أسر صغيرة كبرت ـــ وأصبح لها زعيم تحتكم إليه . ولا شك أن لا كبر القوم بين هذه المجموعات كانت له فائدة أكبر ليعرف تاريخ الماشية . وطباع الناس .. وأصبح للشيخ بين هذه المجموعات تقدير خاص لأنه يستطيع أن يكشف تاريخ كل فرد وممتلكاته .. فلا يستطيع أحد أن يستولى على حق آخر مدعيا ملكيته .. لأن هناك رجل عجوز يعرف حق كل فرد .. ولم يكن لهذا الشيخ من الجماعة أى ولاء غير الطاعة وسماع الأمر .. وكانت تخرج هذه المجموعات فى زمن الصيف باحثة من مرعى . . فكانت تلتقى فى الوديان

بمجموعة أخرى تشاركها نفس المرعى .. ربما تتعصب صاحبة الحق الأول فى المرعى فى طرد الأخرى أو ربما ترى صاحبة العدد الأكبر طرد الضعيفة .. ولذلك كانت حياة هذه المجموعة محفوفة دائماً بجو القتال .. بالعصى والحجاره والسيوف أخيرا والتى تفننوا فى صنعها وتشكيلها كالخنجر .. ثم السكين .. والحراب .. وهذه أكثر الأدوات تطورا التى استعملتها الجماعة الرحل فهى لم ترى البندقية إلا بعد الفتح التركى والتى كانت تملكها قبل ذلك هم الزعماء للارهاب فقط أما بقية الجماعات فقد كانت تخاف منها وترهبها ويفزعها منظرها .

بتجاور القبائل الرعوية .. والصداقات التى كان يعقدها شيوخ القبيلة والزواج من مجموعة مع مجموعة أخرى لتوثيق هذه الروابط . جعل الكثير من المجموعات الصغيرة لتكون مجموعات كبيرة .. كان لشيخ القبيلة أو زعيمها الرأى والحكم النهائى فى كل خلاف .

لم يكن لهذه المجموعات عمل يملأ فراغها وينمسك قواها كالمزارعين .. ولذلك فكرت فى ألعاب الفروسية والمبارزة والصيد والقتال والسباق .. وتطورت فى فن هذه اللعبات الفروسية ولكنها لم تحاول غير ذلك الا بعد زمن طويل ودخول مجموعات جديدة تحمل حضارة جديدة ورأت أشياء جديدة أو سمعت بها .

هذه الألعاب الوحشية زادت من طباع البدو وحشية فالقتال وعشقه هو الرجوع بالانسان لحياته البدائية .. فالانسان فى تطوره يتخلص من حياته الوحشية والبدائية الأولى .. والفروسية وقتل الاخرين ما هى الا أشباع للاخلاق البدائية .. والتمتع والتباهى بقتل انسان من أجل الرياضة لا يعد تطورا مهما كانت الصفات الرجوليه الذى تطلق عليه .. فالرجولة ليست فى خلق مباراة لقتل انسان آخر انما الرجولة فى تقديم الأعمال الكبيرة للاخرين

ومساعدة الغير ونكران الذات والتحلى بالأخلاق السمحة النبيلة .. أما الدعوة لاراقة الدماء فليست صفة من صفات الانسان المتمدن .. وابقاء هذه الصفات بين العرب الرحل أسباب كثيرة منها عدم حياة الاستقرار لتهدئة وحشية الانسان .. وعدم اختلاطه بانماط من الناس يختلفون عنه فى تفكيره وعاداته ليقتبس منهم . فكل الذين يعيش بينهم ويعاشرهم هم عرب رحل .. كلما أظهروا غلظة أبدى غلظة أكثر منهم وكلما أبدوا لينا ظن ذلك جبنا .. فحتى الحلم لا ينفع فى البادية .. فالحليم جبان .. والذى يكره قتل انسان من أجل نعرة قبلية يعد جبانا . وكل من يكره القتال وألعاب الفروسية ليس برجل .. ولذلك حكموا بالتقاليد على مجتمعهم أن يعيش فى جو من القيم البدائية التى تحبذ القتل . وتقف حتى الان ضد رقى الانسان وتلطيف طبائعه الوحشية لأن الخروج من هذه الوحشية يعد عيبا وانحدارا بالرجولة لا تطويرا للانسان الحديث فى أفكاره ومشاعره وأخلاقه وعاداته ومعاملاته .

ظلت طبيعة الارض عنصرا مساعدا على انتشار الوعى وحياه البدو فالسهول الشرقية الغنية بالأعشاب والوديان والأشجار والنباتات المختلفة طيلة أيام السنة ساعدت مجموعات السهول الشرقية فى السودان أن يحترفوا مهنه رعى الماشية والابل .. بل أضاف أجدادهم مهنة الزراعة البسيطة ببذر الذرة على ضفاف الأنهار دون مجهود ليجد الطبيعة تكفلت بنمو هذه الحبوب . . حيث لم يفكر هذا المتنقل فى صنع آلات زراعية تعيق من تنقله وتثقل عليه حمولته أثناء زمن الصيف والتجوال والبحث عن مرعى جديد .

تكاثرت هذه المجموعات فى عشرات الآلاف من السنين قبل الميلاد على السهول الشرقية .. وحيث كثرة التنقل وعدم الاستقرار لم يخضعا لنظام دولة لها نظامها الثابت وادارتها المركزية .. وهذا التنقل كان حائلا دون قيام دولة مركزية لهؤلاء الرحل حيث تحتاج الدولة لمكان دائم ..واستقرار ورعايا

لهم أماكن محدودة أما هؤلاء .. فيصعب التحكم فيهم ومعرفة أماكنهم فتارة هم فى الشرق على جبال البحر الأحمر وتارة قرب النيل أو نهر عطبرة أو الشمال داخل أراضى مصر ولذلك نشأ عندهم حكم يساير هذه الظروف هو حكم القبيلة وزعيمها الذى تخضع له القبيلة حيث يرحل منها يحتكم اليه أفرادها فى حقوقهم .. ويتزعمهم فى حالة الاعتداء على أحد منهم أو الاعتداء على القبيلة أو ما شيتها .. وكان يجب أن يكون هذا الزعيم صاحب حكمة وشجاعة وقوة ترهب كل مشاغب وتردع كل خارج على قانون القبيلة والجماعة .

كما أن طبيعة الأرض الموحشة أو تلالها الصخرية .. وأشجارها الشوكية وحيواناتها المتوحشة والمفترسة المتعددة — التى تحيط بحياة هذا البدوى جعلته يعيش فى حالة موحشة وطبائع أقرب الى طباع الحيوان المفترس .

أما جنوب ملتقى النيلين الأبيض والأزرق فقد كانت تسكن هنالك القبائل الزنجية فى طبيعة محاطة بالاشجار المتعددة .. والأمطار الغزيرة والنباتات الكثيفة التى تغطى السهول وضفاف النيل كما تعيش الحيوانات المفترسة بكثرة أكثر من الشمال مما جعلت المجموعات أن تقضى جل تفكيرها فى صنع أسلحة تقتل هذه الحيوانات أو لايجاد مساكن لا تقترب منها هذه الحيوانات .. والاعشاب التى كان يحوطها سور من الشوك الكثيف لا شك كانت منازل هذه المجموعات حيث يصعب على الحيوانات المفترسة ليلا أن تقتحم هذه الاشواك الكثيفة .

* * *

الحضارة قبل القرن الثالث الميلادى

الحضارة هذا التاريخ المجيد . وهذه الآثار الرائعة وتلك النهضة التى قامت على أرض النيل والفرات والبحر الأبيض المتوسط . . هـــذا الماضى المظ. للانسان قام على أكتاف العبيد والفلاحين والعمال .

إستنفذ المجتمع القديم طاقات هـــذه الطبقات من الفن والعمارة ومن أجل هـذه الآثار الرائعة التى قامت على أيادى البوسـاء والمنبوذين . . كانوا هم مصدر الدخل وهم المواهب التى تعمل . . كان المجتمع القديم يختلف فى استغلاله لطاقات هذه الطبقات عن المجتمع الرأسمالى أو الملكى الحديث الذى يدخر خيرات هذه الطبقات لمنفعته الشخصية لملذات الدنيا . . على أن يعيش هو فى مستوى معيشى من المتع والكماليات وتعيش الطبقات الأخرى صـــانعة الانتاج محرومة من معظم الضروريات . . فى حين تـكدس خيراته معطلة أو تستغل لاستغلال مجموعات أخرى . . أما المجتمع القديم فان لم يختلف فى تركيبه عن مجتمع العبودية والطبقات اليوم فى كثير من الصور والتفاصـــيل إلا أنه اكتشف الفن . . هذا التراث الذى نقف حياله اليوم مبهورين مقدرين نبوغ الاقدمين ومواهبهم . . اكتشف المجتمع القديم الفن عن طريق العبادات . . فقد ولع بتقديس الآلهةالتى اخترعها .

ومبالغة فى تقديسها سخر المجتمع القديم كل طاقات المجتمع لتخليد هذه الآلهة . . وكان هذا التخليد وسيلتة الفن . . مجتمع عاش على السيادة . . سيادة الملكية والمعابد وكهنة المعابد والطبقةالممتازة لخدمة الملكية والمعابد . . أم بقية خلق الله فقد كان نفاية ، وخادم لاسعاد هذة الطبقات .

إنسان من نوع آخر ليس من فصيلة هذه الطبقات التى تسيطر على مقاليد الحكم والمعابد . . كان هنالك العبيد فى كل من حضارة الفراعنة أو الرومان والأغريق أو الأشوريين . . وكان هنالك الفلاحين الغلابة المساكين وكان هنالك العمال أساس الانتاج والابداع . . لأن الأقدمين وخاصة الأغريق عدوا أهل الحرف من أهل الفن منهم النجارين والحوذية والبنائين وكل الفعلة . . وهى نظرية سليمة لأن كل عمل يدوى كان يحتاج لروح فنية حتى يصبح عملا مقبولا ترتاح النفس إلى استعماله ومعاشرته .

هذا هو وضع الحضارة التى قامت فى العصور القديمة والتى تعدها البشرية اليوم بعصور الابداع وعصور النبوغ الانسانى .

هذا هو أصل تلك الحضارات قام على اكتاف العبيد وحصاد الفلاحين وإنتاج وابداع العمال . وعاشت الطبقات العليا فى القصور والمعابد تخطط لهذه الطاقات الانسانية وتقسوا عليها . . حتى بنت الأهرامات والمعابد والقصور التى تقف اليوم أمامها إجلالا وتقديساً .

جلب العمال من شتى أنحاء البلاد بلارغبة أو أجر وسيق الفلاحون بالألوف لنقل الأحجار وتكسيرها . . وأرسل عشرات الآلاف البحث عن الذهب ونقل خيرات الطبيعة إلى القصور والمعابد لتجميلها وتذويقها بأيدى هده الطبقات المنبوذة .

هى تخلق الفن . . يقبل الفن . . وهى ترفض . .

تشيد هذه الأيادى الهزيلة المريضة بالانيمياء والعرى تلك القصور والمعابد والتماثيل . .

وتبقى التماثيل لتعيش حضارة الفراعنة .. وتذهب الملايين ضحية لتلك الحضارة التى قامت على أسوأ صورة من صور الاستغلال .. والاضطهاد .. والتسخير ..

وكما جلب الفلاح والعامل المصرى جلب الفلاح والعامل السودانى وكما سخر المواطن المصرى كعبد سخر المواطن السودانى كعبد لذلك النظام .. القائم على تحالف البلاط الفرعونى وكهنة المعابد ..

وقد أخذ الفلاح السودانى من أرضه مثل الفلاح المصرى قسرا إلى مواطن العمل عاملا أو عبداً بلا أجر أو رعاية إنسانية تقابل هذا المجهود الذى يبذله لارضاء طموح البلاط الفرعونى وأفكار رجال المعابد والحاشية ..

وقد أخذ هؤلاء المساكين لا عن طريق التطوع أو التجنيد ولكن عن طريق جنود الملك ، سيقوا كعبيد لا عن طريق الشراء أو البيع ولكن عن طريق وضع اليد .. أى عددتغير عليه شلة من الجنود المستعبدين تستولى عليه لينضم إلىعبوديتهم وربما خرج منهم عبد مبرز فى فنونالقتال .. وعاد رسولا يقيد أبناء طبقته عبيداً حسب الأوامر الصادرة إليه من البلاط أو الكهنة تحت ذلك النظام وتلك الحضارة التى قامت على النيـــل والتى أولعت بالمعابد والمقابر والقصـــور والتى يعجز دخلها على الانفاق على تلك المشاريع الفنيه الضخمة ..

كان لابد من السخرة والتسخير .. كان لابد من إيجاد عدد هائل من العمال المهرة وغير المهرة من أرض النيـــل ليعملوا على تشييد مئات المعابد والقصور والأهرامات التىقامت علىالنيل .. وبذلك وربما لأول مرة فى التاريخ تنشط حركة العمل بتلك الصورة .. ولكنه عمل بلا أجر عمل السخرة ..

حيث كانت موارد الدولة من الاقطاع والضرائب لا تكفى للانفاق على نفقات البلاط .. وكان لابد من إيجاد المال وإيجاد العمال بدون أجر .. وبذلك خلقت طبقة العبيد بالضرورة وطبقة العمال بدون أجر بالنسبة لموارد الدولة القائمة على الضرائب وعلى الحاصلات الزراعية ..وفى أى عصر كانت الضرائب الزراعية وكافية لمقابلة نفقات الحكام والادارة .

ولذلك كان السودان بالضرورة مصدراً من مصادر القوى العاملة كعبيد أو عمال أو فلاحين وقع عليه حظ وضع اليد .

ثم أصبح السودان مورداً للمواد الغذائية بعد أن ماتت الملايين من الأيدى العاملة من المزارعين فى إنشاء تلك المبانى .. وهذا هو السبب المباشر الذى جعل ذلك النظام الملكى الاقطاعى القائم على حضارة العبيد والسخرة أن أمتد رويدا رويدا للجنوب حتى جاء زمن كان هـــذا النظام وحاجة اقتصاده للامكانيات المادية الجديدة والموارد الجديدة ليبقى ذلك النظام الحضارى القائم على اقتصاد الاقطاع أى الضرائب الزراعية .. كان لابد حين تعجز إمكانياته عن تحقيق أحلامه وأفكارة وتطلعاته وولعه بالآلهة وطلبات الآلهة الفنية من أن يبحث عن موارد جديدة وهذه الموارد الجديدة لم يكن لها غـير طريق واحد هو طريق التوسع والاستيلاء على أراضى جديدة بما فيها الأيدى العاملة .. ولذا جاء زمن كانت الحضارة الفرعونية قد وصل نفوذها إلى أرض الجزيرة حيث ماتت هنالك بين السهول حين فقدت أدواتها الفنية للتشييد والبناء من الأحجار والمواد الصالحة للتشييد ، مثل تلك الآثار العظيمة التى عاشت عشرات القرون وستعيش عشرات القرون .

هذا كان أحد الأسباب بدفع الحضارة الفرعونية لتمتد فى أرض النوبة لتبتلع كل شمال النيل ثم تلتفت جنوبا وتقيم المراكز والمناديب وخلق

الأمادات والممالیك الصغيرة حتى جاء زمن أصبح الجنوب أكثر غناءاً من الشمال الذى يستهلك طاقات البشر فى البناء والتشييد بروح السخرة وفقد الايدى العاملة فى الزراعة من اجل المعابد والقصور وصار اقتصادة يعتمد كلية على خيرات الجنوب الذى صارت فيه نفقات البناء والتشييد بأقل قدر من النفقات وقامت فيه عشرات المعابد والقصور ولكن بتكاليف أقل من فى الشمال وهنا الفرع وهناك الأصل .

وحين جاء القرن الثامن قبل الميلاد كانت أرض النوبة والبركل وجنوبها قد دبت فيهما الحياة ونشطت فيهما الحركة والعمل وأستغلت الأيدى العاملة البشرية أقسى استغلال لأنتاج أكبر قدر من العمل البشرى . . وكان لابد لجنوب المملكة الذى أصبح اقتصاد الدولة الأم يعيش عليه عيشة كاملة ويطالبة كل يوم بالمزيد .. بالمزيد .. حتى جاء اليوم الطبيعى فى أن أن يعجز إقتصاد الجنوب ويعلن التمرد . .

وإذا بالجنوب فعلا يعلن التمرد وتظهر أول دولة وصلنا من المعلومات مايكشف لنا عن شكلها وقوتها وتركت لنا من الآثار مايكشف لنا عن نشأتها وتوسعها وتكوينها وهى دولة نبتة التى ظهرت فى القرن الثامن قبل الميلاد .

بظهور ملك نبته (البركل الآن)وقد أمتلأت خزانته وقوى جيشه وأصبح فى وضع يسمح له أن ينفصل من الأمبراطورية الأم للتى ساءت حالتها الاقتصادية ودب الضعف فيها وأصبحت لاتجد من الموارد مايعيد لها شبابها وقوتها الأولى وأصبحت قوتها فى هـذه الاجنحة التى رفعت عصا العصيان بعد أن أصبح استغلالها أمراً مستحيلا .

هـذا القانون واضح فى كل الحضارات والنهضات التى قامت بها الدول

والمجموعات خلال تاريخها الطويل.. فلو بحثنا عن سبب نهضة الأغريق أو الرومان فى يد حفنة من التجارة والبيوت وكانت التجارة والبحر هى عصب اقتصاد و انتعاش حياة تلك الحضارة وكذلك الحال عند الاشوريين فقد وجدوا خيرات نهرى دجلة والفرات فأستغلوا خيرات هذه الأراضى الخصبة وماجاورها حتى أمتلأت خزائن تلك الحضارة ..

ثم جاء وقت إستنفذت فية تلك الحضارات كل طاقات هـــذا العمل التجارى وهذا الاستغلال الطبيعى القائم عن سيادة طبقة أو مجموعة من السادة على العبيد والفلاحين والعمال . . وحين لم تجـــد تلك الحضارات روافد جديدة لتغذية إقتصادها وقف نمو حضارتها التى هى فى حقيقتها مشاريع غير إنتاجية لاتأتى بدخل أو عائد . . والصرف عليها كان يجب أن يقوم فى تلك العصور على ذالك النوع من الاستغلال والسخرة .. وهذا ماحدث فى أرض النيل . وسنرى ذالك فى تاريخ الاسرات بشىء من الإيجاز معتمدين على دراسات الحضارة المصريه ومنقولات المتحف المصرى للاثار ومجموعة الكتب التى لخصت هذه الفترة من تاريخ السودان القديم بتاريخ الاسرات .

وهى المجموعة (١) (أ) من عام ٣٤٠٠ ق . م إلى عام ٢٧٢٠ ق . م

المجموعة (ب) من عام ٢٧٢٠ ق . م إلى ٢٣٢٠ ق . م

المجموعة (ج) من عام ٢٣٢٠ ق . م إلى ١٦٠٠ ق . م

(٢) حضارة كرمة

(٣) دولة كوش القرن الثامن ق . م ٨٠٠ — إلى ٣٥٠ ميلادية .

ثم بعد ذلك انتهت الممالك الفرعونية بعد عام ٣٥٠ ميلادية ليدخل السودان فى العهد المسيحى .

ونعود مرة أخرى لنقف على بعض التفاصيل البسيطه التى وصلت الينا عن امتداد الحضارة من الشمال للجنوب وازدهار هذه الحضارة خلال تلك الحقبات الخمسة التى بيناها ثم نقف على آثار تلك الحضارة من الفن والعمارة ونرى .. اتجاهات هذا الفن وفى أى الأغراض وجه واستغل ..

المجموعة (أ) من عام ٣٤٠٠ ق . م إلى ٢٧٢٠ ق . م

هذه أول مجموعة أثبتها المؤرخون فى تاريخ السودان القديم وعلاقتها بالحضارة الفرعونية .

جعل المؤرخون بداية الحياة من جديد بعد الطوفان لوادى النيل بعام ٦٠٠٠ قبل الميلاد إلى عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد حيث بدأ العصر الفرعونى يمد شبابه وتكوينه وتظهر الحضارة الفرعونية على أرض النيل ولما كان هذا الجزء من تاريخ الحضارة المصرية الأولى فيحسن أن نربط بين الحضارتين أو نتحدث عن حضارة وادى النيل كشكل حتى تتضح لنا الصورة لتلك النهضة وذلك التوسع فى تلك العصور البعيدة التى نتصورها والوقوف عند بعض الحقائق العلمية لها يمكن أن نجعل من تاريخ تلك الحقبة صورة اسطورية حلوة للذين يعشقون الافكار غير المالوفة .. وهذا هو الجانب الممتع فى فى الحضارات القديمة وذلك الخليط من التقاليد والمعتقدات التى تبدوا لنا مدهشة وغريبة :

وتدخل الدولة السودانية الأولى أو أرض « تاهقسو » كما كانت تسمى أرض النيل جنوب أسوان . . تدخل هذه الدولة من ٣٤٠٠ ق م إلى ٢٧٢٠ ق م

يدخل هذا الجزء من تاريخ السودان مرحلتين من مراحل الحضارة المصرية التى إتفق على تقسيمها إلى مجموعات الأسرات : ومنها الدولة القديمـــة أو المنفية (٥٠٠٤ — ٣٠٦٤ ق . م) أو دولة منف من الأسرة الأولى إلى الأسرة العاشرة ثم تدخل فى الدولة الوسطى أو الطيبية الأولى تبتدىء من عام (٤٠٦٤ — ١٧٠٢ . ق م) أو دولة طيبة وتبدىء من الأسرة الحادية عشر وتنتهى فى الأسرة السابعة عشر :

زعم المصريون القدماء أن أصلهم جاء من تسعة الهة خلقت « نو » المحيط الأول مكان الالهة رع « الهة الشمس فى باطنة ثم ظهر هذا الكون فبسط النور على السهول والوديان وطرد الظلمات وقسم هذا الكون إلى ماء ويابسه . ورأت الالهة رع هذة الأرض عند بدايتها كما خلقها « نو » .

رأت الحياة بدون حياة ولانباتات وزرف الدموع السخينة التى نزلت من عينية الزرقاء وخلقت الدموع الحيوانات والنباتات .. ورأى الآرض منبسطة . . فظهر الآله « شو » ورفعها على ذراعية الجبلتين . . وجعل لها الجبال أوتادا وأعمدة لتساعد على تماسكها . . وبانت الأرض . . حسب ماوصل إليه تفكيرهم فى الوجود بأنها عبارة عن صندوق مربع قائم على أعمدة من الجبال تغطية المياه من كل جانب قاعدته هذه اليابسة ..

وعندما توصلوا لخلق الحياة على هذا المنوال خلقوا حسب نفوسهم وأعمالهم آلهة الخير لتقابل الأيام والفصول والحوادث الطيبة . . وكان هذا اشيئا ضروريا بأن يخلقوا الرمز لشكل تصوراتهم التى يجب أن يجدوا لها مدلولا ومفهوما .

وجعلوا الالهة «رع» آلهة الشمس حاكما على الارض، وجعلوا اقامته فى عين الشمس وفكروا أنه لا يمكن أن يعيش وحيدا فجعلوا له رعيته . . يخرج عند شروق الشمس الصافية فى زورقه تصحبه حاشية من الآلهة .. طائفا بالارض ناشرا حكمته

ونصائحه على رعاياه فى كل الارض .. مسديا لهم النصيحة والخبرة .. حتى ركب الشيطان رأس خادمته « ايزيس » لتفكر فى أخذ الطلسم السحرى الذى ورثه عن والديه الذى يضمن لحامله الملك الذى ورثه عن والديه ويحفظه من الضرر والاذى . . ونجحت خادمته فى سرقة الطلسم السحرى حتى ضعفت سلطة رع الارضيه وتجمع البشر لخلعه . . وعندما شعر « رع » بنكران البشر لخيره وأبوته جمع الالهة غاضبا من البشر وحكموا على البشر بالقتل وتولى الالهة هاتور تنفيذ وصية الالهة.

وبدأ فى إرسال الاوبئة لفتك البشر .. ومازال هاتور يفتك بهم حتى اشفق رع صاحب القلب الطيب على نكبه البشر من هاتور . . فانقذهم . . ثم صعد على ظهر بقرة إلى السماء . ثم تستمر سلسلة الالهة التى تصورها الانسان القديم لتقف مكان الحقيقة ثم جاء « أوزيريس » من سلالة رع فاحبة الشعب واحبه رع وخلفه ملكا على مصر ثم تزوج أوزيريس باخته « إيزيس » وجعلها شريكته فى الملك وعلم المصريين الفلاحة وأخترع لهم الالات الزراعية وعلمتهم ايزيس الطحن بالرحى والغزل بنسج الكتان ومبادىء السحر والطب وسنت لهم قوانين الزواج الشرعى .

ووضع لهم أوزيريس الكتب والطقوس والقوانين الدينية وبنى طيبة وقيل ولد فيها . .

ثم دخل الملك إلى أيزيس ورحل عن بلاده مع بعض الالهة على شعوب الأرض الأخرى يعلمهم ماعلم المصريين . ثم عاد إلى مصر فدبر له أخاه بتفون آالهة الشر وقتله غدرا .

وكان لاوزريس طفل حين قتل يدعى حوريس وعلم الطفل بعد أن كبر بقصة مقتل والده اوزيريس على يدعمه « بتفون » . . وأضطر للتنازل عن أرض

الدلتا فانقسمت مصر بعد ذلك إلى مملكتين الأولى الوادى وهى واقعة بين منف والشلال الأول وكانت من نصيب العم « يتفون » والاخرى الدلتا وكانت من نصيب حوريس ثم جاء الى أرض مصر إسرتان عظيمتان حكمتا مصر وأمتد ملكهم الى الفرات شرقا والى الحبشة جنوبا وربما كان المقصود بالحبشة أرض السودان رغم قدم حضارة الحبشة .

واشهر ملوك هاتين الاسرتين « توت » الذى علم المصريين الكتابة والبحث فى أحوال الفلك وأوجه القمر وحركة الشمس وقسم السنة الى أيام وشهور وفصول .. فصل التخضير (نمو الزرع) وفصل الحصاد وفصل الفيضان وسمى شهور السنة بأسماء الآلهة فجعل الشهر الأول توت والثانى بابه والثالث هاتور .

وظلت مصر تحت حكم الآلهة الذين كانت السلطة فى أيديهم ثم بعدهم الجند ثم بقية السكان من فلاحين وعمال وعبيد ..

وزاد ظلم الكهنة واستبدادهم حتى ظهر « مينا » وحرض الجند على الكهنة حتى اعترفوا به ملكا .. وبذلك تغير نظام الملك على وادى النيل وأصبح الكهنة يساعدون الملك بعد أن كانوا هم يصرفون الملك وعمقوا فى تلك الفترة التى حكموها فكرة الالهة وعقابها وابتدعوا ما شاء لهم خيالهم من الالهة حتى جعلوا لكل شيء الاه وظل هذا التأثير الاول والايمان المطلق بالالهة هدف صنع واختراع دولة الكهنة الأولى وظل هذا الاعتقاد قرونا طويلة حتى جاءت المسيحية ثم الاسلام .. وقد امتد هذا الايمان بالالهة على طول النيل حيث امتدت دولة الالهة ثم المملكة المصرية التى توسعت لتلبى حاجات العمرات التى قامت فى وادى النيل لتخليد الالهة والموتى .. وما ساعد الى خلود الايمان بالالهة أن الملوك بعد تنازل الالهة عن الملك جعلوا للملك نفسين أحداهما سيدة الدلتا والأخرى سيدة الصعيد .. وان الملوك يتناسلون من الشمس .

هذا المفهوم الديني الذى عمق بين عامة الشعب من رجال حكام وكهنة تفرغوا للتفكير الديني جعل الشعب فى حالة سلبية لأى ظلم يقع عليه.. فلا يصح أن يغضب العبيد من الكهنة والملوك آلهة كما علموا واعتقدوا وبذلك سخروا شعب وادى النيل لخدمة الالهة وجعلوا كل البشر عبيدا لهؤلاء الملوك والالهة.

هذا هو النظام الملكى الذى شب على أرض واوى النيل .. حد من أى تفكير للتمرد عند الناس وجعل من ملوكه آلهة وخلق أساطير الالهة لهم.. وهى أخطر فكرة لشل حركة الناس ضد ، الظلم ويبدوا أن كهنة القرون الوسطى فى أوربا قد استلهموا هذه الفكرة ووقفو حائلا بين تمرد الشعوب الاوربية على ظلم الاقطاع الاوربى وجعلوا هذا الظلم من مشيئة الرب .. وجعلوا الملوك أبناء الرب المختارين وأى تمرد ضد هؤلاء الملوك انما هو تمرد ضد الرب حتى وصل هذا الظلم لرجال خرجوا من الكنيسة وحطموا هذا الاعتقاد وأنقذوا البشرية من سباتها لضلال كهنة القرون الوسطى مثل مارتن لوثر .

ثم ظهرت عبادة الحيوانات على يد الملك كاكاو واشتهر العجل « أبيس » فى منف ثم بقية أراضى النيل وزاد حب المصريين بملوكهم بعد عهد الملك بينوتريس الذى سن القوانين وأباح للنساء حق تولى الحكم .. وجعل الملك نائب الالهة وابن الشمس .

* * *

تطور الفنون ونشأتها فى السودان

نشأة الفن الأول

لقد تحدثنا عن نشأة المجتمع البدائى وعلينا الان أن نتحدث عن نشأة الفن وبدايته أو الفن البـدائى .. فى الرسم والنحت والموسيقى والرقص والغناء .

لو حاولنا أن نبحث عن أى نوع من أنواع الفنون إكتشفها الإنسان الأول ، بين الرسم والنحت والموسيقى و الغناء . فلاشك أنه قد توصل إلى واحدة تلوا الاخرى .

لا نستطيع أن نكتشف هـذا الفن الأول إلا إذا وضعنا فى إعتبارنا نظرية وهى أن كل الفنون تخضع للامكانيات الطبيعية .

الفن هو الإنسان زائداً الامـكانيات الطبيعية التى حوله بما فيها من نباتات وإمكانيات اجتماعية وحضارية الخ .

فلو حاولنا أن نطبق هذه النظرية على الفنون البدائية الأولى لنكتشف أى

الفنون استطاع أن يكتشفها الإنسان دون غيرها فسوف تقدم الرسم والنحت على بقية الفنون الأخرى لانها أخذت فى طورها الاول تقليد الطبيعة من الصورة التى أنطبعت فى الذهن أومحاكاة الطبيعة .

أما الموسيقى فقد كانت تحتاج إلى آلات وإحساس أرهف وكذلك الرقص والغناء يحتاج لامكانيات حسية وفنية فى الانسان لم تكن قد تكونت بعد فى حياة الانسان الاول الذى عاش وحيداً بين الادغال والحيوانات ، يفترسها وتفترسه لا فرق بين ، حياته وحياتها غير بعض التصرفات العقلية التى كان يأتى بها يأوى يإإوى إلى كوخ من البرد والحر والمطر أو يختبىء من الحيوانات أو فى كيفية صيد حيوان قوى .

هـــذا الانسان الاول ترك لنا أثاره على الكهوف والصخور تلك الآثار أعطتنا فكرة عن مقدرة الانسان الأول على محاكاة الطبيعة إلا أن معظم المؤرخين لم يحاولوا أن يبحثوا عن الفنون الأولى التى نشأت كاالرسم أو النحت بل وقف معظم المؤرخين مع النحت وذلك للاثار التى وجدت أما الفنون الأخرى التى لم تخلف تراثاماديا فلم يحاولوا أن يبحثوا عنها كالموسيقى والرقص وإنمـــا اكتفوا بتطور هذا الفنون بعد تطور النحت وهى مرحلة بعيدة فى حياة الانسان الحضارية .

كانت ظروف الإنسان الأول تهيئة للرسم قبل النحت فالنحت عملية أصعب من الرسم وذلك للمواد التى تستعمل فى كل من الحالتين. فقد تعلم الا

الأول الرسم بالصدفة . . . جلس على شاطىء النهر أو تحت شجرة وبدأ يخط بيده على الأرض ... أشكالا غريبة غير مقصودة ووجد نفسه أنه يعمل أشكالا على الأرض لم يحدد ماهيتها وبدأت هذا الخطوط على الأرض تأخذ شكلا آخر فى ذهنه ، بعد أن كانت عملية عضوية أو حركة غير مباشرة من يده بدأ يوظف هذه الحركة لتقليد شىء مما يراه أمامه . . وهو بلا شك لم يخلق شكلا جميلا به كل المقاييس الفنية ولكنه استطاع أن يرسم الشكل الذى أراده إن كان لشخصه أو لحيوان أو شجرة أو طير ... وبدأت له هذه العملية جميلة تملأ فراغه وتشغله وصار يمارسها كلما وجد الوقت والمكان المناسب لهذه العملية .

بعد أن توصل الإنسان بالصدفة بتخطيطه على الأرض إلى الرسم توصل كذلك على النحت على الحجر بعد أن جرب إمكانياته على تقليد الطبيعة وحين اضطرته الظروف إلى الاحتماء بالكهف لم يمارس النحت فى بدايه أمره لملأ الفراغ الذى يحتويه بل بدأ يلعب على الأرض يخط أشكالا غريبة أو مقصودة لمظاهر الطبيعة ثم اكتشف وجود حجر حاد بجانبه فبدأ ينقش على الكهوف تلك الأشكال التى كان يخطها على الأرض بعد أن تمرس عليها . بعض تلك النقوش التى كان يخطها على جدران الكهوف احتفظت بشكلها لتصل إلينا وتعطينا وثيقة خطية على مقدرة الإنسان على العمل الفنى مستحدثاً الإمكانيات المادية التى حوله .

أما الموسيقى والرقص والغناء أيهما سبق الآخر فيمكن التوصل إلى النتيجة بنفس النظرية الأولى ، فقد بدأ الرقص والغناء فى لحظة واحدة . . . وجاء ذلك تعبيراً الاندهاش والفرحة فى لحظة معينة ومعبراً عن سروره . . . حين حاول الإنسان الأول أن يصطاد حيوانا . ونجح فى اصطياد ذلك الحيوان وبدون أن

يشعر بدا يقفز فرحا ويصدر أصواتاً ليست جميلة على كل حال ولكن لها إيقاع يساير الحال والقفز ويعبر عن حالته النفســـية وفرحته وهى عبارة عن همهمة وقفزات عالية ثم جاءت الموسيقى فى حياة الإنسان الأول حين وجد نفسه سائراً وحيداً يلعب بأصابعه فتعطيه فرقعة الأصابع إيقاعاً منتظماً متنوعا وصار يكرر هذا الايقاع وينسجم إليه بمفرده ثم طور هذا الايقاع بالضرب على الأيدى مع المجموعات للتعبير عن الفرح مصاحبا الرقص الجماعى حين تصطاد حيواناً . أو العائلة حين تجد وليمة أو حيواناً ، أو تعبيراً عن اللقاء والعودة إلى المنزل أو المكان الذى اختارته للقاء فيه.

لقد حاولنا أن نعطى صورة عن بداية الفنون مع بدايه الانسان الأول . ولا بد الآن علينا أن نتتبع تطور هذه الفنون فى السودان عبر التاريخ بعد أن انتظم الإنسان فى مجموعات وتطورت حياته البدائية لحياة اجتماعية لها قوانين ونظم وذلك خلال مسيرة الإنسان على النيل حتى وصل إلى الحضارة الفرعونية ثم المسيحية والإسلامية .

نود أن نضيف نظرية أخرى للفن وهى أن الفن تعبير عن إمكانيات الطبيعة والمجتمع.

إستعمل الانسان إمكانيات الطبيعة التى حوله لخلق منها الفن الذى يمكن أن يأتى من تلك الامكانيات ...

فلو نظرنا فى ظروف الحضارات التى قامت حول البحر الأبيض المتوسط وهى الحضارة الفرعونية والاشورية والاغريقية والرومانية لوجدنا أن أعظم ما خلفته تلك الحضارات لا تتعدى عن إمكانيات الطبيعة ، فقد وجد الانسان الأول على النيل الامكانيات المساعدة لتشييد العمارة والنحت من حجارة الجرانيت

الذى يساعد على النقش الغائر وكذلك يجد الجير الأبيض وأنواع عديدة من الحجارة فى كل منطقة .

فقد وجد الانسان على النيل مواد حجرية مختلفة استغلها كلها بما يناسب إمكانيات تلك المواد للاعمـــال الفنية مثال ذلك حجر الجرانيت الأحمر ذى الحبيبات الخشنة لصنع التماثيل الكبيرة التى لا تحتاج لصقل وشكل ملس ناعم واستغل الجرانيت الأسود ذى الحبيبات الصغيرة للتماثيل الصغيرة وذلك ليجعلها ملساء رقيقة على اليد وإمكانية صقلها فى أشكال صغيرة مختلفة . . . واستغل حجارة الجير لرخاوتها وإمكانية صبغها بالألوان واحتفاظها بتلك الألوان .

توفرت مثل هذه الامكانيات الانسان على النيل فى حين لم توجد مثل هذه الامكانيات فى منطقة الحضارة الاشورية التى كانت تقيم مبانيها من الطين وقد ساعدتها ظروفها الاقتصادية وإمكانياتها المادية على استيراد هذه الأحجار للتماثيل من خارج منطقتها ولذلك ساعدت سلسلة جبال الألب وغناءها بالأحجار المختلفة على قيام التماثيل وعمارة الأعمدة عند الاغريق والرومان .

أما فى السودان فقد هيأت الظروف للمنطقة الشمالية فى الســودان قيام مثل تلك الفنون من نحت وعمارة وذلك لغناء تلك المنطقة بسلسلة جبال تحيط بمجرى النيل مما يساعد على بقاء تلك الآثار القديمة عبر التاريخ واحتفاظ تلك الآثار الحجرية بتاريخها عبر التاريخ رغم الخـــراب البشرى والطبيعى الذى تعرضت له .

أما إذا سرنا جنوب المنطقة الشمالية فنجد قلة الجبال التى تصلح لبناء عمارة كالتى قامت فى الشمال وكذلك التماثيل الأمر الذى جعل أثر هذه المنطقة خلال العصر الفرعونى غير معروف .. ولكن هذه المنطقة استغلت إمكانياتها الطبيعية

وهى (الطين) ، لبناء المعابد والتماثيل من الصلصال وصنع الفخار الأمر الذى جعل آثار هذه المنطقة قابلة للتلف بواسطة الإنسان والطبيعة مما جعلنا لا نعثر على آثار كافية لتلك الحضارة التى نشأت فى مروى القديمة قرب الدامر وذلك لاعتماد عمارة وفن تلك المنطقة على بنـــاء قلاعها ومعابدها من الطين وتماثيلها وأوانيها من الصلصال .

وقد امتازت أرض السودان وجباله بالمعادن كالذهب والنحاس والحديد الأمر الذى ساعد الحضارة الفرعونية لاستغلال هذه المعادن فى التماثيل والأوانى والزينة إلى أبعد حد ..

وقد برع الفنانون فى تشكيل تلك المعادن وإخراج تماثيـــل غاية فى الجمال والروعة وقد احتفظت لنا منطقة البركل (نباتاً) ببعض هذه التماثيل الذهبية كما تضم المتاحف الأوربية ومتحف القاهرة الكثير من آثار تلك الحضارة التى قامت فى السودان من المعادن والذهب والأحجار .

وهنالك إمكانية أخرى وهى النباتات الطبيعية من أشجار ونبات نبت على ضفاف النيل استغلها الانســـان فى كثير من حاجياته اليومية وقد ظهرت المصنوعات الخشبية ضمن الآثار المعروضة فى متحف القاهرة وإذا ابتعدنا عن النيل نجد إمكانيات أخرى استغلت نفس الاستغلال لحاجة الانسان للجمال وهى المصنوعات المصنوعة من جلود الحيوانات المختلفة والطيور والأشجار وقد اختص جنوب السودان بنوعين من المصنوعات الفنية وهى المصنوعات الخشبية. وذلك من الأعشاب القابلة على التشكيل كما استغل الأبنوس والعاج وظهرت فى غرب السودان المصنوعات الجلدية للحيوانات والزواحف والطيور والنباتات وفقدت تلك المنطقة المصنوعات الحجرية والصلصال وذلك لطبيعة الأرض الرملية ولقلة الأحجار الصالحة لهذا الفن إن كان للعمارة أو النحت .

تطور هذه الفنون :

هذه فكرة عامة عن نشأة الفنون عند الانسان وتنوع هذه الفنون فى السودان باختلاف الأماكن والامكانيات الطبيعية لأن تلون الفنون وتنوعها جاء نتيجة تلون واختلاف الامكانيات الفنية .

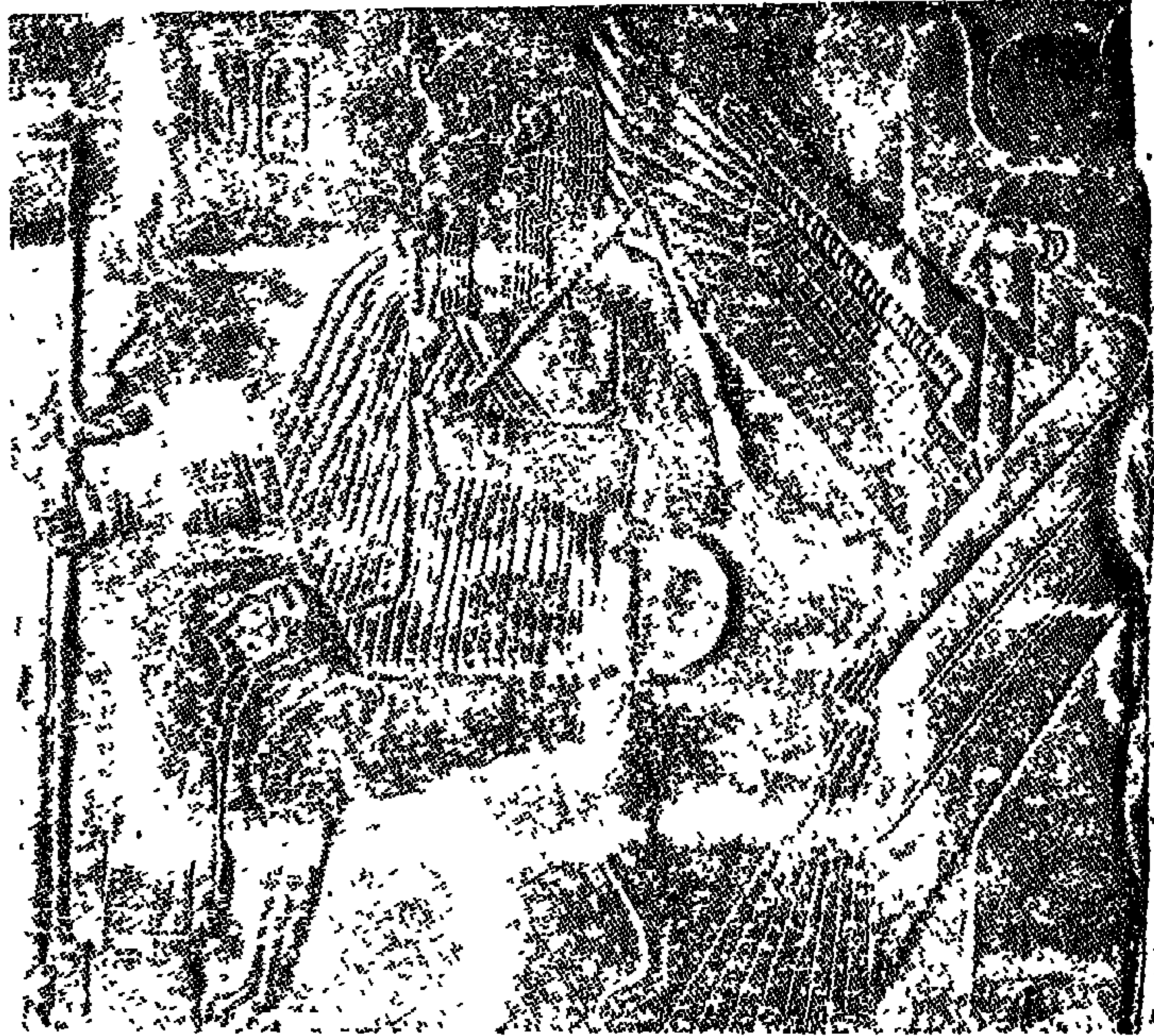
فالانسان عنصر واحد متساوى فى كل الامكانيات البشرية الخلاقة ، وما يظهر هذا التنوع هو الطبيعة أو المادة الفنية المصنوع منها الفن ومظاهر الطبيعة نفسها توحى بالفن ومحاكاته . لأنه لا يعقل أن يرسم سكان غرب السودان أو النيل الدب القطبى أو الحيوانات البحرية والقطبية كما لا يجوز أن يصنع الانسان فى الجنوب مصنوعاته الفنية من المرمر والأحجار الصالحة للفن وهى غير موجودة بحوزته ولا يدرك الامكانيات التى أعطتها له الطبيعة كالعاج والأشجار وجذورها والحيوانات ومخلفاتها والطيور ولا يعقل أن لا يصنع الفيل والتمساح والطيور المتواجدة بجانبه بكثرة ويفكر فى صنع الجمال الصحراوية والخيل والحيوانات التى لا تقطن المناطق الاستوائية .

من الامكانيات التى حول الانسان ومن مظاهر الطبيعة خلق الانسان فنونه وبدأ يطورها بمرور الزمن والعصور وإن كنا لم نعثر على أثار قديمة لسكان النيل قبل الحضارة الفرعونية فلا يعنى ذلك أن تلك الفترة التى سبقت الحضارة الفرعونية لم تخلق فناً ولكن الأمر يرجع إلى أن تلك المصنوعات لم تقاوم مادتها الطبيعية كل هذه القرون بجانب المناطق الأخرى التى لم تتوافر لها مثل هذه المواد الحجرية القابلة على البقاء والتى كانت مصنوعاتها من الطين والصلصال ومخلفات الحيوانات من عظام وجلود ومن أخشاب الأشجار وثمارها .

ظهر الفن فى شمال السودان ذلك الذى خلفته لنا آثار الأسرة الثانية عشر



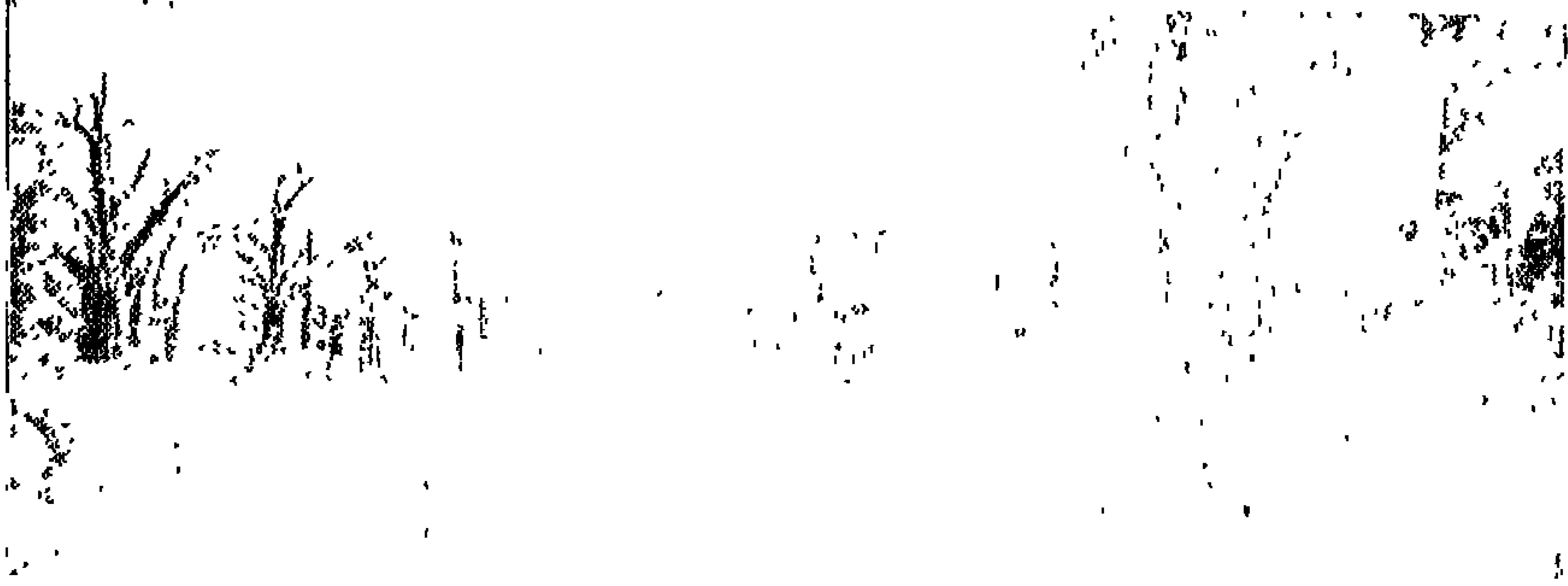
الطبيعة المتنوعة الغنية وقفت كثافتها بينها وبين الإنسان



احد ملوك مروى القديمة حيث امتدت الحضارة الفرعونية بعباداتها وفنونها داخل السودان . جمال الخطوط ودقتها تبين ما وصل اليه الفن فى منطقة مروى من جمال وروعه .



اعشاب بحر الجبل مثال لصورة أعشاب الجنوب وقف الانسان حائراً امامها !!



غابات النيل الازرق طيبة سهلة تختلف عن غابات الجنوب . . وفرت المرعى للماشية واتاحت الإنسان ان يرتادها ويستفيد منها



الطبيعة على النيل الأزرق غنية بسيطة فى تركيبها اتاحت للإنسان الذى عمرها امكانيات لا تحد

الطيبيه (٢٧٥٩ — ٢٩٦٣) ق . م وكذلك ظهرت آثار هذا الفن الفرعونى فى منطقة النوبة وأسوان قبل هذه الأسرة فى عهد الأسرة السادس الأسوانية (٣٦٠٣ — ٣٢٩٩) ق.م.

لم يظهر الفن فى السودان بظهور الحضارة الفرعونية فى القرن الأربعين قبل الميلاد إنما ظهر الفن قبل ذلك بآلاف السنين واستخدمت نفس المادة التى استمر صنع الفن منها بعد ذلك فى عصر الفراعنة ولكن ما ظهر فى هذه المنطقة هو التأثير الفرعونى وتوظيف هذا الفن لخدمة العبادات واستعان الانسان ببعض الأدوات الفنية التى تستعمل للنقش والنحت على الحجر ، أما نوع الفنون قبل التأثير الفرعونى والأغراض التى كان يستعمل من أجلها فهى لاشك و معظمها محاكاة للطبيعة وربما أغراض دينية وثنيه أيضاً لم تعثر على آثار لها ولكن مما لا شك فيه أن المجتمع على النيل داخل منطقة النوبة وجنوبها قد انتظم وعرف النظم الاجتماعية الأولى وترقى فى هذا السلوك الاجتماعى الأمر الذى أتاح له ان يجد الوقت لصنع الأشياء الجميلة وتقليد الطبيعة والكشف على مقدارته الخلاقة كما اكتشفت من قبل مقدرته على خلق مجتمع مستقر مستقر منتظم وعلى كسب القوت والسكن وحاجياته الطبيعية للحياة .

إن ما تعطينا له الآثار عن أثر الحضارة الفرعونية يجب أن لا يوقف تصورنا عن وجود آثار قديمة اندثرت بفعل الطبيعة أو بفعل الانسان أو بفعل الحضارات المتعاقبة .. وعلينا أن نضع فى اعتبارنا إن الاستقرار وتنظيم الحياة المعيشية وضمان سبل العيش من العوامل المساعدة للاستقرار الذى من داخله تأتى الأشياء الخلاقة وتتفتح فى ظله المواهب الانســـانية الرقيقة ويقود لتهذيب السلوك والأخلاق التى ينعكس أثرها فى الفن .

إذن هنالك فن نشأ على النيل قبل قيام الحضارة الفرعونية يختلف بأختلاف

إمكانيات النيل الطبيعية وذلك بسبب ما أعطاه النيل للمجموعات التى عمرته من خيرات وعيش مضمون من زراعة وحيوانات وماء ... الخ ...

كانت الحضارة الفرعونية قفزة فى حياة المجموعات التى سكنت النيل وذلك بسبب بسيط وهو تسخير كل إمكانيات الناس فى أيدى فئة قليلة من الملوك والكهنة الأمر الذى أمكن استغلال كل تلك الإمكانيات البشرية لخلق الحضارة التى قامت على القسوة والسخرة على حياة الأفراد العاديين .

عرف الفراعنة فن النحت والنقش وأبدعوا فيه وانتقل هـــذا الفن إلى السودان بعد أن وصل إلى أعلى مستوياته فى عصر الأسرة الثانية عشر الطيبية قبل ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد والتى وحدت الحياة فى مصر من جديد وعادت طيبة من جديد عاصمة الدولة المصرية التى مـــدت نفوذها إلى السودان حيث اكتشف الذهب فى السودان الأمر الذى حتم ضم « إثيوبيا » أى « بلاد النوبة » إلى المملكة المصرية الفرعونية وانتشار الفن الفرعونى . وقد كان الذهب من العوامل المساعدة لنقل الحضارة الفرعونية للجنوب والاحتفاظ بالأراضى التى تصل إليها وذلك من أجل المزيد من الذهب للمعابد وتماثيل الآلهة والملوك والزينة والأدوات المنزلية . .

وساعد وجود الذهب بأراضى السودان لانتقال العمال المهرة من مصر والفنيين لتنقية الذهب وصبه فى سبائك ونقله إلى مصر وانتشر فى السودان صناعة التماثيل الصغيرة للآلهة والحيوانات المقدسة كما أن استخراج العديد من المعادن نشر صناعة الأوانى وآلات النقش كان لأرض المعدن الغنية بالذهب أثر كبير لاهتمام المصريين بالأراضى الجنوبية .

الرقص :

يصعب تحديد نوع الرقص القديم الذى عاش على أرض السودان ولكن بعض

اللوحات الاثرية وما وجد من أثار فى مصر يستطيع ببساطة أن يعطينا صورة عن نوع الرقصات التى كانت سائدة على النيل إذا أعتبرنا أن ظروف المعيشة على النيل تكاد تكون متاشبهة رغم أختلاف الظروف الاجتماعية تحت النظام الفرعونى والملكية فى أرض النوبة والنظم الأخرى المنتشرة جنوبا التى لاشك لها تأثير أيضا على الرقص ، وقد خلفت لنا الحضارة الفرعونية العديد من الرسومات مما مهد لتقديم دراسات طيبة عن حال الرقص عند المصريين ونحن سنحاول أن نقترب من تلك الدراسات واضعين فى اعتبارنا الاختلاف الذى سيطرأ نتيجة الظروف المعيشية والمناخية والاجتماعية . .

وقد أظهرت اللوحات التى وجدت بعض الرقصات لاهالى الجنوب فى النوبة والزنوج بآلاتهم الموسيقية وحركاتهم . . .

وقد ضم كتاب الرقص المصرى القديم لايرينا لكسوفا دراسة جيدة للرقص المصرى كما تضمنت السبعة والسبعين لوحة التى جمعها الكتاب أنواع الرقص وأوضح اشتراك بعض أهل جنوب مصر فى بعض الرقصات وبعض آلاتهم الموسيقية انتشار معظم تلك الرقصات فى أرض السودان بعد أن انتقل إليه بعض الحكام المصريين فى عهد الاسرة الثانية عشر .وإذا أردنا أن ندرس الحركات التى تسيطر على الرقص على النيل فى مصر والسودان والتى مايزال جزء من تلك الرقصات والحركات باقيا حتى الآن لبقاء نفس الظروف المعيشة بالنسبة لعامة الناس وهى حركات تشبه حركة الرجل الذى يحفر والذى ينظف الذره والقمح بالريح ثم حركات الرجال على المراكب ثم حركة غرس الزرع والبذرة . .

بعض الرقصات هادىء وبعضها مثير كرقصات النساء وقد كان يحملي الرقصات

يشتمل على الرقصات الاستعراضية مثل رقصات القوة ، ثم رقصات الافراح ثم رقصات الطبقات الخاصة والموائد والقصور ورقصات الزرع والحصاد والرقصات البهلوانية وكثير من هذه الرقصات كانت تفرضه الظروف الاجتماعيه لتسلية الاغنياء والملوك والطبقة الخاصة التى كانت تحتفظ بالعبيد والراقصين من الجنسين ... ثم كانت الرقصات الدينية داخل المعابد وخارج المعابد .

وقد ظهرت فى بعض الصور الرقصات الزنجية ومعها الطبلة الافريقية فقد كانت إمكانيات العصر الفرعونى وبلاطه تستطيع أن تستورد كل ما تريده من أدوات اللهو والمرح وبذلك أعطت للفن المصرى إمكانيات لأحد لها باستجلاب كافة الفنون والرغبات التى يرغبها أهل البلاد إلى مصر لتعيش فيه وبذلك غذت الفن المصرى بفنون جديدة عليه استفاد منها شعب وادى النيل ..

أما فى المناطق الأخرى البعيدة عن النيل فقد كان فنها لاشك يختلف عن فن سكان النيل نسبة لاختلاف الظروف المعيشية والبيئية إذ عادة ماتأتى رقصات الشعوب من حركات العمل أو مشابهة لها فى كثير من الأحيان .

وإذا أردنا أن نجد منطقة غنية بالسكان فسوف نجد منطقة البحر الأحمر حيث سكنت قبائل مختلفة وحيث لم نجد أثارا تنبىء عن حضارة هذه المنطقة وتكشف لنا إمكانياتها السابقة إلا إننا نجد فى بعض رقصاتهم اليوم مايساير ظروف معيشتهم فى التنقل والجرى وصيد الحيوانات البرية كالأرانب والطيور وحركات رقصهم فى مجملها تعبير عن القفص والوثب والحركة الحربية السريعة بما فيها المبارزة التى هى أحدى رقصاتهم .

الموسيقى:

عرف سكان وادى النيل مجموعة كبيرة من الآلات الموسيقية مازال كثير منها باقيا حتى الآن وقد كان للحضارة الفرعونية وما صاحبها من عبادات وثنية وطقوس دينية تحتاج الموسيقى مع وجود طبقة خاصه مرتاحة تبحث عن اللهو والمرح شجعت الفنون والموسيقى من أجل متعتها الخاصة وأتاحت خلق فن عام وفن خاص لهذه الطبقة فى مناسباتها المختلفة .

وقد انتشرت الآلات الموسيقية بأنتشار الفن ، فن البلاط وفن المعابد وفن الطبقة الخاصة وفن عامة الشعب وقـــد استعملت آلات موسيقية مثل الجنك والكنارة والطنبور والجيتار ، المزمار ، الدف والصفقة على الايـــدى والطبول . . .

وقد أهتم بالاحتفال بالأعياد ، كعيد الحصاد وفيضان النيل والاحتفالات الدينية وقد انتشرت هذه العبادات فى السودان بعد تمركز الحضارة الفرعونية فيه بعد القرن السابع والثامن قبل الميلاد وبعد أن دب الخلل فى الدولة الفرعونية وأمتدت إلية أثار حضارة جديدة من الشرق ومن شمال البحر الأبيض المتوسط وبقيام دولة نبته السودانية لتحكم السودان ومصر وتطرد عنه خطر الاشوريين والليبيين .

وقد كان لثراء مصر الفرعونية أثر كبير فى استجلاب الآلات الموسيقية من أماكن بعيدة وأحضار المواد التى لم تتوفر محليا وهذه الآلات التى كانت تستجلب ولا توجد موادها محليا كانت للخاصة والبلاط والمعابد . أما عامة الشعب فقد كانت المزامير وهى من البوص والطار المصنوع من جلود الماعز والربابة آلات يمكن صنعها من المواد المحلية بواسطة عامة الشعب . .

وقد كانت الالات الرئيسية للموسيقة قد انتشرت فى السودان كالربابة والطار والطبلة الافريقية وهى الالات التى يمكن صنعها من المواد المحلية من نباتات وحيوانات . وقد كان للطبقة الحاكمة فى نبتة ومروى نفس الفرق الموسيقى التى كانت لفراعنة مصر نسبة للامكانيات المادية ولمكانة المعابد والطقوس الدينية بجانب البلاط الملكى وأهمية هذه الطقوس الدينية التى كانت الموسيقى عنصرا هاما فيه .

فقد عرفت الطبقة الحاكمة والخاصة أنواعا شتى من الفنون والموسيقى والرقص لم تكن متاحة لبقية سكان النيل كما كانت للمعابد موسيقاها الخاصة وللاعياد التى حافظ حكام السودان عليها فى ظل الحضارة الفرعونية على التمسك بها مثل تقديس النيل وأعياد الحصاد والفيضان والافراح وهى عادات ماذالت أثارها باقية حتى اليوم .

العمارة :

كثيرون يسألون عن حضارة السودان وأثارها بعد منطقة البركل شمال السودان فلا يجدون إلا بعض الاثار البسيطة التى لاتفيد كثيرا ولاتعطى صورة حقيقية عن نهضة تلك الحضارة. وقد فات على البعض عن إمكانيات الطبيعة وموارد ها لحفظ أثار تلك الحضارة .

فقد اختصت المنطقة الشمالية من السودان بنوع خاص من الاحجار صالح لبناء المعابد والقصور والاهرامات لاتؤثر فيه الطبيعة من رياح وأمطار ولا تتأكل سريعا بفعل العوامل الطبيعية الامر الذى ابقى لشمال السودان الكثير من أثار تلك الحضارة رغم عبث الناس وتحطيمها بواسطة الأفراد والجماعات وإستغلال تلك الاثار لاغراض كثيرة عبر التاريخ أما المنطقة التى تقع جنوب مملكة سوبا

المسيحية قرب ملتقى النيلين حيث قامت حضارة وعمارة عظيمة لم تترك لنا الايام منها الا بعض الاثار البسيطة فيرجع ذلك إلى المواد التى لا تستطيع أن تحافظ على نفسها الاف السنين لان معظم العمارة التى شيدت فى مروى وسوبه المسيحية كانت مصنوعة من اللبن والاحجار التى لاتحتمل تغييرات الطبيعة من رياح وامطار وجفاف لتبقى آلالف السنين .

ونحن إذا حاولنا أن نبحث عن إمكانيات هاتين المنطقتين مروى القديمة وسوبه المسيحية لنجد الطبيعة هنا أغنى من شمال السودان حيث هنا الأراضى الزراعية أكبر مساحة وأخصب والمراعى لاحدود لها الأمر الذى اتاح لهاتين المنطقتين من الخيرات الطبيعية من نباتية وحيوانية مايجعلها غنية تنفصل عن شمال الوادى وتجلب منه ما تريد . . إلا أن مناخ هذه المنطقة كان له أثر مباشر فى اندثار آثار تلك الحضارة التى قامت فى منطقة الخرطوم وسوبة .

* * *

الالهة عند الفرس

كان الفرس يتبعون عادات وتقاليد أعرف منها مايلى : — لم يكن لديهم أية صورة أو تماثيل للالهة ولا معابد ولا مذابح — إذ كانوا يعتبرون استعمالها علامة من علامات الحماقة . وأظن هذا راجع إلى عدم أعتقادهم بأن طبيعة الآلهة من طبيعة البشر ، كما كان يتصور الاغريق ، ومع ذلك كان من عادتهم يصعدوا إلى قمم الجبال ويقدموا الذبائح لجوبتر وهو الاسم الذى يطلقونه على المجموعة الكونية كلها كما كان من عادتهم أيضا أن يقدموا الذبائح للشمس وللقمر والارض وللنار والماء وللريح . هذه فقط هى الالهة التى توارثوا عبادتها من اسلافهم منذ أقدم العصور الغابرة .

أعظم يوم يحتفلون به هو يوم عيد ميلادهم من بين أيام السنة.

ذكرنا هذا لاتصال حضارة الفرس بالحضارة الفرعونية بعد أن وهنت الأخيرة وخرج ملوك السودان فى القرن الثامن الميلادى من منطقة البركل لصد أثر الفرس عن مصر وعدم احترامهم لديانة الفراعنه التى هى ديانة ملوك نبته إلا إن بعد عاصمة دولة نبته عن طيبة وحدود الفرس حال دون استمرار انتصار دولة نبته العظيمة ووقف خطرها على عبادات وادى النيـــل حيث حاولوا الاستهجان بها وعدم تقديرها واحترامها بعد مادخلوا مصر .

١

هيرودوت

تأليف أ . ج أيفانز

جولة فى متحف الآثار المصرية

« المقابر الملكية بجهتى بلانه وقسطل ببلاد النوبة »

(العصر البيزنطى)

فى عام ١٩٣١ قرر أعضاء بعثة مقابر بلاد النوبة تحت إشراف مستر أمرى أن يفحصوا بالتفصيل الكثبان الكبيرة الممتدة على جانبي النيل بالقرب من قريتى بلانه وقسطل على بضعة أميال إلى الجنوب من أبى سمبل وشمال حدود السودان مباشرة . وقد تبين أنها كانت تغطى مقابر العصر البيزنطى وتشبه ما سبق العثور عليه فى حماى وفركه ووادى وجزيرة ساى وكلها فى السودان إلى الجنوب من وادى حلفا . وهذه المقابر محفورة فى الرواسب الغرينية وتتكون من طريق طويل منحدر طويل يؤدى إلى حفرة كبيرة بنيت فيها حجرات من اللبن الاجر .

وعندما كان يوضع الملك أو الأمير المتوفى الذى من أجله أقيمت المقبرة فى حجرة الدفن وعليه ملابس من الجلد كانت تودع أمتعته الشخصية والأطعمة والنبيذ فى غرفة مجاورة ثم يغلق الباب الخشبى المكسو بلوحات كبيرة من البرونز مسمرة عليه ثم يختم ويبنى عليه جدار من اللبن .

وكان يؤتى بخيول صاحب المقبرة إلى هذا الطريق المنحدر وقد طهمت بسروج رائعة واقهم من الفضة (توجد تماثيل لهذه الخيول رأيتها محفوظة ليست للعرض الآن) وعدد مزركشة بألوان تختلف بين الأحمر والأزرق ثم تقتل فى مكانها بضربات الفئوس (وفى الخزانات فأسان منها) وتدفن الرافق سيدها

فى الآخره وعلى مقربة من هذا المكان دفن العبيد والخدم بعد خنقهم بحبال معقودة وهؤلاء أيضاً كان يراد بهم خدمة سيدهم بعد الموت وفضلا عن الخيول فقد عثر على طائفة أخرى كبيرة من الحيوانات كالجمال والأبقار والحمير كما عثر كذلك على سلحفاة وقد ضحيت جميعها لنفس الغرض .

أما الكثبان التى أهيلت وسط المقبرة فتتكون من كميات هائلة من أتربة نقلت من الجهات المجاورة ويختلف حجمها تبعاً لأهمية المتوفى وقد بلغ ارتفاع بعضها إثنى عشر متراً ... وفى هذه الكثبان عثر على عدد من الآثار الهامة المعروضة بالمتحف ومن بينها الصندوق المزين بألواح من العاج ورقعة اللعب والدروع والحراب وبعض قطع فريدة من الحلى كالأقراط المصنوعة من الفضة وحجر الجشت والاساور الفضية المرصعة بأحجار نصف كريمة .

الملاحظــــة

١ — يوجد أوان ومباخر من الفضة من ضمن الآثار المسيحية التى يرجح أنها نهبت من الكنائس)

٢ — إناء من الفضة عليه رسوم يمام (أو نعام وأسماك ويبدو أنها رموز مسيحية نهبت من أحد الكنائس .

٣ — صحن من الفضة صور الإلهة (أبوللو هومس تحيط به رموز خاصة بمعبودات أخرى منها اسكلبيوس وهرقل ومارس وديونيسوس وفولكان . تبين أثر الفن الأغريقى والرومانى .

صورة أبو للو ممسكا بيـــده عصا مزركشه ويمد قطعة من التفاح أبو النضح

إلى الثعبان أمامه وعلى شماله الفرس المجنح ذو المنقار والأرجل الحيوانية والمعز. وفأس ومقبض ووجه أسد فى شكل تجريدى .

٣ — مباخر وموائد صـــغيرة وملقط شعر وقطعة على هيئة صقر وجوه الحيوانات على شـكل غريب مرعب الأوانى غاية فى الدقة والترف . . وخنجر على شكل ثمرة الاناناس .

٨ — (١) قطع من البرونز والعاج والفضة وألواح من العاج فى صناديق . .

ملاحظة :

العاج يظهر فيه أثر الفن الافريقى .

(٢) إصلال من الفضة من تاج ملـكى وزرار وأقراص من الفضة كانت تزين ملابس من الجلد .

توجد قطع حديدية على شكل فأس وأسوده .

وليس هنالك ما يدل على حقيقة هؤلاء القوم إذ لم يعثر فى مقابرهم إلا على النادر القليل من الـكتابات ويرى على كثير من جرار النبيذ الـكبيرة والأوان المعدنية بضع كلمات باليونانية وربما كانت هذه الأوانى مستورده من الإسكندرية وقد عثر على رمح من الحديد وإناء عليها نقوش مقتضبة جداً بالخط المروى ذى الخطوط المستقيمة كما أن الـكثير من الأوانى الفخارية والأشكال من الأشكال التى تتميز بها المملـكة المروية وإذا أضفنا ذلك إلى أن هذه الطرز لم يعثر على مثيل لها شمال قسطل لاستنتجنا بأن هؤلاء القوم كانوا على صلات وثيقة بمروى .

ويظهر أن أهالى بلانة وقسطل استمروا دهرا طويلا بعد دخول المسيحية إلى

مصر وهم يعبدون المعبودات المصرية كحوريس وبس وايزيس كما ان بعض الالهة المختلطة وجدت مرسومة بكثرة على احناء السروج ولوحات الفضة .

وقد أمدتنا هذه المقابر بكمية وافرة من الاثار مختلفة الاثار مختلفة الانواع وقد عرض منها مجموعة كبيرة كاملة التمثيل ولعل أجدرها بالملاحظة ذلك الصندوق المزخرف بلوحات عاجية عليها صور لا تكاد تبارى فى دقة وتهذيب — وتلك التيجان الفضيه المرصعة باحجار حسنة الصنع ثم الطوق الفضى ذا النقوش البارزة واللجم الفضية الخاصة بالاجنة ووقايات أيدى الرماة ثم الاثار المخروطية الشكل وهى أن كانت ذات صلة بالرماية إلا أن طريقة استعمالها مازالت غير معروفة وماهو جدير بالذكر أن بعض القطع البرونزية عليها شارات مسيحية وهى أما أن تكون قد سلبت أو أشتريت من العشائر المسيحية أو الكنائس ويلاحظ أن من بين المنسوجات عينات صنعت من الحرير .

ويرى على كثير من الجثث أثار واضحة لاصابات حصلت فى ميدان القتال ويشبه أشراف بلانه وقسطل الزنوج إلى حد كبير وإن لم يكونوا من الزنوج فهلا — أما خدمهم وعبيدهم فكانوا من أجناس نوبية مختلطة ، وخلاصة الاحتمالات أن هذه الجهات كانت لجنس من النهابين الميالين للقتال يعرفون بالبليميين الذين كانوا حتى القرن الثالث بعد الميلاد لا يزالون تحت سيطرة مروى .

وقد هاجم البليميون الحدود الرومانية أول مرة عند أسوان عام ٢٥٠ م ثم مرة ثانية ٢٦١ م ثم عادوا عام ٢٦٨ م فاجتاحوا مصر حتى وصلوا إلى كيتوس فقط وبتلمابيس .

وقــــد دعا الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤—٣٠٥) بعض قبائل النوبة (النوباديون) الذين كانوا يقطنون الصحراء الغربية ليستوطنوا فيها بين بــــلاد

البليميين وأملاك روما وبالرغم من هذه الحيطة فان البليميين احتاجوا الواحة الخارجة حتى عام ٤٢٩م ويظهر ان طرد البليميين النهائى حدث فى أواسط القرن السادس عندما اجتاح سلكو! ملك النوباديين الذى كانوا قد اعتنقوا المسيحية إذ ذاك بلاد البليميين ومن بعد ذالك لم يذكر التاريخ عنهم شيئا .

وقد قام مستر امرى بالنشر عن هذه المقابر ووصف أقوام البليميين فى مؤلفة To. Entery The Royal Tomps of Bauana and Bustol

(وهو الكتاب المطبوع بالمطبعة الأميرية بدلان (بعثة حفائر بلاد النوبة ٢٩ — ٣٤) .

٢٩) أكواب وجرار وقوارير من الفخار بعضها ملون وبعضها على بزخارف مسارح وأباريق وأوان واوعية للطرح وحوامل — ويسهل ملاحظة ماقى الكثير منها من تأثير الفن المصرى القديم على الفن اليونانى والرومانى .

تمثال من البرونز يشبه كوبين . أغريقى الفن — تمثال من البرونز يمثل إليه يحمل شمعدان.

١٥ — جلب لحفظ السهام وبقايا حقيبة للحلى وأدوات للزينة ومعها قفلها وقطع ملابس ونعال وأجزاء سن لجام وكلها من الجلد — ثم قطع من سلال من القش وخرز منضود فى خيوطة الاصلية ونموذج من الحجر الرملى المائدة قربان من الطراز المروى .

١٦ — نماذج من الاقمشة المختلفة والحبال التى كانت تستعمل فى اطقم الخيل . ملاحظة النسيج ممتاز ودقيق . . . وسميك . . وبعض أنواع الشمل . . من صوف الماعز والضأن وخلافه كانت تستعمل لكساء الحيوان . . .

والانسان . الاقشة تشبه لحد كبير نوع الاقشة هـــذة الايام رغم جوده صنع القديم .

١ ـــ الفخار كبير . . تستعمل للماء وحفظ الاشياء . . فى شكل برام وحلل وزجاجة . . وبخسه . . يوجد من نفس النوع مصنوع من النحاس والبرونز من والفضة .

١ ـــ أدوات الزينة موجودة . . وقد عثر معها على أصباغ الوجه .

ودلاية (مقبض) من الحديد من الطراز الرومانى أمشاط من العاج الملون على زهرة . . دقيقة الإسنان . . ومكحلة من الخشب على هيئة الالهة . (رع) وجه قريب من وجه البومة .

لوحة للعب مطعمة بالعاج وزواياها ملبسة بالفضة وجدت فى الركام فى الكوم الذى يعلو المقبرة وكان باسفله حقيبة من الجلد بها قطع اللعب والزهر .

اعةهذه الأدوات تكشف لنا إمكانيات
، نهر عطيره لاستخراج المعادن وتوظيفها

شواهد شكلها

موائد وقرابين

من العهد المروى

هــــذه الموائد كانت توضع عند مدخل المقابر وكلها تقريبا مستطيلة الشكل وبأحد جوانبها بروز به قناة تنصب منها السوائل أما فى الوسط فيغلب أن تكون عليها رسوم أوان خبز منقوشة نقشا بارزا وكذا بعض مناظر من الاساطير المصرية أما الكتابة للتى حولها فتبدأ دائما بدعاء موجه إلى أحد الالهة إزيس أو يا أوزريس ثم بعد ذلك أسم المتوفى وأوصافه وتكتب بعبارة للترحم عليه . ويذكر فى أوصافه أنه كان طيب كريم الأصل . . . الخ . . ويلحق غالبا باسماء والدية .

ملحوظـــة :

وربما بمزيد من الاكتشافات التى تجرى فى منطقة مروى القديمة جنوب نهر عطبره نستطيع أن نعثر على المزيد من الوثائق والآثار التى يمكن أن تعطينا صورة كاملة عن تلك الحضارة التى قامت جنوب نهر عطبره وتكشف لنا عن حدودها جنوباً ومدى سيطرتها وعلاقتها بالقبائل التى سكنت أرض الجزيرة وقبائل الشلك خاصة والمجموعات الأخرى التى سكنت السهول

حضارة السودان الفرعونية

رغم قلة المعلومات لدينا عن حالة الحضارة قبل دخول السودان تحت تأثير الحضارة الفرعونية فى عصر الأسرة السادسة الاسوانية (٢٦٠٢ — ٣٣٩٢) ق.م. بانتقال السلطة فى الوجه البحرى إلى الوجه القبلى إلا أننا بتطور حالة المجتمع على أرض النيل وما وصل الينا من رقى يمكن لنا أن نقيس حالة المجتمع جنوب مصر من جراء تشابه الظروف الطبيعية والاجتماعية .

فالمجتمع هنا زراعى كما فى الشمال . . مجتمع مستقر تطور من المجموعات الصغيرة إلى الممالك الكبيرة . . .

فقد عرف سكان السودان الحكم النظامى شبيه بالنظام الملكى فى مصر إلا أن . . تدخل كهنة الدين الملكى فى مصر جعل إمكانيات وطاقة شعب مصر فى يد الكهنة والملك حتى تطور ذلك النظام باستغلاله لطاقة شعب مصر إلى أقصى إمكانيات الاستغلال ، حتى تطور ذلك المجتمع من الوجه الحضارى فى استغلال إمكانيات شعب مصر لبناء السفن والعمارة وخضوع هذا الشعب لسلطة ورهبة الكهنة الأمر الذى لم يعرف فى السودان حيث لم يصل الدين إلى ما وصل إليه كهنة آمون .

باستقلال الناس فى السودان عن سلطة الكهنة وبذلك وتحرر إمكانياتهم من سيطرة الملك ، جعل المجتمع السودانى على النيل جنوب الحضارة المصرية مجتمع عالك ، أقل ثروة ، وأقل سيطرة على أفكار الناس حيث كان يعتمد النظام المصرى على السيطرة الروحية ، وتقديس الكهنة ، ثم الملك بما خلق طبقة معينة ، منفردة بالحكم لم يعد من قوتها إلا بتوسع مصر ، وتوسع أعوانها بخلق جيش عظيم هو جزء من السلطة حتى وصل الشعب فى بعض الظروف إلى حالة التجنيد

واجبارى ، وبذلك استطاع أن ينتقل من حالة العبوديه والطاعة والاستغلال إلى مستوى الجندى المحترم المنطوى تحت نفوذ القصر والمعبد .

ولبعد المجتمع السودانى من هذا التركيب الاجتماعى ، وتحالف القصر والمعبد عاش النظام الأول للملكية فى السودان باحترام جميع الافرادفى التجارة والملكية والعبادة حتى ظهرت الحضارة الفرعونية جنوب النوبة فى عهد الاسرة السادسة السودانية ، ومحاولتها اخضاع أراضى النوبة وضمها اليها ، أو الاستيلاء على خيراتها وعمالها ، لبناء الحضارة الفرعونية الجديدة ، التى كانت فى حاجه إلى كل يد عاملة ، وإلى كل امكانيات مادية لتسند هذا العمل الذى خلده النيل .

فقد غار حكام الوجه القبلى على أرض النوبة ، وزنوج السودان ويبدو أنهم توغلوا بعيدا عن أرض النوبة وكرمه لحاجتهم للعمال وخيرات النيل بعد انشقاق الدولة إلى قسمين ومحاولة مملكة الوجة القبلى (أسوان) أن بسط نفوذها على كل الممالك التى حواليها وإخضاعها لسيطرتها وليس هنالك مجال لبسط نفوذهم غير جنوب النيل ولذلك كان طبيعيا أن يمدون نفوذهم إلى الجنوب ويستولوا ويخضعوا الممالك السودانية التى كانت قائمة على أرض النيل .

ولنا أن نتساءل هل كان هذا الاخضاع إدارى فقط،أم أنه امتد إلى اخضاع حضارى بأدخال العادات والعبادات الفرعونية على الاراضى الجديدة . . . .
وهذا كان يتوقف على نوع السلطة الادارية التى أقامها حكام أسوان على جنوب النيل . .
ونحن لانعرف على وجه التحديد هل أنابوا عنهم فى هذه المناطق الحكام المحليين أم فرضوا على تلك الممالك حكاماً مصريين ، عن طريقهم يمكن أن تدخل مظاهر الحضارة الفرعونية مما لاشك فيه فى الحالتين أن سكان السودان

عرفوا بعض العادات والتقاليد الفرعونية من جراء حملات الجيوش المصرية وبقاءها مدة طويلة لاخضاع جزء كبير من أرض السودان كانت فى أثنائه تؤدى الشعائر والعادات المصرية كما إن إستجلاب عدد كبير من السكان المحليين إلى مصر ليعملوا فى الجنديه أو كعبيد والاستفادة منهم فى أوجة النشاط العمرانى المختلف قد شبع هؤلاء بالتقاليد والعادات والديانات الفرعونية التى بدورهم كانوا سفراء فى نقلها إلى الجنوب بما فى ذلك العلوم والفنون والعبادات والتقاليد .

أننا يجب أن ننظر إلى هذه الفترة من التاريخ بفترة مليئة بالحركة والنشاط والتوسع حتى يمكن لنا أن نتصور حالة المجتمع القديم.

وقد خضعت أرض النوبة مرة أخرى فى عصر الاسرة الثانية عشر الطيبية (٢٩٦٣ - ٢٧٥٠) ق م ويبدو فى هذا العصر ظهرت دولة اثيوبيا عند الشلال الرابع ويبدو أن مملكة أثيوبيا كانت قائمة منذ قديم الزمن ، الا أن سيطرة الأسرة السادسة لم تصل إليها .. ويبدو أن هذه المملكة الاثيوبية كانت تبسط نفوذها على الأراضى جنوب أبى حمد وكانت غنية وكانت ذات صلات تجارية فى حاصلات السودان مع مصر مما شبعها بأثار الحضارة الفرعونية ، ومصنوعاتها حتى جاء زمن كانت فيه هذه المملكة وريثة للحضارة الفرعونية لما لها من إستعداد وتقبل ومالها من امكانيات ونفوذ على أراضى شاسعة .

وقد ظلت أرض النوبة متمردة على مر الزمن على النفوذ الفرعونى ويعزى ذلك لالرفض هذه الشعوب العادات والحضارة الفرعونية ولكن لما كان يفرض عليها من ضرائب والتزامات من جانب تلك الدولة المتوسعة القوية وهذا يكشف لنا انفراد السلطات المحلية بالحكم وعدم توظيف حكام مصريين على هذه الشعوب مما جعل تمردها سهلا . . . ولكن امتداد الحدود المصرية حتى حلفـــا فى

عهد الاسرة السابعة عشر الطيبية (١٩٨٣ - ١٧٠٣) ق : م . . . . .

فقد وصلت الجيوش المصرية حتى المملكة الاثيوبية عند الشلال الرابع .. وبما يجعلنا نعتقد بقيام الدولة الأثيوبية فى زمن بعيد هو محاولة ممالك الوجه البحرى الفرعونية أن يصلوا إليها ويستولوا على خيراتها ...فزواج (اموزيس) ١٧٠٣ ق م من إبنه ملك إثيوبيا يدلنا على إن هذه المملكة كانت قائمة وكان لها شأن عظيم كما إن هذا الزواج كان يعبر عن تشابه التقاليد الاثيوبيه والمصرية حتى سمح بزواج هذا الملك من تلك الاسرةالمالكة عندالشلال الرابع وهذا يكشف لنا أيضا انتقال الديانات والعلوم والفنون الفرعونية لهذه المملكة فى عصرقديم .. وربما تكن هناك بعض الدماء المصريه فى هذه الأسرة وربما لاتكن ولكن هذه الدولة الأثيوبية كانت صديقة حميمة لدولة طيبة وعبادة آمون والحفاظ على عبادة الآلهةالمصرية حتى كانعهد الاسرة الحاديةوالعشرين(١١١٠-٩٨٠قم) وتوحدت دولة طيبة وأثيوبيا ومدت نفوذها حتى سنار والحبشة ناقلة مظاهر الحضارة الفرعونية إلى تلك المناطق .. وهذا يفسرلنا قوة شأن هذه المملكةالتى لم تصل إلينا وثائق تكشف عن إخبار ملوكها وحضارتها إلا إنها كانت ذات علاقات طيبة بملوك طيبة :

من هذا الرد تكشف لنا الحقائق التاريخية أن دولة أثيوبيا كانت قائمة قبل ثلاثة ألف سنة قبل الميلاد ولكن أخبار هذه المملكة لم تصل الينا ونكاد لانعرف شيء عن حياتها الداخلية وحضارتها الا فى القرن الثامن قبل الميلاد بظهور ملوك عظام استقلوا ضعف الحالة فى مصر فبسطوا نفوذهم شمالا إلى فلسطين وبلاد فارس :

(٥٠٠٤ - ٣٠٦٤) ق : م (الاسرة الأولى إلى العاشرة):

(١) الاسرة الأولى حكمت ٢٥٣ عاماً (الاسره الطيفية ٩ ملوك)

أول حكومة ملكية حكمت مصر بعد الكهنة .

أول ملوكها دينا : قال نفوذ الكهنة .. أسس القوانين والشرائع ظهر فى عهده علم الجراحة والطب وواسطة الملك (تينا بن مينا) أشهر ملوك هذه الحقبة

الأسرة الثانية الثانية (٤٧٥١ - ٤٣٤٩) ق م

أول ملك : بعنا .

خلفه كاكاو .. وضع عبادة العجل « أبيس » .

بينوبيرس : أول من سن القوانين وأباح للنساء تولى الملك

زعم أن الملك نائب الآلهة وابن الشمس . ظهرت عبادة المصريين لملوكهم درجة تصل إلى الإلوهية .

الأسرة الثالثة المنفية ٤٢٤١ - ٤١٣٥ق م (المنفية) نسبة إلى مدينة منف

أول ملوكها نخر بفورا : حاربهم الليبيون

خلفه توزرترس ، كان عالما بالطب وكتب فيه وذهب بفن قطع الاحجار ونحتها حد الكمال

آخر ملوك هذه الاسرة سنفرو « أول فرعونى » وجدت له آثار .. ظهر فى عهد هذه الاسرة تمثال أبو الهول فى الجيزه وهو تمثال حيوان ضخم له جسم أسد ورأس انسان اشارة إلى القوة والعقل :

الاسرة الرابعة المنفية (٤١٣٥ - ٣٨٥٠) ق م

تحسنت أحوال الادارة والتنظيم فى عهد هذه الاسرة .. أوقفوا هجماتهم على عرب الصحراء الشرقية والليبيه واهتموا بالاصلاح الداخلى .. توسعت المملكة شرقاً واستولت الى خيرات أراضى سينا

أعظم ملوك هذه الاسرة خوفو أو خيوبيس الذى بنى الهرم الاكبر فى الجيزة وسماه خوت .. ويقال أنه سخر المصريين فى بناءه ثلاثون عاما ـ كان يستخدم منهم كل ثلاثة أشهر حوالى ألف شخص

وتولى أيضاً فى عهد هذه الاسرة « خفرع » أو « نفرن » ...

كان عهد هذه الاسرة قاسيا على الرعية فى تسخيرهم لتشييد هذه المبانى الضخمة مما قاد لموت الكثيرين وغضب الشعب . وبلغ الغضب الشعبى ضد هذه المملكة أن الجماهير بعد أن ضاقت بالتسخير أن أخرجت جثتى هذين الملكين وحطموا تابوتيهما .

وجاء بعد ذلك منقرع بانى الهرم الأصغر المجاور الهرمى «خوفو» و«خفرع» وقد سماه « حور » أى الأعلى وكان عادلا رحيما بالرعية . فأباح للناس التفرغ لشئونهم الخاصة بعد عهد السخرة التى عمت فى عهدى « خوفو » و « خفرع » ... وارتقى الفن والنحت والعمارة فى عهد هذه الاسرة شأواً بعيدا .

الأسرة الخامسة المنفية (٣٨٥٠ - ٣٦٠٢) ق.م

أول ملوكها اسكاف .. كان محباً للعلم وعطوفاً على الرعية . سن لها القوانين وبعده « نفرار كارع » ومن أشهر آثار هذه الحقبة الاثار التى وجدت فى مقبرة سقارة وقد بنى هذه المقبرة « ن » صهر الملك عنوسر سابع ملوك هذه الاسرة وقد اهتمت هذه الاسرة بالحياه الداخليه وقل نشاطها الخارجى مما قلل دخلها وانحط فى نهايتها الفن لانشغال الناس بأعمالهم وعودتهم لحياتهم الطبيعية بعد حياة التجنيد والتسخير .

الأسرة السادسة الاسوانيه (٣٦٠٢ — ٣٣٩٩) : ق م

ظهور النوبة فى التاريخ القديم :

ظهر إسم النوبة لأول مرة فى عهد هذه الأسرات وبذلك يمكن أن نؤرخ دخول أرض النوبة والسودان بخضوعها للآثار الفرعونية والعبادات والفنون من هذا التاريخ . . ولاشك أن هذا التدرج الذى قاد الأسر الفرعونية من الشمال إلى الجنوب جاء بعد صراع مرير وأخضاع لتلك المنطقة الجنوبية فقد إشتركت شعوب جنوب منطقة أسوان (النوبة) فى عمارة الأسرة الرابعة والخامسة واستخدم سكان تلك المناطق كعمال لبناء الاهرامات والمعابد لحاجة العمران للأيدى العاملة . ويبدو أن شعوب أرض سيناء وليبيا قد تمرسوا على القتال وأصبحوا فى حالة طيبة للدفاع عن أراضيهم . . . ولاشك أن تأثير الحضارة على شعوب شمال النيل والدلتا والتجارة بين شعوبهم قد أثمرت فى تنظيم الادارة فى جنوب النيل . ورغم أننا لم نتحصل على وثائق تثبت حالة الادارة فى أرض النوبة والسودان قبل هذا التاريخ إلا أن التدرج الطبيعى للحياة الاجتماعية المستقرة على النيل قد خلق نظاماً اداريا يكفل الامن والنظام بين شعوب النيل جنوب أسوان . . فقد انتقلت تلك الشعوب من حياة الافراد إلى المجموعات فى الممالك الصغيرة التى نشأت على النيل وسارت فى نظامها الادارى الملكى بخلاف ما كان فى شمال الوادى حيث لم تخضع هذه الشعوب للآلهة والكهنة مثل ما خضعت شعوب الدلتا ووسط مصر .

فى عهد الأسرة الاسوانيه انقسمت مصر إلى قسمين الدلتا يحكمها ملك من منف والصعيد ويحكمه أول ملك من الأسرة الاسوانية . ويبدو إن مملكة الصعيد كانت أقوى من مملكة الدلتا للفتوحات الجديدة التى خطتها فى أراضى النوبه والسودان والخيرات الكثيرة التى جاءت إليهما حتى تمكنت الأسرة

الأسوانية فى عهد « بيبى هريترع » ووحـد المملكتين الدلتا وأسوان وجعل العاصمة أسوان وبذلك إنتقلت تلك الحضارة إلى الجنوب وانفتح بذلك السودان لمؤثرات الحضارة الفرعونية فى عهد هذه الأسرة واكتشفت المعادن فى السودان فى هذه الفترة وجاء بعد « مريترع » الملك فيوبس » الذى حدثت فى عهده ثورات كثيرة منها تمرد النوبة والزنوج . . ويبدو أن هذا العهد توسع الملك فى الشمال بعيدا داخل أراضى السودان لذكر إسم « الزنوج » بجانب النوبه فى هذه الفترة . ثم خلفه « مريترع » الثانى ثم خلفته أخته « نيتوفريس » ذات الحسن والجمال كما قال « مانيثون » المؤرخ الاغريقى .

الأسرة السابعة إلى العاشرة (٣٣٩٩ – ٣٠٠٦٣) ق . م

حكمت هذة الفترة أسرتان من منف والأسرتان الاهناسيتان بعد إنقراض — الأسرة السادسة الأسوانيـة ويبدو أن تمرد الجنوب وإسترداده لسلطته إضعف إسرة اسوان مما جعل إسرة منف تعود للسلطة من جديد وتنقل العاصمة من أسوان إلى (إهناس) وفى هذه الفترة بعد أن خضع السودان والنوبة للمؤثرات الحضاريه الفرعونيه وتمكن من الاستقلال عنهـا خضع لاشك للديانات المصرية والحضاره الفرعونية بعد إن فرضت عليه فى عهد الأسرة الاسوانيه .

الأسرة الحادية عشر الطيبيه (٣٠٦٤ ٢٩٦٣) ق م

يبدو اهتزاز الملك بين الأسرات السابقة وانتقال السلطة وإنشقاق الدولة وانتقالها لأسوان ثم إلى إهناس كان فى عهد وصلت فيه السلطة المصرية دورا من التدهور مما قاد إلى هذا التغير السريع والتنقل . . وإذا كان هذا التنقل

وهذا الانشقاق قد كان كارثه على الدولة المصرية لكنه كان له فضله الجنوب فى دخوله تحت تأثير هذه الحضاره فى عهد الأسرة الاسوانيه التى ؛ الحضاره للجنوب والنوبه والسودان . . حتى بات السودان بعد إنتقال ال الشمال مره أخرى ذات سيادة وحضارة ذات طابع فرعونى مستقلة كل الاستقلال ولا يمكن أن يكون لتلك الحضارة التى انتقلت للسودان فى عهد الأسرة الأسو من لرقى ما كان فى الدلتا ووسط مصر ولكنه كان بلاشك بدايه جديده الرقى والحضاره والتفكير الدينى ونظام الدولة .

ويمكن لنا أن نؤرخ تلك الفترة بفترة النهضة الأولى التى خضعت بعد إنتقا الأسرة من أسوان وإنعزال تلك الحضارة عن الشمال .

وبعد إنتقال الحكم فى الجنوب إلى الشمال مرة أخرى بدأت الحياة تد فى الدولة المصريه مرة أخرى فى عهد الأسرة الطيبيه (نسبة إلى طيبه) وذلم فى عهد هذه الأسره « منتوحب » الرابع الذى نزع الدلتا من ملوك أهناس ووحد مصر تحت سيطرته وعمر البلاد ووسع مملكته حتى سينا وفلسطين ؟ جاء بعده ملوك لم يكن لهم شأن يذكر . انحصرت على يديهم اصلاحات هذ الملك .

الأسرة الثانية عشر الطيبيه (٢٩٦٣ - ٢٧٥٠) ق م

وفى عهد هذه الأسرة التى حكمت مائة وثلاثة عشر عاماً عادت لمصر مرة أخرى وحدتها وعادت طيبه مرة أخرى عاصمة الدولة الموحدة .

وبعد أن استتب النظام لهذه المملكة الطيبيه ووحدت السلطة الداخليه ورأت المستعمرات القديمة التى تمرد عليها فكرت فى اعادة أرض (النوبة وأثيوبيا)

مرة أخرى . وقد ظهر اسم اثيوبيا هنا لأول مرة وقد كان يقصد به جنوب النوبه . . فقد كانت النوبة وأثيوبيا وبهنسه تطلق على الأرض جنوب مصر .

وقد خضع السودان مرة أخرى لسلطة هذه الدولة الطيبيه ويبدو هذه المرة أن جنود هذه المملكة قد ساروا داخل السودان وكان ذلك فى عهد الملك (امنحتب الأول) الذى عرف بالحكمة والحزم وحين حانت وفاته دعى أبنه وقال له هذه الوصية :

(يابنى لقد أصبحت حاكم الأقاليم الثلاثة) الوجه البحرى ـ القبلى ـ النوبة (وهذه أول مرة تصبح النوبة جزءا لايتجزأ من المملكة الفرعونية) وقال : (فأقتد بأحسن ما كان يفعله أسلافك وحافظ على نظام الرعيه ولاتكن فى معزل عنها ولا تعجب بنفسك ولا تقتصر على مصاحبة الغنى دون الفقير . . ولا تسرع بتقريب الوافد إليك فأن ضمائره خافيه عليك) .

وفى عهده استخرج الذهب من أرض النوبة وقام بغزوات عديده لها ورجع بالكثير من الغنائم والسبايا وأخضع كذلك الزنوج خلف أراضى النوبة .

ثم جاء بعده إبنه (أوسرتيس) ثم جاء بعدة امنحتب الثانى أو (سيزوستريس) الذى شاد حصونا وقلاعا فى وادى حلفا وقد وجد على بقايا هذه الحصون (هذا حد مصر الجنوبى وضع فى السنة الثامنه لحكم الملك (أوسرتس) .

الأسرة الثالثه عشر الطيبيه (٢٧٥٠ - ٢٥٦٦) ق . م :

وكذلك يبدو أن حدود مصر إمتدت ابعد من حلفا فى عهد المملكه وكذلك أثار هذه المملكة وغزواتها كانت تذهب بعيدا عن حلفا وربما كانت المراتب

تجى من ملوك الممالك السودانيه جنوب حلفا وفى عهد هذه الأسرة توسعت فتوحات المملكة المصرية للجنوب حتى وصلت الشلال الرابع شرق كريمه . . . وربما خلف المصريون على هذه الاراضى الجديده التى اخضعوها بعض الامراء الوطنيين أو بعض المصريين ولكن هذا الامتداد الجديد للجنوب قد نقل الحضارة الفرعونية إلى داخل السودان ونقل معها الديانات والنظام الادارى - وربطت هذه الممالك بحركة الدولة المصرية التى كان عليها أن تحافظ على هذه الحدود .

وجد بمدينة بوهين بقايا مدينة قديمة بها معبدين وقلاع من الأسرة الثانية عشر . زارها شامبليون وروسيني ونقلوا آثارها إلى فلورنسا . أخذ تمثال أمون من قاعدته التى وجدها كابتن ليونز وارسل الى فلورنسا يرجع تاريخه إلى الاسرة الثانية عشر . وكان على أمراء هذه الممالك أن ينتهزوا فرصة أى ضعف فى الشمال ليعيدوا استقلالهم وكان أهالى السودان أكثر يقظة للبحث عن ضعف فى الدولة الطيبيه وفى نفس الوقت كانوا يحاولون أن يتقربوا للممالك المصرية واعتناق دياناتهم والاستفادة من نظامهم ومدأهنتهم . . . وهذه حال الشعوب والممالك .

والأسرة الرابعة عشر والخامسة عشر (٣٣٨٢-٢٥٦٦) (٢٣٨٢-٢١٤٣)ق . م:

حكمت مصر فى هذه الفتره الاسرة السخاوية أودولة العمالقة والرعاه . . وهم من قبائل الشام انتهزوا فرصة الشقاق فى مصر . . وقد كان العمالقة من العرب العمالقة .

الاسرة السادسة عشر الصانيه (٢١٤٣ - ١٩٨١) ق . م .

ظهر فى عهد الأسرة الصانية التى جعلت صان عاصمه لهم أيضاً من العرب

ومنهم (أبوقيس) الذى لقبة العرب (بالركبان بن الوليد) أنتزع ملوك هذه الاسرة الوجه القبلى من فراعنة مصر . . . وفى عهد هذه الاسرة ظهر سيدنا يوسف عليه السلام ومن قصة سيدنا يوسف عليه السلام تبدولنا صورة المجتمع فى تلك العصور وحالة الشعب والرعية ورهبة الفراعنه واستبدادهم وتحكمهم فى مصائر البشر كما تكشف لنا عن انتشار السحر والشعوذة سلطة الملك وحوله مجموعة من دجالى الدين الذين احترفوا الشعوذة والسحر . . وارهبوا الناس . .

الاسرة السابعة عشر (١٩٨٣ - ١٧٠٣) ق م

من تاريخ هذه الاسره يظهر لنا أن الصعيد كان قد أنفصل عن الشمال حتى اضطرت لاعادته وبذلك تكون الممالك السودانية قد انفصلت واستخلت ادارتها عن الشمال والسبب عدم استقرار الملك على ارض النيل هو توسع هذه المملكة شرقا وجنوبا وغربا مما جعلها تخضع اجناسا مختلفة كما فعلت الدولة العثمانية فى العصور الوسطى مما سهل انفصال هذه الشعوب عن المملكة المصرية واعادتها مرة أخرى وبذلك أصبحت تخضع للعادات والتقاليد الفرعونية ثم تعود مرة أخرى لتقاليدها المحلية . . وفى تاريخ هذه المملكة التى حكمها الرعاة ٣١ عاما لاشك قلت فيه نهضة الحضارة الفرعونية ودخلت عليها مؤثرات جديدة .

وفى نهاية هذا العصر ظهرت الدولة النوبية الاثيوبية فى أرض النوبة .

وجد بمنطقة بوهين مع التمثال نائمة بعشرين مدن أخرى بين بوهين ودنقلا .

وتدل القائمة على غناء هذه المنطقة بالذرة والمحاصيل الاخرى

الاسرة الثامنة عشرة الطيبية (١٧٠٣ - ١٤٦٢) ق . م :

يبدو أن سلطة الأسرة الثامنة عشر الطيبية قد امتدت إلى الجنوب اكثر

عما سبقتها من ممالك . . ففى عهد هذه الأسرة ظهر ملوك وملكات عظام على مصر وسعوا حدودها وأخضعوا كل جيرانهم . . وقد ظهر لنا توسع الاسرة الثانية عشر الطيبية إلى الجنوب حتى الشلال الرابع ويبدو أنهم أقاموا مملكتهم الجنوبية هناك وقد تبعت تلك المملكة الجنوبية وصارت تابعة لهم ، أما عن ظهور المظاهر أو الحاكم المقيم . . . رغم انفصال هذه المملكة عن سلطة مصر فى عهد الأسر المقبلة ولكن زواج أول ملوك هذه الأسرة الملك (امن تريس) الأول من أميرة ملكة أثيوبيا وهذا ماترجمة بأنه كان يقصد به مملكة الشلال الرابع (كرمه) وليست أثيوبيا الحبشة .

تزوج أموزيس بأبنة ملكة إثيوبيا (كرمه) وهذه المصاهرة لا يمكن أن تكون قد قامت بدون مقدمات . . . فلابد أن تكون مملكة إثيوبيا قد بلغت شأوا من التقدم والازدهار حتى تتطاول لمصاهرة ملك الشمال . . . أو أن - هذه المملكة كانت إنحدرت من ممالك الأسرة الثانيه عشر واحتفظت بزعامة إثيوبيا وتعود مرة أخرى بعد إستتباب الأمن فى هذه الاسرة الثامنه عشر لتساعدها فى حروبهـا على ممالك النوبه والعرب العمالقة حتى إنتهى منهم بمساعدة دول أثيوبيا . . وبهذا الاتحاد بين الجنوب والشمال ، خضعت منطقة النيل حتى الشلال الرابع لمظاهر الحضارة الفرعونية مرة أخرى . . وبهذه المصاهرة بين ملك طيبة وأبنه ملك إثيوبيا فقد نشطت التجارة بين الشمال والجنوب وازدهرت العلاقات وأصبحت الممالك النوبية الكثيرة التمرد محصورة بين ملكين توحدوا بالمصاهرة ضد أعدائها وبذلك قلت خطورة وتمرد الجماعات الصغيرة . وربما تكن فى هذه الفترة قد خضعت كل مجموعات النيل لاشراف الدول الاثيوبيه وتم تمصيرها بمظاهر الحضاره الفرعونيه بعد تمرد النوبيين الذين عرفوا بعدم الخضوع لأى نفوذ جديد .

ثم بعد وفاته إستلمت وصاية الملك زوجته نفرتارى على ابنه (امنوفيس)

حتى شب هذا الملك وفى عهد وصايتها قويت مملكة إثيوبيا وجاء ابنهـــا فأتم إخضاع الممالك النوبيه وضمها لمملكته . ولاشك أن هذا الاخضاع هذه المره كان كاملا لايتوقف على الجزية والعقوبات ولكن كان بطريقة إشمل بتعيين نواب على هذه الممالك . وهؤلاء النواب لاشك كانوا من القوات المصريين والاثيوبيين .

ثم جاء بعـد إمنوفيس الملك (تحوتمس الاول) مصمماً على ضم الشام والنوبة ، وبايع النوبة خلفه تحتمس الثانى بلا قتال وهذا يعنى خضوع هذه الممالك لهذه الاسرة والاعتراف بأى ملك جديد تكشف عن نفوذ وتبعية هذه الممالك النوبية وذلك من جراء الدم الذى تسرب إلى بلاط المملكة الفرعونيه .

ثم جاء تحتمس الثالث الذى استولت أختــه (هاتاسو) على الحكم نسبة لصغر سنه وانفردت بالحكم ووسعت بلادها وتوسعت فتوحات المصريين فى هذه الفترة .

ولما توفت عاد الحكم إلى أخيها تحتمس الثالث إعظم ملوك مصر الذى وسع مملكته وجند شعبه لهذه الفتوحات حتى أخضع الحبشة والنوبة ومعظم أراضى السودان وقد وصلت فيه لأول مرة جنود الحضارة الفرعونية إلى نهر العطبرة . ولكن لايمكن أن تعزل الحضارة قد دخلت إلى هذه السهول والحبشة فقد كان الاخضاع عسكرى وتجارى لم يسمح ببذر بذور حضارة شمال النيل وفى هذا العهد توسعت المملكة المصرية إلى الموصل والعراق واليمن وكردستان وأرمنيه وجزيرة قبرص ثم جاء بعدة إبنــه أمنوفيس الثالث الذى أمكنه أن يخضع السودان لسيطرته حتى النيل الازرق . . . وبعـد هذا التوسع المنقطع النظير كان لابد أن يثقل كاهل الدولة بمراقبة الأمن والنظام وهذا يحتم وجود ملوك عظام على مر الزمان .

ولكن ماحدث فى نهاية هذه الاسرة الثامنة عشرة الطيبية ان اضطرب الحكم فى هذه المملكة الشاسعة .. وتمردت الممالك السودانيه هذة المرة التى أشادت لها قلاعا وحصونا على طول النيل وعرفت المعابد المصريه بدخول الجنود المصريين والكهنة ورجال العمارة حتى تعلم أهل النيل هذه الفنون والعبادات وكثرت مظاهر الحضارة الفرعونية من عادات وفنون عند أهل السودان رغم ما عرفوا به من عدم الخضوع لرأى سلطة خارجية فقد كانوا كثيرى التمرد والعصيان الأمر الذى قاد لارسال جيوش مصرية عظيمة فى عهد الفتوحات وبناء القلاع المصرية للحفاظ على طاعتهم . ولكن الفتوحات المصرية كان قل تعددها فى عواصم النيل والنوبة حتى إصبح عدد هذه الممالك مرهون بقوة الملك فى طيبة واستعدادة السريع لتأديب هذه الممالك المتمرده .

الأسرة التاسعة عشر الطيبيه (١٤٦٢ - ١٢٨٨) ق م

كان رمسيس الاول أول ملوك هذه الاسرة الذى وجد تركة ثقيلة وممالكه واسعه الارجاء تفككت أوصالها فى الشمال والجنوب والشرق وكانت أسيا مصدر قلق لهذا الملك .

وعادت الحروب من جديد لاخضاع إثيوبيا والنوبة والعراق والشام وإعادتها إلى حدود المملكة القديمة . . . وتطورت الفنون فى عهد هذة الاسره التى ظهر فيها ملوك عظام مثل تحتمس الرابع ورمسيس الثانى . . ولكن بعد عهد هؤلاء الملوك إختفت مظاهر التمرد والعصيان من جديد . . وتعرضت مصر لهجوم من الشمال من اليونانيين والليبيين وساء حال الحكم فى مصر وذلك لكثرة الجند الذين أصبح فى أمكانهم التمرد وقد كانوا من شتى الشعوب التى خضعت لحكم مصر . هنا تجمع أعداء أخر ملوك مصر لخلعه ووضعوا على عرش الملك رجل من عامة الشعب .

الاسرة العشرون الطيبية : (١٢٨٨ - ١١١٠)

ظهر رمسيس الثالث في عهد هذه الاسرة وهو من سلالة أولئك الملوك العظام ولكن حال هذه الاسرة لم تختلف عن الاسرة السابقة في مواجهة صعوبة الحفاظ على هذة الممالك الواسعة وهذة الشعوب المتمردة ..

الاسرة الحادية والعشرون الصانية (١١١٠ - ٩٨٠)

بعد إنتهاء الدولة الطيبية الثانية إستولت على الحكم إسره من (صاى الحجر) وانقسمت مصر إلى قسمين مصر الوجه القبلي تتبع لكهنه آمون وعاصمتها طيبة والوجه البحرى وكان فراعنتها الصانيين وقاعدتها صان ..

كان سمنوس هو أول ملوك صان وقد حاول إخضاع طيبة في عهد ملكها الكاهن (حرحور) ـــ . . . . الذى لم يرضى بتغلب الصانيين عليه فأتحد مع الممالك الجنوبية الأثيوبية ووسع مملكته حتى سنار وأتحاده هذا لاشك كان مع مملكة كرمة عند الشلال الرابع التى إستطاعت أن تقوى نفوذها وتحتفظ بسيادة جنوب النيل حتى النيل الأزرق . . . . ويبدو إن العنصر المصرى والديانات الفرعونية كانت خاضعة لامون الأمر الذى حتم تطويع هاتين المملكتين في زمن الشدة ومحاولة الصانيين القضاء على عبادة آمون . . .

الأسرة الثانية والعشرون البسطية (٩٨٠ - ٨١٠)

وقد عاد الأضطراب مرة أخرى لمصر بدخول شعوب كثيرة إليها حتى سقطت مصر في إيدى الشعوب المجاورة وخاصة شعوب أسيا الذين مهد لهم ملوك الدلتا بالعمل والوصول إلى مراكز عظيمة وإنتقل الحكم في عهد هذه

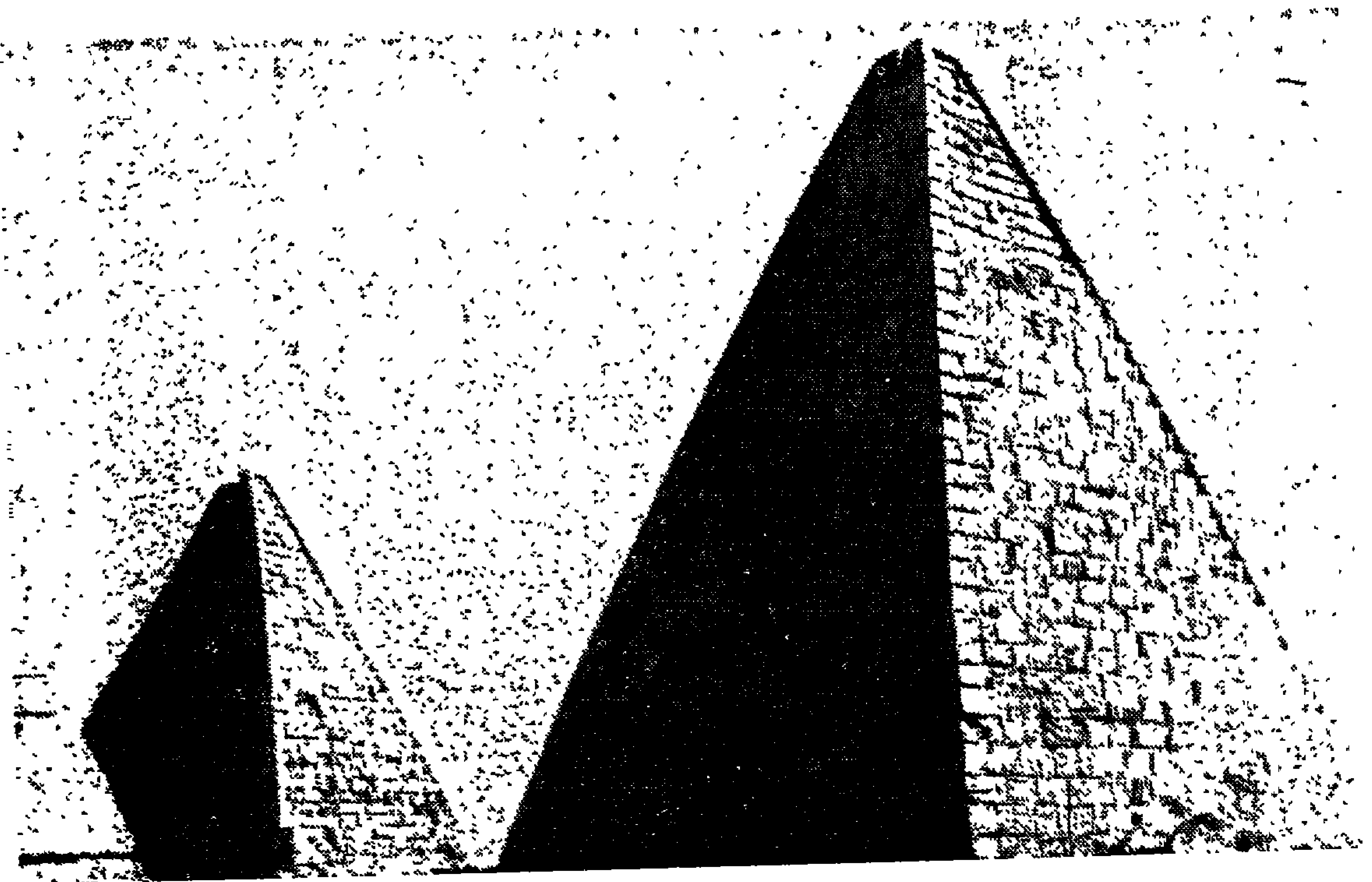
الأسرة إلى مدينة بسطة وهى من الاسرة الطيبية واستولى اششنق على الحكم وهو من العنصر السامى ثم حارب ملوك طيبة وأخضعهم وبذلك مهد لانفصال اتحاد مملكة طيبة واثيوبيا واستقلال السودان مرة أخرى ! .. .. ..

ولم يستقب الأمر لاسرة من هذه الاسر المتعددة التى باتت تتربص بعضها البعض ومحاولة إستجلاب الأجانب والجنود المرتزقة للتمرد على الملك وخلعه : ثم ظهرت الاسرة الثالثة والعشرون الصانية .. .. (٨١٠ - ٧٢١ ق . م .) خالفة الأسرة الصانية التى ساعدت على انقسام مصر إلى أكثر من عشرين أمارة وبذلك تفككت الدولة المصرية العظيمة وأصبحت غير قادرة على الحركة فى الداخل والخارج بعد أن انهكتها أطماع الاسر المختلفة للملك ..

وقد اغوى هذا الحال مملكة اثيوبيا للتقـــدم وإستيلاء طيبة حتى عاد الصانيون مرة أخرى لاسترداد طيبة من الاثيوبيين .

الاسرة الرابعة والعشرون الصاوية (٧٢١ - ٧١٥)

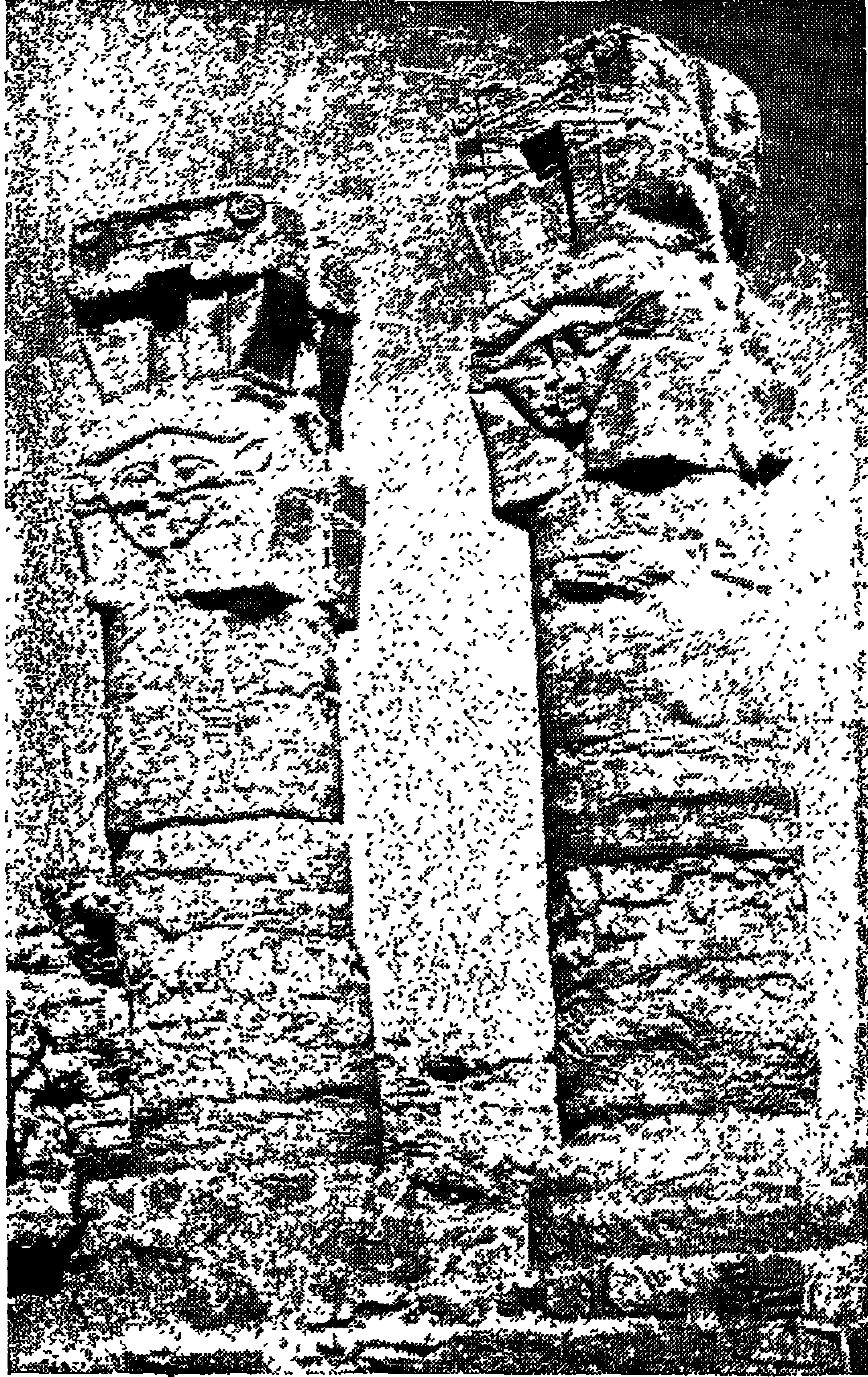
ساءت الظروف فى مصر وأصبح الملك أمنية كل قادر وأصبحت الأسر القديمة التى ورثت الحكم كل منها تحيك المؤامرات للاخرى حتى خضعت طيبة مرة أخرى لتعود للاثيوبيين وذلك لاختلاف ملوك الوجه البحرى .. . فتمد انتهز الاثيوبيين مساعدة الصاويين لاستعادة ملكهم واستولوا على أرض الوجه القبلى حتى ظهر تفنخت وطلب من الاثيوبيين فرض الشروط التى يطلبونها والاعتراف به ملكاً على الوجه البحرى وكان هذا مؤسس الاسرة الرابعة والعشرين . وجاء بعده (بكوريس) القانونى الشهير الذى قضى سبع سنوات فى نزاع مع الاثيوبيين طمعاً فى طــردهم من مصر ولاشك أنه كان يستعمل العرائض وتفسير القوانين بعدم شرعية حكم الأثيوبيين وبقاءهم فى مصر ..



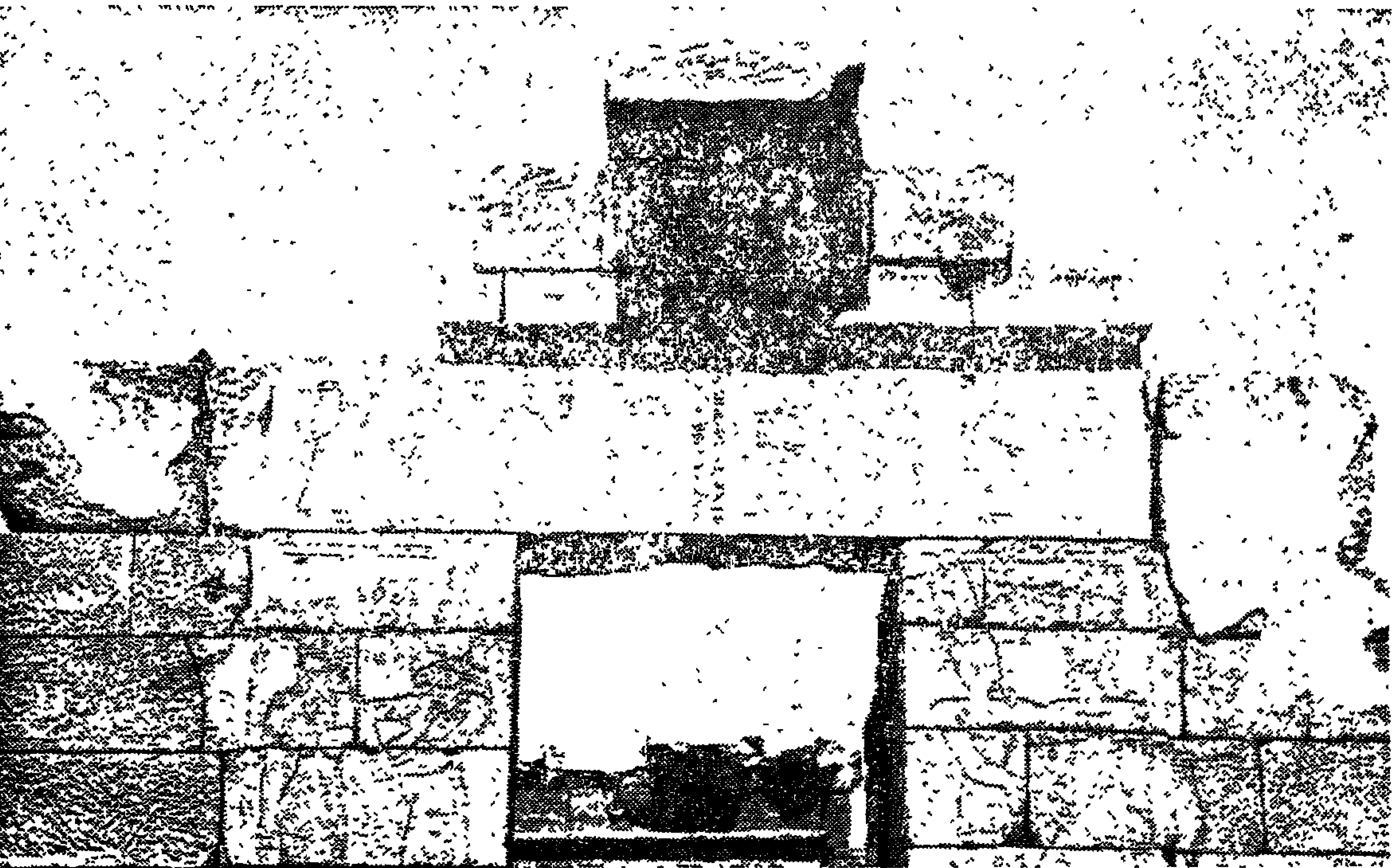
أهرامات مروى شرق معبد البركل حيث قامت مملكة نبته فى القرن الثامن قبل الميلاد.



معبد الأسد بالنجعة .. بناه الملك ناتاكامين (١٥ ق . م . — ١٥ م .) تابع لمروى القديمة .



واجه الآله حاتور على وجهة أعمدة معبد جبل البركل من مخلفات مملكة نبته خلدها ملكها طهرقه العظيم .



أثار حضارة مروى القديمة جنوب نهر عطبرة حيث امتدت الحضارة الفرعونية إلى الجنوب ..
اللوحة عبارة عن واجهة معبد آمون بالنجمة العهد المروى (٣٥٠ ق.م — ٣٥٠ م)

كما إستمر الأثيوبين فى محاولتهم لضم الوجه البحرى إليهم ولكن يبدو أن الدولة الأثيوبية بدأت تدخل مراحل التوسع الذى طرأ على الممالك الأولى وأصبح بعد عاصمتهم (نباتا) على الوجه البحرى حائلا دون توسعهم حتى ظهر الملك (بكوريس) ملكا على الوجه البحرى فحارب الاثيوبيين فى عهد ملك (نباتا) (الملك سبقاون) الذى خلع (بكوريس وأحرقه واستولى على ملك مصر جميعها وانتهى بذلك عهد ملوك الاسر المصرية لتدخل مصر فى حكم شعب الجنوب من القرن الثامن قبل الميلاد ...

الاسرة الخامسة والعشرون الاثيوبية) (٧١٥ — ٦٦٥)

أحب شعب وادى النيل ملكهم سباقون بعد أن قضى على الفتن والمؤمرات للملوك ومعاملته الطيبة الحسنة للرعية وخط سياسة رشيدة لدولته الجديدة حيث لم تختلف ديانات وعبادات دولة نباتا عن الوجه القبلى وعبادة أمون .. وأعاد الحياة والتجارة بين شمال النيل وجنوبه وتوسع فى مملكته وأشاد المبانى وأعاد بناء القديم وتوسع فى منشآته من المدن والمعابد والقصور ولأول مرة ينعم شعب وادى النيل بالاستقرار ويتفرغوا للعمل والحياة الطبيعية ولكن إطماع هذه الدولة الجديدة الشابة المنتصرة حاولت التوسع جنوبا حتى النيل الأزرق وسهول البطانة والحبشة وإخضعت إواسط السودان وضمته لهذه المملكة وفرضت عليه مظاهر الحضارة الفرعونية التى إنتقل مركزها من الدلتا إلى طيبة ثم النوبه حتى وصل إلى البركل ثم مروى القديمة ...

ومن فضائل (سباقون) انه ألغى حكم الاعدام ... وبعد أن نظم حكم مصر وترك مصر تحت رعاية أمة الملكة (اميريتس) ... وذهب لنجدة ملك الشمال (هوشع) ملك إسرائيل (وحزقيا) ملك يهوذا وأمراء فلسطين

الذين استجندوا به من ملك آشور الذى هزم هؤلاء جميعاً مما أضطر سباقون للعودة لمصر ووجد أمراء الوجه البحرى قد تمكنوا فى غيابه ولسماعهم بأنهزام جيشه أمام الاشوريين اعلنوا استقلال الوجه البحرى (الدلتا) وحاربوه حتى طيبة حيث أقام إلى أن توفى بها . .

وخلفه ابنه سبيخون ورأى نارالفتنة تدب من جديد بين أمراء الوجه البحرى فأغار عليهم محاولا إسترداد الدلتـــا إلى مملكته حتى تمكن من استرجاعها . . .

هنالك اختلاف حول إستلام ترهاقا للسلطة فبعض المصادر تفيد أنه قتل شبكتو بعد أن استولى على عرش نباتا والبعض تفيد أن شباكو أوصى به له .

ثم إستلم السلطة ترهاقا بعد أن اقصى سبيخون (شبكتو) وفى عهده فاض النيل وإستبشر الناس بعهده . . وكانت الدلتا وأرض فلسطين والعراق تضج بالحركة وتطلع ملوك أشور لامتداد سلطانه إلى النيل ، وتطلع ترهاقا لبسط نفوذه على ارض الشاميين والفلسطينيين التى كرهت سلطة الفرس وبطشهم . وكان ترهاقا ذكيا فطنا فلم يعمد إلى محاربة خصمه (إسرحدون) ملك أشور مباشرة بل عمد إلى دس الدسائس بين الولاة التابعين لاشور حتى يفكك جبهة القتال التى تقف بينه وبين (أسرحدون) وقد بلغ الآخير محاولات ترهاقا لبث التفرقة بين عماله على فلسطين والشام . . فاغضبه ذلك وتقابل الجيشان وانهزم ترهاقا وتابعته جيوش الآشوريين إلى ما وراء الشلال الاول . . . واستولى الاشوريين على منف ثم عاد ترهاقا واستعادها ثم استردها الآشوريين مرة أخرى وصار الصراع بين الاشوريين وترهاقا على مصر حتى تنازل الآشوريين وعقدوا صلحا مع ترهاقا .. . ومن ثم قلت سلطة الاثيوبيين على الوجه البحرى ..

بظهور دولة الآشوريين القوية فى الشرق ودولة نباتا القوية فى الجنوب جعلها مصر أرضاً للحرب وميداناً للقتال بين قوتين شابتين حين دب فيها الفساد فأمراءها لايستطيعون أن يقفوا صراحة مع أشور أو مع مملكة نباتا ولايستطيعون أن يعادوا هذه ولا تلك والحرب يوم نصر لهذا ومره لعدوه مما أضعف الوضع فيها وإضعف اعداد حكام يساندون أحد القوتين لتخفيف نصر كامل حتى اقتنع الاثيوبيين بظيبة ثم جاء بسماتيك الاول الصاوى على الوجه البحرى واستعان باليونانيين على بناء دولته وعلومها وحفظ ود الاثيوبيين بزواجه بأميرة من بنات الأسرة المالكة الاثيوبية فاسترجع طيبة وضم مصرالجنوبية وعادت دولة إثيوبية إلى قواعدها الاولى حتى ظهر قمبيز ملك فارس وأدخل مصر تحت حكمه عام ٥٢٧ ق . م وبذلك دخلت مصر عهداً جديداً فى خضوعها لمظاهر الحضارة الفارسية ثم بعد ذلك لمظاهر الحضارة اليونانية والرومانية . . .

اما دولة اثيوبيا فقد أصبحت بعيدة عن سهام الفرس كما إنها اقتنعت بحدودها ومدت نظرها لبسط نفوذها للجنوب حيث كانت تمتد جنوب النيل الازرق قبائل الشلك والعناصر السودانيين التى كانت تسكن أرض الجزيرة الغنية والنيل الأزرق .

دولة نبـــاتا

بعد إنتهاء حكم الأثيوبيين فى الوجة البحرى والقبلى وجلاء الآشوريين عنها اعتلى عرش الوجه البحرى الاسرة السادس والعشرين الصاوية . وفى عهد الملك بسماتيك الاول الذى استعان باليونانيين على تنظيم البلاد وتكريمهم والاحتفاء بعلمائهم إستطاع بمعاونة اليونانيين من طرد الاثيوبيين من طيبة وجنوب مصر وبذلك إنتهى أثر السيطرة الاثيوبية على مصر وكان ذلك فى عام ٦٥٠ ق م وبعد أن إستتب الامر لبسماتيك ، بدأ إعادة الحياة لمصر وقرب اليونانيين وجندهم وجعل منهم قواده وأكرمهم إلى حد جعل جنود المصريين يغضبون عليه ويقصدون إثيوبيا حيث رحب بهم ملك نباتا وكرمهم وإستفاد بهم فى تنظيم جيشه وفتوحاته لداخل السودان .

ورغم قلة المصادر حتى الآن عن دولة طيبه بعد القرن السادس الميلادى الا أننا يمكن أن نتصور حال البلاد بعد أن إكتفت دولة نباتا بالانتصارات الداخليه وإمتداد فتوحاتها إلى الداخل وانتشار العمارة والفنون والاستفادة من الجنود المصريين الذى تركوا خدمة بسماتيك الأول الذى بدأ فى ادخال . علوم اليونان وقواتهم ليمهد بذلك لدخول الحضارة اليونانية محل الحضاره الفرعونية :

نرى السودان يتوسع فى نشر هذه الحضاره الفرعونية جنوبا وتخضع له كل الممالك التابعة على النيل الازرق حتى سنار وتظهر عاصمة ثانية عند مروى القديمة ناحية كبوشية لتتولى اداره البلاد وتتولى نباتا العاصمة ادارة الجزء الشمالى .

كان هذا فى هذا العصر الذى بلغت فيه الحضارة الفرعونية عظمتها ورقيها

فى السودان وامتلأ النيل بالمعابد والقصور والفنون الفرعونية من حلفا حتى أرض الجزيرة ...

وبمرور الزمن دخلت الحضارة الفرعونية فى عصر الركود والخمول من جراء دخول الحضارة اليونانية ثم بخضوع مصر لحكم قمبيز ملك فارس عام ٥٢٧ ق. م وتأسيسه الاسرة السابعة والعشرين الفارسية التى نكلت بالمصريين وبعباداتهم وحرمت عليهم عبادة العجل آبيس ، وأبطال الشعائر الدينية الفرعونية ، وكان السودان فى ذلك الوقت ملجأ للهاربين من بطش الفرس والراغبين فى نهضة السودان لإنقاذ مصر من وحشيـــة الفرس يبدو ان حكام نباتا لم يفكروا فى هذا العمل مرة أخرى بعد هزيمة ملوكهم العظام بعانخى وترهاقا بجانب قوة الدولة الفارسيه التى ارهبت العالم ونكلت باعدائها أشد التنكيل هذا كله جعل حكام نباتا لايتقدمون لانقاذ مصر خوفاً من ادخال أنفسهم ومملكتهم فى حروب مع هذه الدولة القوية الشرسة التى ربما زحفت عليهم ودمرت حضارتهم بعدما دمرت حضارة مصر واذاقة شعبها مر العذاب وحرمت عليهم شعائرهم الدينية وعباداتهم . . وبذلك انفصل تاريخ السودان من ذلك التاريخ عن مصر ولم يحاول ان يدخل نفسه فى شئونها وذلك للضعف الذى بدأ على دولة نبتة وتوسعها وانقسامها الى أمارتين وخضـــوع مصر لسيطرة دولة قوية تختلف دياناتها عن دياناته وحضارة السودان الفرعونية - وربما حفاظا على هذا التراث من المؤثرات التى طرأت عن مصر وازدهرت فيها واعادت لها الحياة من جديد

اقتنع السودان بأثار الحضارة الفرعونية التى لم يأتى ملك عظيم ليرفع من شأنها أو يقودها ولم يستتب الامر هم ذلك للفرس فى مصر فاعمالهم الوحشية ومساعده اليونانيين المصريين الذين كثر عددهم فى مصر وبذوغ دولتهم حرض المصريين للثورة على الفارسيين حتى أقصوهم ولكن ذلك لم يعطها استقلالها نهائيا

وانما كان تمهيدا لإخضاع مصر مرة أخرى للحضارة اليونانية بدخول الإسكندر المقدونى عام ٢٣١ ق م . مصر وضمها للامبراطورية الرومانيه بعد إن فتح بلاد أسيا الصغرى وصيدا وصور . . واستمر حكم اليونان فى مصر حتى إعتلى إحد قواد الاسكندر بطليموس بن لاغوس عرش مصر ودخلت مصر فى عهد البطالسة حتى آخر ملوكها كليوباتره سنة ٣٠ ق م .

وفى هذا الأثناء تطورت حياة مصر العلميه والفنية بانشاء جامعة الاسكندرية وبدخول العلوم اليونانيه كالفلسفة والفلك والعلوم العقلية وأزدهرت حياة مصر العلمية والفنية خلال ال ٣٠٠ سنة التى خضعت فيها للحضارة الرومانية . ويبدو أن هذه الحضارة بعمارتها وفنونها وعاداتها قد وصلت للسودان وخاصه الفنون .. لان حسن الجوار بين المملكتين كان قائما فلم تحدث أى غارات أو هجوم بين الدولتين خلال تلك الفتره ولم تفكر احـــدى الدولتين فى بسط نفوذها أو مظاهر حضارتها بالقوة على الاخرى وأستمرت الحياة التجارية والتبادل الثقافى والفنون الرومانيه تفد للسودان عن طريق الهاربين والتجار والعمال ولكن هذا الاثر كان بسيطا لتعارض هذه الحضارة وتعاليمهـا مع الديانات المصرية بالسودان فلو سمح بدخول العلوم اليونانية يعنى ذلك الاعتراف بديانة أخرى غير ديانة الفراعنة والحضارة الفرعونية التى استوطنت السودان .

ويبدو أن السودان دخل فى مرحلة من مراحل الضعف والتفكك فى هذه الفتره فلم يحاول أن يستفيد من العلوم والفنون الاغريقية أو الرومانية على غرار جامعة الاسكندرية أو ارسـال المبعوثين أو إقامة الاروقة وذلك لانعدام الصله بين حكام مصر من الرومانيين وبين حكام « نباتا » الذين كانت لهم علاقات طيبة مع حكام مصر من الوطنيين وصلت حد المصاهرة والمعاملات والمساعدات العسكرية .

وظل تاريخ الممالك السودانية الفرعونية خلال تلك الفتره يقبع تحت الاتربة وبقيت بقايا الآثار مبعثرة لم تكشف عن نفسها شيئا يذكر حتى دخل السودان فى العهد المسيحى ، ولم تحاول الدولة أثيوبية مرة آخرى أن تعاود الهجوم على مصر الا فى عهد أغسطس والى مصر الذى خرج لاحتلال شبه الجزيره العربية وانتهز حكام « نباتا » هزيمته وبعــده عن صعيد مصر لاحتلال مدينة إسوان وضواحيها ، وكان ذلك قبل ميلاد المسيح ببضع سنين ، ولكن أغسطس عاد وحارب الأثيوبيين حتى عاصمتهم « نباتا » وأجلاهم عن مصر مره أخرى وهذا يدلنا على قوة مملكة « نباتا » حتى ظهور المسيح ودخول مصر فى ملك الدولة الرومانية ..

المسيحية فى مصر والسودان :

ولد المسيح بأرض فلسطين بقرية بيت لحم ولما بلغ من العمر سنتين أتت به أمه إلى مصر مع يوسف النجار حيث عاش فيها أربع سنوات ..

ظلت مصر تحت حكم متقلب بين قسوة القياصرة الرومان وعمتها الفتن وعاش الشعب فى ظلم شديد فى آخر عهد القياصرة . وفى هذا الاثناء عمت الديانة المسيحية الشرق ولقى روادها الأوائل الكثير من صور العذاب والاضطهاد وقد لقى رواد المسحية بمصر النصيب الأكبر من هذا العذاب ، من القياصرة الرومان . وقد ظهر بمصر رجالا حملوا عبء هذه الرسالة . وقد كانت الاسكندرية هى المقام الأول لهذه الرسالة ، ولكن قسوة قياصرة مصر لم يسمحوا للمسيحين بأعلان إيمانهم بل طاردوهم وجند الجند للقبض على كل من يثبت عليه ايمانه بالمسيحية حتى قادت هذه المطاردة وهذا التعذيب لظهور مذاهب وسلوك رجال الكنيسة فيما بعد .

اضطر الاضطهاد الدينى فى مصر المؤمنين بالمسيح بعد البطش والتنكيل ، أن هجر المؤمنين بالمسيحية المدن القرى واعتصموا بالجبال والوديان وقد عمر وادى النطرون مجموعة من الهاربين من هؤلاء المؤمنين . كما كان صعيد مصر ملاذا لهؤلاء النساك ، فوجدوا فى وديانه وشعاب جباله وبعده عن أعين الجند وأعداء الدين أمانا لحياتهم وللعبادة والهروب إلى حيـــاة النسك وقد كانت الواحات والصحارى أحسن الأماكن لاقامة هؤلاء النساك ومنهم الأنبا باقوم الذى تولى الاشراف على النسك فى الصعيد عام (٢٧١م) وخط فى حياة الكنيسة القبطية مبدأ الرهبنة والعمل الجماعى . . لأن الكنيسة حتى القرن الرابع الميلادى لم تولد وحياة الرهبنة لم تبدأ بعد بالصورة التى نراها اليوم . فقد عاش رجالها يناضلون ضد الظلم والتعذيب حتى خطوا لسلفهم هذا السلوك .

تحمل المسيحيون من الأقباط رسالة المسيحيـــة والاحتماء . . . بالواحات والوديان وأوجدوا فكرة الدير .

عاشت المسيحية فى مصر حتى القرن الخامس والسادس الميلادى فى صراع مرير بين الاعتراف بهـــا من الحكام وبين التفسيرات الدينية بين كنيسة الإسكندرية ورهبان وادى النطرون وكنيسة القسطنطينية وكنيسة الامبراطورية الرومانية الغربية . . . وحركة الهرطقة التى ظهرت ووقفت فيها كنيسة الاسكندرية ورهبان وادى النطرون موقفاً مشرفاً فى بث الديانة المسيحية .

نبذة عن ملوك السودان العظام

(كشتا – سباقون)

لم يترك لنا ملوك مملكة نباتا أو الدولة الأثيوبية أى كتابات حتى يمكن عن طريقها كشف التاريخ القديم أو حياة هذه الممالك ونحن لا نستطيع أن نقول أنه لا توجد كتابات أو أنهم لم يخلفوا لنا أى آثار . ولكننا لم نستطيع حتى الآن أن نعثر على آثار قديمة تكشف لنا عن تاريخ ملوك عظام رغم قدم الدولة الأثيوبية وصداقتها لدولة طيبة وتوسع هذه المملكة جنوباً حتى سنار والحبشة والنيل الأزرق .

من أخبار مملكة نباتا نعلم إن كشتا ليس هو مؤسس هذه المملكة ولكن بما خلفه من الآثار نعلم أنه من أول الملوك العظام الذين وصلتنا أخبارهم ، إذ أنقذ مصر من سيطرة الليبيين ومؤمرات الأسر المتعددة للحكم وتطلع الآشوريين للسيطرة عليها . فقد وصلت مصر فى القرن الثامن قبل الميلاد إلى حالة من التفكك والمؤمرات مما جعل إستتباب السلطة لبيت أو لملك أمراً مستحيلا وقد رأينا أسر كثيرة متعددة الأسماء تتطلع إلى حكم مصر حتى تقسمت مصر فى عهد الأسرة الثالثة والعشرين الصاوية (٨١٠ - ٧٢١ ق م) إلى أكثر من عشرين امارة مما سهل غزو مصر الدولة العظيمة التى انتهت إلى أمارات صغيرة من جراء النفوذ والصراع على السلطة كما أن تدخل الآثيوبيين المستمر فى طيبة والمصاهرة التى قامت بينهم وبين الأسرات المختلفة جعلتهم على علم ببواطن الامور فى مصر كما أن اشتراكهم واتحادهم مع أكثر من أسرة جعل لهم نفوذاً عظيماً فى مصر تقيدهم بالديانات المصرية جعلهم يخافون على مصير هذه الديانات حتى وصلت

مصر فى عهد الاسرة الثالثة والعشرين الصاوية لتلك الحالة من التفكك وكثرة المؤامرات فيها وتدخل الليبيين وتطلع الاشوريين للزحف عليها الأمر الذى جعل مملكة نبتة القوية المنيعة حافظة ديانه أمون التحرك لتنقذ مصر وتوحدها وكان ذلك فى عهد الملك العظيم بعنخى .

وأول ملك أثيوبى (سودانى) أعتلى عرش مصر وكون الأسرة الخامسة والعشرين الاثيوبية (سباقون أو كشتا) الذى ثار على بكوريس ملك الوجه البحرى وأحرقه وأخضع جميع مصر تحت سلطتة ودانت له دولة تمتد من الدلتا إلى النيل الازرق وسهولة . ..

ولننصف هذا الملك يجب علينا أن نرى الظروف العصبية التى كانت تعيش فيها مصر والفتن الداخلية وتآمر الامارات على بعضها وطمع كل ذى سلطة قديمة فى الملك حتى أضحى الوصول إلى الملك أو الامارة مغامرة من مغامرات القرون الوسطى التى حدثت فى اوروبا وانجلترا . جاء كشتا الى أرض طيبة والوجة البحرى وشعب مصر يقف معه ويحبه لما أبداه من حسن ونظام وعدل وطرد الليبيين من مصر .

وفى الداخل مازالت أطماع الأمراء السابقين تراودهم ولا يمكن أن ... يصمت مثل هذا العدد من الطامعين فى الحكم بالهزيمة . هذا فى الداخل أما خارج مصر فتد استنجد به هو شع ملك اسرائل وحذقيا ملك يهوذا وكذلك امراء فلسطين من خطر ملك أشور الذى كان يستعد لضم هذة الممالك الى مملكة آشور .

فما كان من كشتا الا أن جود جيشة وقاده بنفسه وسار تتبعه جيوش هذه

الممالك الا أن ملك أشور هزم بجيشه العظيم هذه الجيوش المتحدة وفرقها مما اضطر كشتا للعودة الى مصر لاسترجاع قوته واعادة النظر فى خططه لهذا العدو

وفى هذه الاثناء انتهز أمراء الوجه البحرى هزيمة جيوش كاشتا ضد جيوش آشور فاعلنوا تمردهم وانفصالهم عن سلطة كاشتا وتصــدو للجيش المهزوم وردوه الى طيبة حيث أستقر وأعاد النظام الى مملكته الواسعة حتى توفى بها .

* * *

سبيخون :

بعد وفاة (سباقون) إعتلى عرش طيبة إبنه سبيخون ، وخاف له والده عدواة أمراء الوجه البحرى ومرارة هزيمة الاشوريين ، فحاول أن يعمد هذا الملك إلى سياسة فرق تسد بين أمراء الوجه البحرى إلا أن المنية عاجلته قبل أن يتمكن من اعادة وحدة البلاد كما كانت عليها حتى أعطى فرصة لليبيين للظهور مرة أخرى وتدخلهم لمساعدة أمراء الوجه البحرى لطرد الاثيوبيين

بعنخى :

ومن ملوك الدولة الأثيوبية بعنخى العظيم الذى خلف لنا أثاراً كثيرة تتحدث عن مجده وعظمته وشهرته فقد سمع هذا الملك بمحاولة الليبيين لتجميع أمراء الوجه البحرى وطرد الاثيوبين من مصر فجرد بعانخى جيشا عظيما وأرسله لمصر وخلص طيبة من سيطرتهم و لحقهم بعانخى بجيش آخر وطارت فلول المنهزمين حتى تمت له السيطرة على الوجه القبلى كله وإستعد لمحاربة بقايا أمراء الوجه البحرى وإحتفل بنصره فى معبد آمون بالكرنك . . ثم واصل زحفه على أمراء الوجه البحرى حتى وقف عند حصون منفف القوية وقاد الحملة بنفسه حتى كسر شوكة حصون منف وعامل أسراءه أحسن معاملة .

* * *

شبكتو : (٦٩٨ — ٦٨٣ ق٠م)

خلف شبكتو عمه سباكوا على عرش نباتا وقد أعتلى العرش وما ذالت أحلام مملكة مصر هى توحيد مصر ، وطرد خطر الأشوريين منهـا تراود حكامهم ولكن المنيه لم تسمح لهذا الملك أن يستمر فى الحكم الا أنه بحسب درايته عرف من يستطيع من أسرته القيام بهذه المهمه الخطيره بتوحيد البلاد وتأديب الأشوريين غير أخيه الاصغر ترهاقا :

ترهاقا : (٦٨٨١ — ٦٦٣ ق ٠م)

ظهر ترهاقا وهو يدرك المسئولية العظيمه التى ولاها له أخيه (شبكتو) بالحفاظ على وحدة وادى النيل وطرد الأعداء منها والمحاوله لنجدة شعوب فلسطين والشام التى أخضعها الأشوريين قسرا . . فما كان من ترهاقا إلى أن يعيد الأمل إلى أمراء هذه المناطق ومحاولته إرسال المناديب وتأليبهم على الأشوريين حتى أنكشفت خطته قبل أن تأتى ثمارها مما جعل (أسرحدرن) ملك أشور يختار له جيشاً لمحاربته . والتقى الجيشان على الحدود وأنهزم جيش ترهاقا وفشلت خطته فى أزالة خطر الأشوريين . ولم يترك الأشوريين جيش ترهاقا المنهزم فقط ، بل تابعته حتى الشلال الأول ، ولكن الملك الفتى لم يقتنع بالهزيمه فعاود الكره على جيوش الأشوريين حتى إقتنعوا بعنف وأستمر القتال بين الأشوريين وترهاقا زمنا طويلا مرة ينتصر عليهم ومرة ينتصرون عليه حتى تركه الأشوريين مقابل أتاوة سنوية . . وقد أحيت هذه الحروب أطماع أمراء الوجه البحرى من جديد .

وكان الوجه البحرى مصدر قلق وتّرد للدوله الأثيوبيه . خلال محاولة بسط سيطرتها عليه .

ثانون آموت :

إستلم السلطة بعد وفاة خاله ترهاقا وكان تانون كخاله شجاعا ذا أطماع وطموح فى إعادة توحيد مصر وطرد الآشوريين والليبيين عنها فجرد جيشا لطرد الآشوريين وقوبل جيشه عند طيبه استقبالا حسنا من شعب مصر ثم سار إلى الدلتا حتى دانت له ولكن الآشوريين لم يتركوه يضم أمراء الوجه البحرى حتى عادوا مرة أخرى بجيوش عظيمه لطرد الاثيوبيين من مصر حتى إقتنع ثانون أمون بالهزيمة وعاد لعاصمة نباتا وبعده لم يتطلع ملك بعده لاعادة توحيد مصر بعد أن قويت دولة الفرس وأصبح خطرها يهدد دولة نباتا فاقتنعت بالسلام معها وتوسعت مملكتها داخل حدود السودان .

(دولة نباتا ومروى القديمه)

بعد أن تعزز على ملوك دولة نباتا الاحتفاظ بالسلطه على مصر حاولت أصلاح إمورهم الداخلية والرقى بعباداتهم ومنشآتهم فأنشأوا المعابد والقصور وأصبحوا حافظى حضارة الفراعنة بعد أن دخل الفرس مصر وأساءوا معاملة سكانها ودياناتها ومعابدها حتى قضوا على معظم معالم الحضاره الفرعونية .

أصبح السودان بعد عودة ثانون أمون ملجأ للحضارة والفنون الفرعونية وبذلك أنشغل الحكام فى ازدهار هذه الحضارة على أرض النيل جنوبا وأقاموا مراكز لهم فى جنوب نباتا وفى هذه المراكز الهامة مروى القديمه التى اقتسمت الحكم مع نباتا وأصبحت هى المشرفه على المنطقة جنوب شندى حتى منطقة الجزيرة والنيل الأزرق .

دولة أكسوم المسيحية فى الجانب الشرقى من السودان

تحدثنا عن علاقة السودان القربة بمصر ، وقيام الحضارة العظيمة على النيل فى الشمال وقيام دولة (نباتا) العظيمة لتزحف فى القرن السابع قبل الميلاد لتحرر مصر من الاضطرابات وتبعد عنها خطر الأشوريين واللبيين وتمسك بزمام مملكة طيبة ثم تستولى على الوجه البحرى . . .

وتابعنا قصة الحضارات والإمبراطوريات العظيمة التى ظهرت فى الشرق ودخلت مصر وأبعدت عنها السودانيين . وذلك من قراءة الوثائق والآثار التى خلفتها تلك الحقبة ولكننا لم نتطرق إلى شرق السودان والبحر الاحمر خلال تلك الفترة حتى ليظن أن هذا الجانب من القارة الافريقية . كان ميتاً معدوم الحياة والسبب راجع لا لرغبة المؤرخين فى تجاهل هذا الجانب ، ولكن لفقدان أى دليل يلفت النظر إلى ذلك الجزء من القارة الذى شد إنتباهنا اليه فى القرن السادس الميلادى ولإفصاح الوثائق والروايات التاريخية عن حضارة عريقة فى هذا الجزء من افريقيا والبحر الأحمر وعلاقته بالجزيرة العربية وخاصة اليمن .

تحدثت الوثائق التاريخية والآيات القرآنية عن دولة عظيمة لها من القوة والمناعة ما يجعل تصور نشأتها وتطورها إلى عدة قرون قبل الميلاد .

ظهرت دولة اكسوم وملكها ملك الملوك « غالب » الذى كشف تاريخه عن حضارة الحبشة وتقدمها وسيطرتها على هذا الجزء من إفريقيا وفرض سيطرة شعبها عن الامارات العربية فى اليمن .

وتحكى لنا قصة إكسوم وملكها «غالب» انالاثيوبيينكانوا يقومون بأعداد

كبيرة فى اليمن وأن المسيحية دخلتها فى القرن الرابع الميلادى وهى فى أوج مجدها وقوتها وأصبحت هذه الامبراطورية العظيمة على الهضبة الحبشيه قائدة للتبشير المسيحى فى أفريقيا . وجنوب الجزيرة العربية وبل وفى السودان .

واذا كانت الوثائق لم تكشف لنا حقيقة قيام دولة إكسوم بالهجوم على دولة مروى القديمة وتخريبها ولكن غيرة هذه الدولة على المسيحية ومحاولة بسط نفوذها وقرصنتها عبر البحر الأحمر على العرب تبين لنا إن الباعث الأول كان لتحطيم تلك الحضارة الدينية التى أقامت على الجزيره العربية والنيل الأحمر الذى قاد لتحطيم تلك الحضارة الوثنيه فى السودان ومملكتها وظهور مملكة علوة المسيحية بعد هذا الدمار الذى الحقته دولة اكسوم بمملكة مروى القديمة .

وتروى قصه ملك الملوك « غالب » ملك الحبشة بعد أن تعرض بعد الأحباش المسيحيين للقتل باليمن ، أن أرسل قواته لليمن وقتل منها أعداداً هائلة من عباد اليهوديه وبناء الكنائس فى محاولته الجريئه التى ذكرها القرآن بقيادة قائد جيشه ابراها وعبوره للبحر الاحمر ودخوله الجزيرة العربية ومكة لتحطيم الكعبة وفرض المسيحيين على العرب وقصة الفيل والطير الأبابيل التى جاءت فى القرآن والامكانيات البحريه العظيمة التى كانت لدى هذا الملك للتحرك فى هذه الحقبة لليمن أو الى مكة تكشف لنا عن مدى تقدمها وقوتها كما تكشف لنا وسائل النقل عبر البحر الاحمر كانت يسيره والسفن تعرف عبر هذا المضيق ولم يكن هناك مانعاً أمام الاولين بل كانت الملاحة أمراً عادياً .

فشلت حملة ابراها قائد جيش غالب ملك أكسوم عام ٥٧٠ م . وعادت المملكة إلى حالتها الأولى بعد هذه الخسائر ومحاولتها لمحاربة اليهودية فى الجزيرة العربية تكشف لنا عن العلاقات العريقة بين القارة الافريقية والجزيرة العربية

وخاصة اليمن ووجود أعداد هائلة من الأحباش باليمن وكذلك وجود أعداد هائلة من العرب بالحبشة .

هذه المملكة القوية كان لها أثرها على الحياة السودانية فى فرض المسيحية ديناً عليه بقوتها وبطشها ، وربما لولا محاولة مملكة أكسوم وتحطيمها لمملكة مروى لما تقدمت المسيحية كثيراً فى السودان كما يكشف لنا أهمية شاطىء البحر الأحمر وحيويته ونشاطه من قديم الزمن وقيام ممالك قديمة بالقرب منه .

وقد حاول العرب الاتصال بالقسطنطينية لتمدها بالجيوش لتردع جنود أبراها وتنتقم منه بتهديم مملكته فى الحبشة إلا أن القسطنطينية لم تلبي طلب العرب واعتذروا بأن الملك غالب أخ لها فى الديانة المسيحية ولا يصح أن تحاربه وتعاون من يحاول أن يحاربه ولم يقتنع العرب بهذا المنطق بل حاولوا الفرس ولكن محاولاتهم لم تنجح .

وأرسل إمبراطور الفرس لينقذ اليهود العرب بجيشه تعداد أربعة ألف جندى واستطاعوا القضاء على كل الحبشة المسيحيين الذين كانوا بالجزيرة العربية وخلعوا الملك الحبشى الذى كان على عرش اليمن وبذلك انتهت المسيحية فى الأراضى العربية لتفتح المجال لظهور الإسلام بتعاليمه الجديدة .

وبظهور الإسلام فى الجزيرة العربية وإسلام اليمن وسيطرتهم على البحر الأحمر ضعفت قوة دولة أكسوم الحربية بعد أن ساءت علاقتها مع جيرانها من العرب : حتى كان القرن العاشر (٩٦٠ م) وقد وصلت حالة من الوهن والتدهور والتطاحن على التاج الأمر الذى قادها إلى الخلافات الداخلية الكثيرة وشغلها ضعفها هذا عن محاولة الامتداد أو التدخل فى شئون السودان .

وظهر هذا الشقاق بمحاولة الأسر والمتعددة للوصول للسلطة كما سادت حالة الكنيسة وخضوعها للملك وذلك بفرض رئيس عليها من أقاربه دون إعتبار للمكانة العلمية . الأمر الذى جعل علاقة هذه الكنيسة مع كنيسة الأسكندرية ضعيفة وجعل مكانة رؤسائها مشكوك فيه وسرى عليها النظام الذى كان ساريا فى وسط أوربا .

محاولة ملوك أكسوم لإخضاع الكنيسة لسيطرتهم واحتفاظهم بسلطتهم الآلهية القديمة على الشعب جعلتهم يدخلون فى شئون الكنيسة ويسلكون نفس الأسلوب الذى اتبعته الكنيسة الإقطاعية فى أوربا الأمر الذى أقل من هيبة الكنيسة وأحط فى شأنها الدينى والعلمى حتى ضعفت وأصبحت غير قادرة على حماية المسيحية وذلك كان واضحاً فى البعث التى أرسلتها كنيسة علوة من البشريين لطلب العون العلمى من كنيسة الحبشة فعجزت عن تقديم العون العملى لرهبان كنائس سوبة وحاولت الاستنارة بكنيسة الاسكندرية كما جاء فى الروايات التاريخية وإنما هو تبرير للرفض . . . وأقرت عدم تقديم العون لهذا التبرير بعدم موافقة كنيسة الاسكندرية حتى اليوم .

السودان بين الركود والعزلة بعد القرن الثالث الميلادى :

آخر الأخبار التى وصلتنا عن السودان هو دخول بعثة التبشير المسيحية الأرثوذكسية وتعميدها ملك علوة وأفراد أسرته وحاشيته ودخولهم فى الديانة المسيحية فى القرن السادس الميلادى وإنتقال ثقل المملكة السودانية من جوار مصر إلى داخل السودان إلى سوبة وبذلك إبتعدت عن أخبار الحياة والنشاط السياسى الذى كان يربطها مع مصر . وتركت مصر التى تنفصل عنها فى أمورها السياسية إلا أن وهنت قواها وكثرت فيها الجيوش الأجنبية وتغيرت الملامح الحضارية فى مصر بدخول الفرس والإغريق والرومان من القرن السادس قبل الميلاد إلى القرن السابع بعد الميلاد . ثلاثة عشر قرنا وهى خاضعة لتأثير حضارات هـــذه الشعوب حتى بعدت الشقة بينهما وبين السودان وأصبحت العادات والعبادات تختلف . وذهبت المملكة السودانية بهذه الحضارة الفرعونية بعيداً عن هذا التأثير الفارسى والإغريقى والرومانى والمسيحى . وإنعدمت الصلة الحضارية وانحصرت حضارة النيل القديمة داخل السودان وانمحت آثارها ومظاهرها من مصر ، إلا من هذه الآثار الباقية التى لم تعد تشد إليها روح المواطن المصرى بعد أن فرضت عليه العبادات الرومانية والمسيحية إلا غيرة ملوك السودان التى لم تقف سلبية عن مصير هذه الحضارة الأم . وقد رأينا فى أوائل القرن الأول للمسيحى محاولة النوبيين لاسترداد طيبة والصعيد مرة أخرى إلا أنهم نالوا ما يستحقون من العقاب والهزيمة فى تلك الدولة الرومانية التى يستطن نفوذها وحضارتها على البحر الابيض المتوسط مما جعل ملوك السودان يوقفون التفكير مرة أخرى فى العودة لمثل هذه المحاولة مع الامبراطورية الرومانية .

ثم ظهرت المسيحية والسودان يتابع الأحداث فى مصر ويشارك فى إيواء المصريين المسيحيين . ثم قبل المسيحية دينا له فى القرن السادس الميلادى وبدأت

الصلاة تقوى من جديد بربط ملوك الممالك السودان بكنيسة الاسكندرية وملوك مصر ، إلا أن هذه البداية لم يكتب لها الاستمرار إذ ظهر عمر بن العاص فى القرن السابع الميلادى وفتح مصر ونشر الدين الإسلامى بين ربوعها وانتشر الجند العرب يحرسون المدينة الإسلامية . . . وصمت السودان إلا من محاولة النوبة وملك دنقلة للوقوف ضد هذا الدين الجديد الذى جاء ليغير ديانة مصر المسيحية بعد أن اعتنق السودانيين المسيحية ولم تمر أكثر من قرن يأتى هذا الدين ليفرض عليهم ديانة جديدة بعد أن عدلوا من عباداتهم الوثنية بالديانة المسيحية مجاراة للتأثير العام الذى حدث فى وادى النيل وأصبحت الديانات الفرعونية غير قادرة على مقاومة تأثير هذه الديانات السماوية .

ووجد العرب السودان الشمالى غير مغرى لبقاءهم لضيق النيل فى تلك المنطقة وشراسة أهله غير ملائم لبقاءهم ولحياتهم البدوية القديمة فغادروا بعد أن ضمنوا سلامة إقامة الشعائر الاسلامية وعادوا وتركوا السودان المسيحى عن مصر المسلمة المسيحية الوثنية .. فالديانات الوثنية القديمة لم تنقرط كلية فى حياة المسيحية حتى ظهور الاسلام ثم عمت المسيحية أراضى واسعة ولم تتمكن من القضاء نهائياً على الوثنية وإذا بالاسلام يظهر على أرض الدلتا والوجه البحرى ، فانقطعت العلاقات بين السودان وبين مصر التى باتت تحت أيدى المسلمين العرب وانزوى حكام دنقلة بعد الهزيمة التى منوا بها فى عهد عبد الله ابن السرج فى حين عاشت الممالك الجنوبية فى خوف من وصول جنود هذه الدولة الاسلامية التى نشرت نفوذها على كثير من الشعوب ولم تحاول الممالك المسيحية فى نباتا أومروى محاربة هذه الدولة العظيمة بل قاد ظهور هذه الدولة فى تغيير عواصم الممالك المسيحية السودانية فانتقلت إلى الجنوب وأصبحت سوبة عاصمة الجنوب وسيطرت على أملاك الدولة القديمة على النيل الأزرق والجزيرة لخصوبة تلك المنطقة من شمال السودان . الأمر الذى قاد لكافة سكان منطقة

النيل الأزرق والجزيرة دون غيره من مناطق النيل التى كانت فقيرة فى السكان بعيدة عن بعضها ، تعداد سكانها بسيط ومبانيها قليلة وتعيش على ضرائب التجارة أما عطبرة فلم تكن موجودة غير خيام بعض الأعراب فى أوائل القرن التاسع عشر يعيشون على الرعى وفى حالة من الفقر والاعتماد على خدمة القوافل التجارية ثم الدامر مدينة المجاذيب وعيشة سكان هذه المناطق .

يقول جون لوبيس بوكهارت الذى زار هذه المنطقة سنة ١٨١٤ م ويمكن من وصفه نتصور حالة هذه المنطقة القليلة السكان إلا على ضفاف النيل قبل ظهور العرب المسلمين ونزولهم فى الشمال وتعمير سهول البطانة وإستطيطان النيل يقول « مقرن (نهر عطبرة) وهو الحد بين إقليم رأس الوادى والدامر . ورأينا السواقى على ضفافه الجنوبية ترفع الماء من البرك ودلنا ترتيب الحقول هنا ونظامها ، ووجود المساقى الصغيرة على أن الزراعة تلقى من العناية قسطاً لا تلقاه فى الأقاليم التى جزناها من قبل » .

« الدامر قرية أول بلدة كبيرة قوامها خمسمائة بيت من السكان وهى نظيفة تفضل فى شكلها بربر لما فيها من مبانى جديدة ولخلوها من الخرائب وفى بيوتها شىء من التنسيق وشوارعها منتظمة وتنمو فى كثير من أرجائها الأشجار الوارفة الظلال ويسكنها عرب من عشيرة آل المجذوب ويردون أصلهم إلى جزيرة العرب وجاهم من رجال الدين أو الفقراء وليس لهم شيخ يتزعمهم بل فقيه يسمونه « الفقيه الكبير » وهو الرئيس الفعلى والقاضى الذى يفصل فى خصوماتهم « وليس فى البلد سوقاً يومية ولكن فيها سوقاً أسبوعية يعرض فيها كل تاجر بضاعته . وذكروا إن المبيع فى الماشية فيها كثير وأن الحصر الدامرية المصنوعة من خوص الدوم تلقى رواجا كبيراً فى البلاد المجاورة كلها » .

أما شندى فيقول عنها بوكهارت (أكبر بلد فى شرق السودان بعد سنار

وكوبى بدارفور ويقول التجار إنها أكبر من عاصمتى دنقلة وكردفان وتتألف من عدد من الأحياء تفصلها عن بعضها البعض الميادين العامة أو الأسواق ، وقوامها ثمانمائة بيت إلى ألف وهى مبنية فوق السهل الرملى على نحو نصف ساعة من الساحل الرملى وتشبه بيوتها بيوت بربر ولكنها أعمر منها بالمبانى الكبيرة وأقل منها ضرائب .

هذا جزء من صورة المدينة والجماعة التى سكنت الشاطىء وسنعود لذلك فى فصل منفصل ولكننا لو أردنا أن نتصور حالة هذه المنطقة والمناطق الأخرى من العمران قبل ألف سنة قبل دخول العرب عليها والتأثير فيها ويظهر لنا إعتماد هذه المنطقة النيلية على الزراعة والتجارة فشندى تتاجر مع بربر ودنقلة وسنار وهى أكبر مركز تجارى وسط السودان وكذلك مع شعوب دارفور ووقوع شندى فى وسط السودان وعلى أرض نيلية خصبة وأراضى زراعية أكثر من الشمال جعل لها أهميتها من قديم الزمان . . . وهذا مايبدوا مارشح مدينة مروى القديمة المجاورة لها أن تحتل هذه المنطقة الغنية بالأراضى الزراعية والصالحة للمرعى المسيطرة على طرق التجارة .

ونعود مرة أخرى إلى حالة الركود والعزلة التى عاشتها السودان فى القرن السابع الميلادى إلى القرن الثامن عشر الميلادى وقد رأينا تأثير الأحداث فى مصر فى العصور الأولى كان له تأثير مباشر على السودان وكانت الممالك السودانية القديمة تحاول أن تكون عاصمتها قريبة من حدود المملكة المصرية ولكن بعد إنفصال مصر ودخول العرب الإسلام فيها ، أن قنعت الممالك السودانية بالزحف لداخل السودان وبذلك بعدت عن أخبار مصر ومشاكلها . . . وقاد هذا الركود والعزلة الداخلة لضعف الممالك المسيحية القديمة وإنقسامها إلى دويلات عديدة داخل السودان الأمر الذى فكك وحدة الدولة القديمة التى كانت تقود الفتوحات . وهذا التفكك آتى لاشك نتيجة لتوسع أفراد الأسر المالكة خلال

الفترة المسيحية ، مما ساعد على ضعف سيطرة الملوك على سكان السودان نتيجة للخلافات الداخلية بينهم . فقد كانت الديانات الوثنية الفرعونية حتى القرن السادس الميلادى تجبر الأفراد على عبادة الملك وتجعله أبن الآلهة آمون وكانت للملوك سلطة روحية على هذه الشعوب لجاءت المسيحية تحرر العقول من هذه السلطة الوثنية وعادت للناس حرية العبادة الأمر الذى كان له أكبر الأثر فى تفكيك الدولة الوثنية بفقدانها سلطانا روحيا قوياً على الناس وبذلك قل ولاء الناس المطلق للملك والعبادات الوثنية ، كما تدخلت الكنيسة فى كشف جانب كبير من الحياة الروحية والعقلية لهذه الشعوب منها حياة الدير والرهبنة وسماعهم لأول مرة مثل هذه الآيات المسيحية :

(١) بالحقيقة نؤمن بالرب . . .

(٢) الله الرب ضابط الكل . . .

(٣) خالق السماء والأرض ما يرى وما لا يرى . . .

(٤) نؤمن برب واحد يسوع المسيح بن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور . . .

(٥) الذى من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا . . .

(٦) الذى ليس لملكه إنقضاء . . .

(٧) نؤمن بالروح القدس الرب المحى . . .

(٨) وننتظر قيامة الأموات وحياة الدهر الآتى .

(٩) ونعترف بمعمودية واحدة لمغفر الخطايا .

مثل هذه الآيات الكريمة من الانجيل كان لها ولاشك تأثير بليغ على التفكير العام عند الناس . فقد كانوا يؤمنون بالاسطوره وألوهية الاصنام والبشر وإذا بهذه الايات تفتح لهم آفاقا جديدة فى التفكير للحياة والآخره وتعيد لهم إنسانيتهم وفرديتهم وحريتهم من التبعية لأى فرد . مثل هذه الأفكار الواردة فى تلك الايات الكريمة . لاشك خلقت نوعا من الانفصال والتمرد وعدم الطاعة وفصلتهم من حياة السخرة لأن طاعة الملك كانت عندهم طاعة الالهة وأرضاءه هو ارضاء الالهة وذا بهذا الدين الجديد يفتح إذ هانهم لعالم الحق وعبادة صحيحة تذهب إلى اله واحد خالق لكل هذا الكون . . . .

كان تأثير هذه الايات ليس وقفا على عامة الشعب ولكن على الملوك الذين أول من آمن بالمسيحية وأنفتح عقلهم لحقيقة الحياة وإنكشف لهم نور الحق ولاشك إنهم تأثروا حتى إنهمرت ادمعهم للتكفير عن خطاياهم السابقة وتسخيرهم للبشر وإقتنعوا بالايمان بمعاملة الناس بالحسنة واللين ومايرضى الله وقلة مطامعهم فى الدنيا وأنشغلوا بالعبادة ومعرفة أسرار هذه الآيات التى فتحت أذهانهم للحقيقة الكاملة مثل هذه الايات (الذى به كان كل شىء) وأيضاً يأتى من مجده ليدين الأحياء والأموات ، وكذلك مثل هذه الصلاة . و محيا البشر الصالح ، سيدى يسوع ، إطلب إليك لاتطرحنى عن شمالك مع الخطاة . ولاتقل ايضا أننى لست أعرفك ، إذهب عنى يامستعد للنار الابدية لا لأنى أعلم بالحقيقة إنى خاطىء . . : أمتحنى يارب توبة كى أتوب قبل أن يغلق الموت فاى فى أبواب الجحيم . . . . وهذه من الصلوات الخاصة بالرهبان التى كثيرا ما كان يسمعها أهل الحاشية ولامكانية البيت المالك دخلت المسيحيه عليهم واثرة فيهم قبل غيرهم فى قلوبهم وتفكيرهم حتى شغلته بخطاياهم وأثامهم والتكفير عنها .

دخلت المسيحية وفتحت العقول نحو الحياة الأبدية والخطايا والغفران

وشغلتهم عن مكاسب الدنيا والفتوحات وقل بذلك انشاط الحياة اليومية لانشغال الناس بالعبادة والخوف من العذاب فى الحياة الآخرى مما شجع لصرف الاموال فى سرعة فائقة لبناء الكنائس والاديرة واحترام الرهبان والمتعبدين وشاركت الخزينة العامة بنصيب وافر فى هذا العمل المفيد فى الاخرة :

ملأ الأيمان بالله قلوب الناس والملوك وأصبحوا يتسامحون حسب وصايا الرب فى كل شىء حتى مع العرب النازحين من الشمال ببشائر دينهم الجديد . وترك لبقية الناس حرية العبادة ولم تفرض عليه الديانة الجديدة وماجاء نقلا عن « جكسن » فى عهد السلطان عبد القادر الذى خلفه السلطان عميرة حوالى ١٥١٧ م أن أهالى جبال موبا وشندى ظلوا يقدمون فتاة كل عام قربانا للآلهة كى لاتمنع عنهم المطر وذلك نتيجة للتسامح الدينى الذى جاءت به المسيحيه .

هذا يكشف لنا الوضع العام للحياة الاجتماعية والحرية التى تمتع بها الفرد بعد دخول المسيحية ورغم إن السودان كدولة موحدة لم يظهر ويهتم بالاحداث الخارجية إلا أن الحركة التى خلقها العرب والاسلام فى الأراضى المجاورة قادت لشل هذه الحركة رغم تعرض السودان لكثير من المناوشات من الشمال والشرق مما قاد لتدهور الممالك السودانية من ظهور ممالك إسلامية جديدة لم تستطيع إخراج السودان من عزلته وتفاعله مع الأحداث نسبة للاضطراب التى عمت الشرق وأفريقيا وسنحاول أن نتتبع الحياة قرنا بقرن حتى يستطيع نملأ هذا الفراغ الذى أوجدته الكتابات التاريخية .

دخلت المسيحية السودان وفن الحضارة الفرعونية فى السودان يتدهور بتدهور الدولة وضعفها ، وإنقسامها وانفصالها عن أرض طيبة وأصبحت الحضارة الفرعونية معزولة عن أرضها الأولى وذهبت تجوب أرض

السودان حتى وهنت قواها ووقفت حركة البناء والتشييد التى هى عماد العبادات الفرعونية وحضارتها .

كانت العبادات الوثنيـة الفرعونية هى الحافز الأول لازدهار النيل بهـذه الحضارة الفنية وهذه التماثيل الجميلة وهذه المعابد العديدة . عرف الإنسان الأول الفن كأجمل شيء يمكن أن يؤثر ويريح الفرد فطور هذا الفن بعد أن أصبحت الآلهة قطعة فنية . فكان لزاما على الفنان الابداع فى خلق هذه الالهة فى أبدع صورة فنية . وكان تسابق الفنانين لأرضاء الالهة والفراعنة والكهنـة هو الدافع الأساسى لهذا التطور الفنى الذى ملأ النيل وفاق حد التصور فى تلك العصور البعيدة حتى تطور وفاق كل الأعمال الانسانية الأخرى .

نشطت حركة الفن فى تلك العصور من جانب مواهب الإنسان الأخرى ولكن الالهة كانت هى اسمى مايتمناه إنسان النيل . أن ترضى عنه الالهة . . وكانت منية الفنان أن ترضى عنه الالهة ليخدمها ويصنع لها تمثالا أو يرضى عنه الملك أو الكهنة باعتبارهما يمثلان الآلهة ورضاهما جزء من رضاء الآلهة . . . وكان الأبداع ضرورة أوجدها هذا الحافز وهذا الحب فانتشر الفن فى كل أرجاء النيل وأصبح عمل التماثيل الكبيرة والصغيرة هواية وأمنية لكل فرد . . . وهذا تكشفه لنا الأعداد الهائلة من التماثيل الصغيرة للآلهة التى خلفتها لنا تلك الحقبة من الحضارة . . . وقد قال المؤرخ الإغريقى هيردوت الذى زار مصر فى القرن الرابع قبل الميلاد أن المصريين يتمسكون بدينهم وعاداتهم لدرجة بالغة ويتلون المراسيم أكثر من أى شعب .

هذا ما قاله هيردوت الذى رأى المصريين وحبهم لعباداتهم وهو تصور بسيط للحالة التى كان فيها الإنسان على النيل . . . فقد كانت العبادات بما فيها

عبادة الآلهة والملك والكهنة هى القوى المسيطرة على طاقة سكان النيل وكان سكان النيل عجينة طيبة فى يد الفراعنة والكهنة لتسخيرهم هذا التسخير وتقديم آلاف الضحايا للقيام بنقل الأحجار الهائلة فى ذلك الوقت الذى لاتوجد فيه الرافعات الحديثة والإمكانيات التى لدى الإنسان الآن .

ظلت الآلهة هى القوى المحركة والمسلطة على طاقة الإنسان وكان الفن هو طلب الآلهة فأبدع إنسان النيل ليرضى هذه الآلهة وقامت المعابد فى سمنة وبوهين والبركل . وبقايا آثار البركل تكشف لنا روعة فن النحت والبناء الذى يكاد لايوجد عند إنسان عصرنا بل يكاد فن النحت لايوجد عندنا الآن لا بتلك الروعة ولا بأقل منها لانحطاط هذا الفن من عصور ساحقة قديمة منذ ظهور المسيحية التى وجدت الحضارة الفرعونية قد وقف نموها فى مصر وغلبت عليها الحضارة الرومانية وحلت محلها إلا من المجاورين للمعابد القديمة والذين حافظوا على عباداتهم الوثنية ولكن رعاية الملك لها وتسخير إمكانيات الدولة المادية للرقى بها قد وقف . وكذلك الحال فى السودان بعد أن سقطت حضارة الفروعنية فى مصر تحت إقدام الحضارة الفارسية والإغريقية والرومانية التى تقلبت عليها . ووقفت عندها حركة التقدم الفنى ، وأصبحت المعابد القديمة كافية لقضاء العبادات وقلت حمية الناس للعبادات بعد أن سقطت مدائن آلهة عباداتهم تحت تأثير عبادات أخرى كما قلت نزعة الملوك لتسخير الناس للبناء والتعمير حتى قلت الأيدى الماهرة ، وضعفت عند الناس الرغبة فى صنع الآلهة بنفس الحماس القديم حتى جاءت المسيحية لتنهى عبادة الأوثان ، وهى تعلن بمذهبها الجديد إيقاف صناعة التماثيل والمعابد ومات فن النحت فى السودان ، وانتشرت الأيدى على طول النيل وانتشرت تعاليم المسيحية تحرم عبادة الأوثان وبذلك وقف فن النحت فى السودان ويمكن أن نؤرخ لبداية وقوف هذا الفن من القرن السادس الميلادى بأيمان ملك علوة بالمسيحية . وبأيمان المسيحية فقدت

العبادات الوثنية ممثلها وهو الملك والذى كان يجبر الناس على إنشاء التماثيل وقيام المعابد . . .

وربما ظل بعض الأفراد على عباداتهم الوثنية يصنعون تماثيلهم الصغيرة ولكن هـــذه الحالة لم تكن كافية للاحتفاظ بالفنون التى نشأت فى حضن العبادات الوثنية .

جاءت المسيحية ولم تؤثر فى الحياة العامة كثيراً مثل تأثيرها على إيقاف تطور الفن جاءت المسيحية وعادات أهل السودان القديمة ما زال منها بقية حتى الآن ولو نحن تابعنا ما قاله هيردوت الذى وصل إلى جنوب مصر فى القرن الرابع الميلادى وما سجله عن عادات وأخلاق أهلها التى لا تختلف فى كثير من عاداتها عن عادات أهل السودان على أرض النيل .

عادات أهل مصر فى العصر الفرعونى

إن معظم اخلاقهم وعاداتهم مناقض تماما لاخلاق وعادات غيرهم من البشر فعندهم نساؤهم الاسواق ويتاجرون ، بينما يمكث الرجال فى البيوت أمام الانوال وبينما يتبع بقية العالم فى النسيج أن تكون اللحمة فوق السداه فأن المصريين يجعلونها اسفلها . كما إن النساء يحملن الاثقال فوق اكتافهن بينما يحملها الرجال على رؤوسهم . ويتناول المصريون طعامهم فى الطرقات خارج بيوتهم ويأوون الى بيوتهم للأغراض الخاصة وحجتهم فى ذلك أن العمل غير اللائق والضرورى فى وقت واحد يجب أن يتمم فى سرا أما الامور الخالية من أى شيء غير لائق والضرورى فيجب أن تحدث فى الطرقات علنا ومحظور على المرأة الاشتغال باعمال الكهنة سواء للآلهة أو للربات فى حين يقوم الرجال بوظيفة الكهنة لكليهما ، ولا يلزم الابناء بكفالة والديهم الا باختيارهم — أما البنات فلزمات بذلك سواء كان هذا برضاهن أو على كره منهن .

يطيل كهنة الدول الاخرى رؤوسهم أما كهنة المصريين فيحلقون رؤوسهم ومن العادة فى جميع بلاد العالم أن يحلق الناس شعورهم حداداً على الاقارب اما المصريون الذين من عاداتهم أن يحلقوا رؤوسهم فى الحالات العادية فيتركون لحاهم وشعورهم ورؤوسهم تطول عندما يموت قريب لهم ويعيش الناس فى البلاد الآخرى بمعزل عن الحيوانات ولكن المصريين يعيشون دائما مع الحيوانات وتتغذى الشعوب الاخرى بالشعير والقمح بينما يعتبر المصريون ذلك عارا أى عار ويتغذون بالذرة الهندية التى يطلق عليها البعض اسم زيا ويعجنون الدقيق بأرجلهم أما الطين فيخلطونه بايديهم كما يحملون القاذورات والتراب بأيديهم ايضا وهم الشعب الوحيد فى العالم الذى يعرف الختان ومن يعرفه من الشعوب الآخرى

فقد تعلمه من المصريين ويلبس رجالهم ثوبا من قطعتين إما ثوب النساء فمن قطعة واحدة كما يلبسون الخواتم ويربطون حبال الاشرعة من داخلها إما غيرهم فيربطها خارج الشراع . ولا يكتبون كالاغريق من اليسار إلى اليمين بل من اليمين الى اليسار ورغما من هذا يصرون على أنهم يتجهون نحو اليسار ويتخذون نوعين من الكتابة ويطلقون على أحدهما اسم « المقدس » وعلى الثانى اسم « المادى » .

ويتمسك المصريون بدينهم الى درجة بالغة ويتلون المراسيم اكثر من أى شعب آخر ويتبعون هذه المراسيم ثم يشربون فى أقداح نحاسية .

ويجلونها كل يوم ولا يشذ عن هذه العادة أحد قط فيلبسون ثيابا من التيل يحافظون دائما على أن تكون منسوجة حديثا ويزاولون الختان بقصد النظافة مفضلين أياها على حسن المظهر . ويحلق الكهنة جميع جسمهم كل يومين حتى لا يعلق به القمل والاقذار الاخرى . وهم يقومون بخدمة الالهة . وثيابهم كلها من التيل وأحذيتهم من نبات البردى ولا يصلح لهم أن يرتدوا ثيابا أو أحذية من مادة أخرى غير هاتين ويستحمون مرتين يوميا بالماء البارد ومرتين فى كل ليلة وعلاوة على هذا العادات لهم الاف من العادات الأخرى .

وقد استرعى هيرودوت عدم تعفف الفلاح المصرى فى السكن مع أغنامه . وجميع روثها بأيديه والاستفادة منه وخلط الطين بأيديهم . كما قال أنهم الشعب الوحيد الذى يعرف الختان وهذه العادات التى مرت عليها آلاف السنين تكاد تجدها عند الفلاح المصرى ، وعند معظم سكان السودان إن كان خاصاً بالختان الفرعونى الذى ما زلنا نحتفظ به فى الأقاليم أو غيره . وهى لا تدرى ما هو تاريخه أو ماضيه .

بقاء معظم هذه التقاليد القديمة والتى لا تساير التطور ولا تعاليم الأديان . تكشف لنا عن حقيقة هامة وهى أن إنهزام الحضارة الفرعونية لم يكن إنهزاما لكل عاداتها وأخلاقها . . كما يكشف لنا أن تعاليم الكنيسة التى دخلت قبل الإسلام لم تمكن بالتوسع والانتشار حتى تطور تلك العادات والتقاليد . وكان يجب أن يحدث هذا . أن نضيف الاديان إلى حضارة الشعوب ثقافة وفكرا وبعثا ، والذنب ليس ذنب المسيحية أو دعاتها أو رساها الذين دخلوا السودان ولكن ظروف هذه الدعوة فى السودان والأحداث الخارجية فبعد قرن من دخول قبابها للسودان وظهر الإسلام ناسخا لكل الديانات ، وأصبحت مصر دولة إسلامية ، وانعزل السودان عن حركة المسيحية فى العالم حيث كان لها سند عالمى لنشرها والدعوة لها بعد أن استقرت فى شرق البحر الأبيض واعترفت بها قياصرة الروم .

جاء الإسلام إلى أرض النيل والمسيحية ما زالت فى مهدها فى السودان تمارس تعاليمها بصعوبة فائقة ، فكتبها باللاتينية والقبطية بخلاف لغة أهل السودان وكتبهم المروية القديمة . وتخريج رهبان من أهل السودان كان يتطلب زمنا ليس بالهين ودخول الدعوة المسيحية عليهم ليس بالأمر اليسير ، ولكن رغم ذلك لأيمان ملوك دنقلة وعلوة بالمسيحية ، توسعوا فى إنشاء الكنائس وقامت الأديرة بجوار الكنائس . لكن الدير فى السودان حسب ظروف دخول المسيحيين لم يجذب الناس اليه كما كان فى مصر . فقد اضطهد المسيحيون فى مصر حيث دفعهم الاضطهاد لاخذ اسلوب خاص فى العبادة . . اما فى السودان فقد دعى ملوك علوة ودنقلة لهذه الديانة . فكان أمرهم اصعب لنشر الدعوة ثم ترغيب الأفراد فى أخذ حياة الدير كنوع من السمو فى العبادة .

عملت الديانة المسيحية على تحرير العقل السودانى من تسلط الملوك

والكهنة والعبادات الوثنية وفتحت له الحياة من جديد ليأخذها بمفهوم جديد بخلاف ما توارثت عليه الأجيال . ولكنها عجزت أن تقف بجانبه وتسد له هذا الفراغ الكبير الذى حدث فى عقله بعد عبوديته لتلك الأوثان والتفكير فيها لم تكن إمكانيات المسيحية بالقدر الذى يتيح لها أن تعلم الناس جميعها تعاليمها أو اللغة الجديدة التى جاءت بها الديانة .

* * *



أحد أفراد قبيلة الشكل التى امتد نفوذها فى العصور القديمة إلى أرض الجزيرة . .

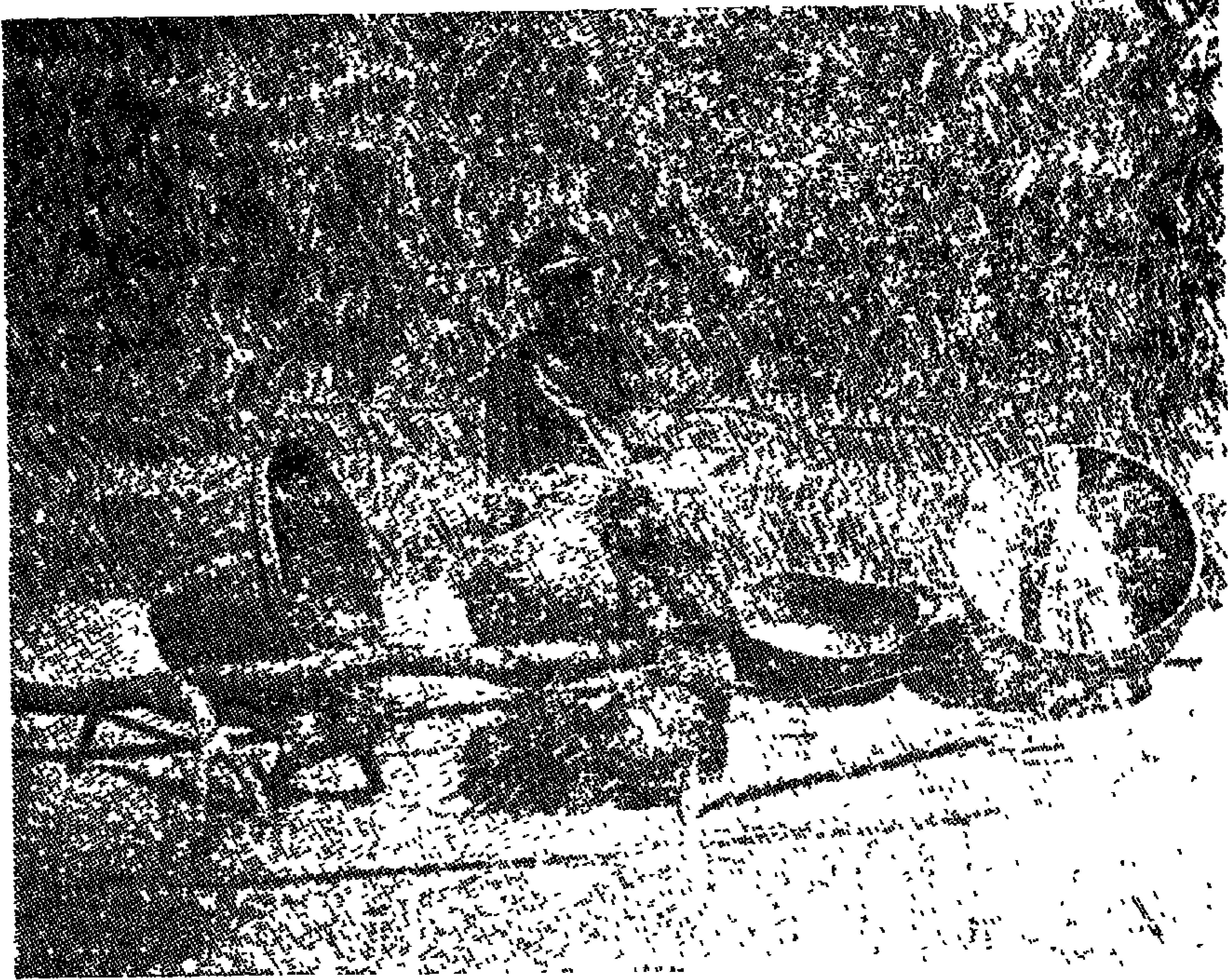
الزينة كانت من أجمل الأشياء المحببة إليه . تكشف عن طبع رقيق رغم الصرامة البادية عليه .



التقاليد الافريقية عريقة قديمة لها قداستها واحترامها . . أفراد من قبيلة الشلك في زيارة لاحد القرى . . يجلسون خارج القرية قبل دخولها .



استخدام الألوان والحركات الرياضية استعداداً للحرب والرياضة.



يد الانسان كلما لمست شيئاً جعلته جميلا . والإنسان بطبعه لا يترك الطبيعة كما هي . . أنظر إلى أدواته المنزلية ومحاولة الشئك خلق شيء مقبول الشكل .

الكنيسة وماقدمته للحضارة فى السودان

وقبل الاجابة على هذا السؤال يجدر بنـا العودة إلى نشأه الكنيسة فى الاسكندرية ووادى النطرون ومملكة نوباديا ونشأه الأديره والنظم الكنيسيه فى مصر والعالم الذى استنار بخبرتهم وتعاليمهم .

بعد الاضهاد الذى وجده المسيحيون بمصر ومحاربة أباطرة الاسكندرية وقياصرة الروم للمسيحيه وقتل كل مايعتنق هذه الرسالة التى تخالف تعلم أباءهم وآلهتهم لجأ معظم المسيحيون إلى الجبال والوديان والكهوف للعبادة واتشف سالكين فى ذلك مسلك المسيح وحياة الوحده والصوم والصلاة جعلتهم مثلا يحتذى به بين الافراد المسيحيين وأوضح ذلك فى رسالة بولس الرسول إلى الكورنثيين حيث تضمنت رسالته إليهم تفصيله لهذا النوع من الحياة وإن لم يكن أمرا لهم ولكنهم كان دعوه لأفضل الطرق للحياة المسيحيه كما تصورها حين قال (إنى أريد أن يكون جميع الناس كما أنا (أى اعزب) ولكن لكل واحد موهبته الخاصة من الله الواحد ، هكذا والاخر هكذا ولكنى أقول لغير المتزوجين وللأرامل أنه حسن لهم اذ لبثوا كما أنا - اذن من تزوج حسنا يفعل ومن لايتزوج يفعل أحسن .)

وبهذا المفهوم للعبادة خرج المضطهدون فى المسيحية من المدن المصرية إلى الصحارى والجبال ولم يكن فى خلدهم إنهم بهروبهم هذا واتجاههم للوحدة من الظلم والبطش والعيش على الكهف سيخطون المبادىء العامه للحياة المسيحية وحياة الكنائس فى المستقبل .

وقد كثر عدد الرجال المحتمين بالجبال يؤدون صلاتهم وصومهم وشعائرهم

الدينية كل فى ادى منفرد بعيداً عن الآخر .

وقاد الضغط والارهاب إلى إزدحام هذه الأودية ومنها وادى النطرون وجبل نتريا وسليا وبرية شيهيب والصحراء الشرقيه وسينا والصعيد حتى وجد هؤلاء النساك الذاهدون فى الحياة فى وقت ما أنهم قد ملأوا الأودية والصحارى وأصبحوا يسكنون فى عششهم قرب بعض دون أن يجتمعوا حتى بلغت شهرة بعضهم فى النسك والعبادة أن دفعت بالكثيرين الذهاب إليهم لتعليمهم حياة النسك والوحده والعباده . وكانت هذه أول خطوة لميلاد تعاليم النسك والرهبنة فى العالم وأزداد عدد المسيحيين الهاربين كما راجت سيرة هؤلاء النساك من الذين بذوا الاخرين فى هذا السلوك وجعلوهم مثلا أعلا للراغبين الذين إلتفوا حواليهم طلباً للتضحية والارشاد لترويض الجسد على تحمل الجوع والتقشف ونكران الذات والشهوات الجسدية .

وكان وادى النطرون هو أول مدرسة يجتمع فيها هؤلاء التلاميذ حول المشائخ من النساك ليخطوا تعاليم المسيحية ومستقبلها .

ومما يذكر إن القديس أنطونيوس (٢٥١ — ٣٥٦ م) هو المنشىء الحقيقى للنظام الرهبانى بعد أن مهد له ماسبقه من النساك .

فقد ذهب الشاب أنطونيوس إلى الكنيسة فسمع الكاهن يتلو من الانجيل ، ولكن آية واحدة وقفت فى نفسه وملكت عليه فكره وهى (إن أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع كل مالك وأعط الفقراء وتعال أتبعنى فيكون لك كنزا فى السماء) فما كان منه إلا أن عمل بما جاء فى الآية وباع ممتلكاته وقسمها للفقراء وخرج إلى مكان قريب من قريته وبنا له كوخاً إلى جوار الشاطىء يدرب نفسه

على حياة النسك والعزلة . . ولكنه لم يقم بهذه المنطقة طويلا لوجود كثير من النساء بالقرب منها . فرحل إلى المقابر ثم فى حصن بجهور فى منطقة بسبير على الضفة الشرقية على النيل . . وكان يمده بعض الناس بالخبز الجاف ثلاث مرات فى العام دون الاتصال به وجذبت شهرة القديس انطونيوس كثير من التلاميذ اليه ولكنه لم يقم فى هذا المكان طويلا وقد أشترك وتشجع المستشهدين والمسجونين الذين لمعوا حتفهم - بين هدمت الكنيسة وأتى المسيحيون أكبر مجازر القتل والاستشهاد ثم ارتحل القديس إنطونيوس إلى الصحراء الشرقية - وهنالك بجانب الصحراء والوحده شغل نفسه بالزراعة . . ووجد القديس أنطونيوس بعد زمن وجيز أن المنطقة قد امتلأت بالعشش والأكواخ من تلامذته الذين لم يردا أن يبعدوا عنه . . فاضطر إلى الرضوخ لرغبتهم ليذودهم من تجاربه فى حياة النسك والوحدة وهكذا كانت المسيحية فى مرحلتها الأولى هو إكتشاف الأسلوب المناسب لترويض الجسد والروح للعبادة ، فرضته ظروف الظلم والاضطهاد الرومانى للمؤمنين ثم طور هذا النظام الراهب بياخوسيوس الذى إشترك فى الحملة التى جردها الامبراطور قسطنطين لإخضاع والى الحبشة المتمرد . ولما عاد بياخوسيوس من الحملة ذهب إلى قرية تابنيس قرب قرية قنا وما لبث أن اجتمع الرهبان حوله وبدأت لأول مرة حياة الشركة الجماعية للرهبان وحاول بياخوسيوى إلى خط تعاليم ونظام لجماعته . وسمى المكان الذى أجتمع فيــه جماعته من الرهبان باسم الدير . وفى داخل الدار وضع لهم بياخوسيوى نظاماً دقيقاً لحياه الرهبان وأول هذه الواجبات الطاعة العمياء للرئيس . ووسع هذا الدير حتى وصل عدد الرهبان به إلى الفين وخمسمائة عاشوا حياة جماعية لأول مرة فى حياه المسيحية وبدأ التوسع فى الاديرة على نظام هذا الدير الأول .

ونظم الانباء بياخوسيوس الخدمة فى داخل الدير بين جماعته كل حسب قدرته الجسمية منهم الخبازين والطباخين والسفرجية والخدامين والبوابين من الشيوخ

الورعين، وبيت للضيافة يشرف عليه راهباً ورعاً يستقبل الراغبين فى حياة الدير وحتى يمتحنون ويثبت صلاحيتهم لهذه الحياة فى فترة أختبار لمدة ثلاث سنوات وجعل لكل دير راهباً مشرفاً مالياً عليه

ودخلت الدير اللغتين القبطية والأغريقية حتى تيسر للمجتهدين الاطلاع والدراسة حتى تؤهلهم لمراكز قيادية فى حياتهم الدينية والعلمية وظهر كذلك دير النساء وقد تكون من اخوات هؤلاء الرهبان الذين حاولوا أن تشارك المرأة في هذه الحياة الديرية حتى تسمو بتركها لمدات هذه الدنيا من أجل الحياة الاخرى ..

أما الحياة الداخلية للراهب فكان معناها الفقر والتقشف حيث تقول الاية (انظروا إلى طيور السماء فأنها لاتزرع ولاتحصد ولاتخزن فى الاهراء وأبوكم السماوى يقوتها)

وقول السيد المسيح فى الاغنياء الحابسين أموالهم عن فعل الخير .. (دخول جمل من ثقب إبرة إيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت السموات) وكتب بولس الرسول ينصح العبرانيين « لتكن سيرتكم خالية من محبة المال وكونوا مكتفين بما عندكم .. لأنه قال لاأهملك ولا أتركك) ولكن هذا الكراهية للمال وتكديسه لم تحافظ عليه الكنيسة فى العصور التى تدخل فيها التاج فى أوربا فى ترشيح رؤساء الكنائس ودخلت الكنيسة مرحلة الإقطاعيين فى العصور الوسطى كما كان فى أوربا وكنيسة الحبشة أما فى السودان فلم تتطور الكنيسة لهذا الوضع الأقتصادى ورغم أنها يبدو كانت فى حالة مالية حسنة بالنسبة لعدد الكنائس التى قامت فى شمال السودان ومدينة سوبه التى وصلت فيها إلى عدد هائل ومبانى جميلة ورائعة .

وتقضى الحياة اليومية عند الرهبان وهى الأساس لتطوير الفكر الدينى وتأثيره على المجتمع بالقواعد الاتية :- ومن اولهذه الواجبات الصمت والانفراد والصلوات ويقول النظام الذى وضعه القديس مكاريوس الكبير (إذا بلغت الساعة الثالثة (حوالى الساعة التاسعة صباحا) فقف قدام الصليب وأجمع افكارك فى فهم القراءه التى قرات وأسجد بتخشع لربنا بوجع ودموع ، ليعطيك فهم مزمور داود وإذا أبتدأت بالقرأه فلا تستعجل بل أغص المعرفة الخفية فى المزامير وإذا إكملت صلاة الساعة السادسة كالعاده والقانون الموضوع عن الاباء أقرأ كتاب الآباء إلى الساعة السادسة (منتصف الليل) وأفهم ماتقرأه ثم ضع الكتاب وقدم التسبيح وأسجد قدام الصليب وأنظر بعقلك إلى يسوع المسيح ومن السادسه إلى التاسعه (الثالثة بعد الظهر) إن كان لك عمل يدوى فأصنع ماتريد ولا تترك قانون المطانيه (السجود ، من أجل عمل يديك لان الاباء عملوا فى الفلاية بمخافة الله من غير شره)

ومن هذا يتضح لنا إن الصلاه والصمت والتفكير والتأمل والانفراد كانت من أهم واجبات الراهب وعدم شغله بالحياة العامة ... إنما التفكير فى الخطية الكبرى ومحاولة سبع حيـاة تأملية شغلت الرهبان عن مجريات الامور خارج عالمهم والمشاركه فيه وعدوا نفسهم أفضل العباد بهذا السلوك وما يعنينا فى هذا . السلوك هو التوسع فى التفكير الدينى الفلسفى أما عدا ذلك فقد كانت الصلوات والمزامير أفضل منه .. والكتب الدينية كانت أفضل منه دونها من الكتب ولذلك كانت مكتبات الإديرة فقيره من الثقافة العامة وأمتلأت بالكتب الدينيه وهذا لاينفى وجود الكتب التاريخية والادبية ولكنها لم تكن تجذب الرهبان مثل الصلوات والمزامير الا للذين أرادوا أن يتزودوا من معارف الدنيا وأنشغلوا بأمور علمية داخل الاديرة وشغفوا فى حبهم للعلم للاستقطاع من وقت صلاوتهم للاطلاع والقراءة . الأمر الذى أخرج من الكنيسه الاوربية فى

العصور الوسطى رجالا منها ذو فكر ثاقب ثاروا على جمـــود تعاليمها وخضوعها للملوك أوربا وثورتهم على موقف الكنيسة من مشاكل العصر حين تعرضت الشعوب الاوربية لظلم وبطش الأمراء والملوك والاقطاعيين فى أوربا ورأت الكنيسة أن عذاب الجماهير نوع من الرياضة والتكفير عن الخطايا وأنه مفيد للحياة الانسانية المليئة بالخطية ولم ترى فى جرم الاقطاعيين غير تركهم لعقاب الاخره ولم تحاول أن تقف موقفاً إيجابيا لايقاف هذا الظلم الأمر الذى قاد لظهور موجة الالحاد فى القرن الثامن والتاسع عشر باتخاذ . . الكنيسة الخاضعة لسلطان الملوك الاقطاعيين هذا الاسلوب السلبى من الجياع والمشردين والمعذبين من بنى الانسان فى حين تعيش هى التى تدعو للتقشف حياه اقطاعيه ونسيت الآية التى تقول : (لاتحبوا العالم ولاشيئاً مما فى العالم فمن أحب العالم فليست فيه محبة الله) وأسكتوا الجياع والعبيد بهذا المفهوم ولم يحاولوا هم أن يتجردوا من اقطاعيتهم ولم يحاولوا أن يجردوا الاقطاعيين من أملاكهم ويقنعونهم ببطلان الحياة .

المسيحية فى السودان

كان لرهبان وادى النطرون أثر كبير في حياة المسيحيين

كانت الفترة من القرن الاول لظهور المسيح إلى القرن الخامس والسادس فترة خصبة فى حياة مصر بين صراع المسيحية وعداوة القياصرة الرومان وبين اصرار رواد المسيحية الاوائل وتحملهم العذاب والصمود أمام التعذيب والتشرد وضرب أروع الأمثلة فى الإيمان والتقشف والتواضع وسلوك روادها الاوائل الهادى المتواضع جعل لهذه الديانة قوه سحرية بين عامة الناس وبين التضحيات التى قدمها أبناء الاغنياء من الاسراره الكبيره ولبسهم الوبر والخيش والصيام عن الأكل وتحمل العذاب كل تلك الصور كانت تسبق المسيحية إلى الأراضى التى لم تظهر فيها وقدم الاقباط فى مصر لهذه الديانة أروع الامثلة وخرج منهم نفر كان له الأثر الكبير فى الدفاع وبقاء هذه الدعوة على أرض النيل .

ظهرت المسيحيـة فى مصر وهى توزخ تحت بطش قياصرة الروم وأنتشار ديانتهم وحضاراتهم وسلتطهم تملاء أرجاء مصر . ظهرت هذه الديانة والرومان معتزون بمجهدهم وحضاراتهم وفنونهم وآلهتهم قد أثرت هذه الديانة التى جاء بها رجل اسيط . بسيط فى كل شيء فى ثيابه ومساره وحديثه وأفكاره وأمثلته جاء هذا الذى يشبه الراعى لحطم آلهـة هؤلاء المغـرورين بديانتهم وآلهتهم . . . هؤلاء الذين كانوا يظنون أنهم أسياداً على كل الدنيا وأنهم أفضل المجموعات ... يتجرأ رأعى بسيط ويقيم ديانة جديدة تدعوا إلى آلهة غـير الهتهم ويجرؤ إلى تحطيم الهتهم وعدم الاعتراف بها . . وبهذا المنطق صب قياصرة الرومان جام غضبهم وبطشهم على كل من يجرؤ للاقتراب من هذه الديانة الجديدة . ولكن

الرسالة كانت أقوى من بطش القياصرة والايمان بها كان يسعد بالتعذيب . . .
كانت مثل هذه القوة لمقابلة تصال للمسحيين من البسطاء الارقياء كافيا لخلق أروع أمثله الاستشهاد . الصبر على الاذى ورفع المؤمنين درجة عاليه من الايمان والأعجاب بين عامه الشعب .

أحتلت مصر وكنيسة الأسكندرية ورهبان وادى النطرون مكانة ساميـة فى تاريخ المسيحية . وكان لهم فضل كبير فى حفظ المسيحية بعيداً عن بطش قياصرة الروم فى أقصى الظروف حتى وضعوا لها من التقاليد ما بات منهجاً حتى اليوم وجزءاً من تعاليم المسيحية كما اضاف رهبان وادى النطرون فكرة الدير فى حياه الكنيسة وادخلوا دير الراهبات وكذلك لعبوا دورا كبيرا فى الصراع الكنيسى الذى قام بين كنيسة الأسكندرية وكنيسة القسطنطينية وكنيسة روما حتى كان هذا الصراع سبباً كافياً لجذب الانتباه للمسيحيه والتفكير فى هذا الصراع الذى دار بين كنيسة القسطنطينية التى أدعت أن المسيح على لسان نسطوريوس أسقف القسطنطينية فى تلقيبه للسيدة العذراء بوالدة الالهـة وأن المسيح شخصان متباينان يعمل كل منهما مستقل عن الاخر أحدهما آلهى وثانيها إنسانى فتصدى لانسطوريوس الأنبا كيرلس الأول بابا الأسكندرية الرابع والعشرين وأعلن فى توكيـد أن المسيح شخصية متكاملة جمع فيها بين اللاهوت والناسوت جمعا لا إختلاط فيه ولا إمتزاج ولا تغيير ووقف بجانب الانبا كيرلس رهبان وادى النطرون

وخرج الرهبان من المعتصمين بالجبال والأوديه للدفاع عن عقيدتهم وارتفع شأن مصر وعلى أسم رهبانها بين كنائس العالم وأصبحت مزاراً لرهبان البلدان المختلفة وخرج منها رهبان إلى كل الشعوب أثروا فى منهج المسيحية وسلوك روادها وابتدعوا لهم المثـل الأعلى لعبـادة الدير وأعطوهم من تجاربهم الكثير .

وقد كان صعيد مصر وواحاتها ملجأ للرهبان من أيدى البطش والتنكيل وظهر الرجال البسطاء العزل المتقشفين بين السفوح والوديان بين القبائل النائية . . فكان منظر هؤلاء الرهبان حافزاً كبيراً لجلب كثير من الانصار للمسيحية . . وكسب عطف الناس على هؤلاء المساكين ...

لقد كانوا فى حاجة لكل عون إنسانى وقد أحبوا الله فى أجمل صورة . . . ولذلك لم يجدوا أى معاملة قاسية من الجماعات التى ينزلون عندها أو يقابلونها ووصل منهم البعض لشمال السودان فقد كانت مملكة نوباديا شمال دنقله مركزاً هاما من مدارس الرهبان .

لقى المسيحيون الكثير على أيادى قياصرة الاسكندرية وابيد المسيحيون بمجموعات كبيره وكأن الهروب هو الوسيلة الوحيدة لهم ولما كان شعب السودان له ذا علاقة طيبة بهم لم يضطهد الفارين من مجازر القياصرة وما فعله الملك دوقيوس قيصر عام ٣٤٩ م من مجازر ومطاردة للمسيحين والرهبان كفيل بأن يضطر هؤلاء العزل للهروب إلى الوديان والجبال والكهوف حتى اراحهم الله من هذا العذاب باعتناق قسطنطين الأكبر ٢٩٥ م. للمسيحيه وجلعاها دين الحكومة بعد بطش الامبراطور دقلديانوس ٢٨٤ م بأهل مصر لتمرد والبها عليه فقفل الكنائس وأحرق الاسكندرية واجبر الناس على عبادة الاصنام وعرف عامه بتاريخ الشهداء وهو تاريخ السنة القبطية .

وأثر رهبان مصر فى نشر المسيحيه وخرجو إلى كثير من بقاع العالم بعد أن عمت المسيحية مصر وأصبحت دين الدولة ومن هؤلاء الرواد الرهبان الذين تتلمذوا على رهبان وادى النطرون القديس أوغسطين الذى ترك روما عام ٣٨٨ م قاصداً شمال أفريقيا ونشر الميسحية فى الحبشة والشاطىء الأفريقى .

وأول ما أسسها بمدينة هيبو حيث عين قساً لها عام ٣٩٦ م خط الحياة الرهبانية وبعث المسيحية بين شعب شمال أفريقيا ونقل اليهم نظام الدير للرهبان والراهبات حتى كان زمن بسيط عمت المسيحية شرق أفريقيا والحبشة .

وقد ظل السودان بعيدا عن هذه الدعوة إلا من التجأ اليه من المسيحيين حتى ظهرت المسيحية بين سكان النوبة وشمال السودان .

وأخذ الصراع المسيحى يقل بعد أن أصبحت المسيحيه دين الدولة بين مذهب كنيسة الاسكندرية الأرثوذكسية ومذهب كنيسة روما ... وكان من مظاهر هذا الصراع تنافس الامبراطور جستنيان (٥١٧ - ٥٦٥م) وبين زوجته ثيودورا التى كانت تتبع للكنيسة القبطية . فقط سمعت أن زوجها قد كاف البطريك تيودوسيوس لنشر مذهب كنيسة روما فى أرض النوبا والسودان وحيث كانت الكنيسة القبطية هى صاحبة الشأن فى مصر .. علمت ثيودورا بنوايا زوجها وأتصلت بالاسقف لونجينيوس ليكون أسقفاً على بلاد النوبة وينشر المذهب الارثوذكسى قبل وصول البطريك (ثيودوسيوس) فى عام ٥٦٩ م

وقد نجح رسول الملكة ثيودورا فى الوصول إلى النوبة قبل صاحبه حيث قفل الطريق أمامه للتقدم فى أرض النوبة .. وقد وجد هذا المذهب الارض ممهدة لقبول هذه الدعوة فقد كان رواد الكنيسة الاوائل يجوبون هذه المناطق وكانوا يلجأون اليها للاحتماء بها بجانب اخبارهم التى وصلت إلى هذه المناطق وأستعد الناس لقبول هذه الديانة الجديدة وهم يرون ديانتهم الفروعونية قد طمستها الديانات الرومانية ثم جاءت هذه الديانة الجديدة بصورة غير التى ألفوها وسمعوا بأنتشارها بين سكان مصر . . . فقلت عصبتهم لديانتهم القديمة وباتوا فى إنتصار هذه الدعوة الجديدة ... وقد كانت شخصيات هؤلاء الرهبان هى الدعاية

الطيبه لهذه الديانة بين هؤلاء القوم الوثنيين عباد آلهة الفراعنة ، وكما نجح أوغسطين فى (بيو) ، وانتشار المسيحيين فى الحبشة نجح هؤلاء فى شمال السودان وقد اعترض حكام المقرة لونجينيوس مبعوث المذهب الأرثوذكسى حتى أضطر إلى الابتعاد عن النيل وسلك طريق القبائل البجاوية فى الشرق حى وصل إلى مملكة علوة وعمد ملكها وأفراد أسرته وحاشيته عبادا للمسيحيه .

أنتشرت المسيحيه فى مصر على أكتاف عامة الناس وقد إشترك الاقباط فى نشرها وظهور المذهب الارثوذكسى .. وحيث كانت اللغة الاغريقية لغة الأنجيل فقد كان تعلم هذه اللغة ليس متسراً للكثيرين ولكن إنتشار هذا الدين المسيحى دفع لتعلم هذه اللغة فى حين حلت اللغة القبطية فى نشر هذه الرسالة .. وبهذه اللغة أدخلت المسيحية السودان وأصبح تعلم هذه الديانة والتعمق فيها يتطلب تعلم هذه اللغة واللغة الإغريقية الأمر الذى كان شاقاً على السودانيين...

وكانت مهمة تعليم الرهبان من الافراد السودانيين فيه ، كثير من المشقة ويبدو أن هذه الدعوة لم تقف امامها هذه الصعاب فانشأت الكنائس بعد إيمان ملك علوة والمقرة وحكام الأقاليم فى شمال المقرة وجنوبها حتى حدود مملكة علوة وأرض الجزيرة وقامت الأديرة التى كانت المدرسة الأولى للحياة المسحية وتخريج رواد صبورين ذاع شأنهم فى الفيافى والسهول وظلت المسيحية تتقدم فى السودان وتجد المساعدة من تنافس كنيسة الاسكندرية وكنيسة روما وأرسال المبعوثين من لرهبان وتعميد بطارقتها حتى دخلت مصر فى الفتح الاسلامى بدخول عمر بن العاص إلى القسطاط عام ٦٤١م ودخل الاسلام منافساً حديدا للديانة المسيحية . فآمن معظم الناس بالرسالة الحديدة التى كفلت حرية الديانة المسيحية وأعطى عمر بن العاص الضمان لبطريق الاسكندرية وعدم التعرض لكنائسه ورعاياها وقدم لهم المساعدات ... ولكن هذا الدين المنافس الجديد الذى ظهر فى الجزيرة العربية ووصلت أخباره إلى شعب مصر والروايات التى وصلت عن النبى عليه الصلاة والسلام جعلت عدداً كبيرا من الذين لم يؤمنوا بالمسيحية يميلون إلى هذا النبى الجديد الذين لم يفقهوا الإنجيل يميلون إلى هدا الدين السهل البليغ .

كان دخول الاسلام مصر يعنى الحد من تقدم المسيحية والاحتفاظ بمواقعها كما يقولون وزحفت القبائل العربيـــة وخرج الرومان من مصر وابتعد شبح الامبراطورية وقلة سيطرة الدولة فى نشر الديانه المسيحية واقام عمر بن العاص جامع عمرو وأقيمت الجوامع فى المدن الكبرى ودخلت مظاهر الاسلام على ضفاف النيل وزهد الرهبان فى هذه الأرض المجهولة وفضلوا العمل فى أديرة غرب أوروبا وآسيا حيث فقدت المسيحية مسانده الدولة وتعضيدها رغم إنها لم تقف معارضة منها .

وبذلك دخل السودان فى المسيحية فى القرن الثالث والرابع والخامس فى شكل رهبان هاربين او افراد لاجئين حتى كان القرن السادس فتقبلها حاكم علوة والمقرة .

ولم يمض قرن حتى دخل الاسلام مصر واقفاً أمام توسع هذه الديانة بالدعوة للاسلام والأيمان بسيدنا محمد عليه السلام خاتم المرسلين . .

وبدخول الاسلام إلى مصر زحف العرب على النيل وأرسل عمر ابن العاص قائده عقبة بن نافع عام ٦٤١ م لاخضاع النوبة وقد قابلته النوبة بالقوة ولم يستسلموا له حتى عقد الصلح بينهما ولكن عادت النوبة المسيحية مرة أخرى للتمرد على عهد عبد الله بن السرح فزحف جيش المسلمين عليها ولم يكتفى هذه المرة بتهديد المسيحيين من النوبة المجاورين لحدوده الجنوبية بل وصل إلى عاصمة النوبة المسيحية دنقله وحاصرها وضربها بالمنجنيق عام ٦٥٢ م حتى أستسلم ملكها قليدوروت وعقد صلحاً بين الطرفين لم يمس عباده النوبيين ، كما أنه ضمن سلامة حياه المسلمين الذين يعتنقون الاسلام فى أقامة شعائرهم .

. . . بعد الانتقال إلى تتبع حياة العرب فى السودان بعد ظهورهم فى مصر وأفريقيا يحق لنا أن نلتمس أوجه النشاط الثقافى والحضارى فى هذه الفترة وما تركته الحضارة الفرعونية والمسيحية . كما رأينا دخلت المسيحية السودان دون حرب أو فرض عليها وكان دخولها تصاحبه بعض الفتيات منها اللغة القبطية واللاتينية لغة الاديرة التى جاورت الكنائس التى قامت بكثرة وبسرعة على طول النيل فى صادقا ودنقله والدبة وهروى وكورتى وشمال كريمة عند الشلال الرابع وأنتشرت المسيحيه حتى وصلت مملكة سوبا التى قامت فيها أعداداً هائلة من الكنائس الجميله الرائعة .

دخلت الأديرة السودان وأحتلت ابنية المعابد الفرعونية القديمة وكذلك قامت بعض الكنائس على بقايا هذه الاعمده والمبانى القديمة التى لم تعد صالحة للعبادة الفرعونية . .

وباشرت المسيحية رسالتها فى نشر الدعوة وتعليم الناس رسالة المسيحى فى الحياة إلا أن الزمن لم يمهل هذه الكنائس أكثر من قرن حتى دخلت مصر جيوش العرب المسلمين وبذلك ضاعت عليها فرصة تطورها وازدهارها كما كان فى الحبشة بل إنكمش رهبانها داخل أديرتهم ووقف تطورهم العلمى وانشغل الناس عنها بالدخول فى الدين الجديد الذى بات ينافسها و أرضها وفقدت الكثير من العطف والمساعدات التى كانت تلقاها من المواطنين وربما فقدت بعض أراضيها التى إقتطعتها لنفسها لعبادة الرهبان وعملهم وكاملاك للكنيسة كما كان شائعاً فى ذلك العصر بأن تمتلك الكنيسة اراضيها الشاسعه وتستغل دخلها للصرف على الرهبان وأوجه تقدمها وشئونها المالية .

بعض الاثار من المخطوطات التى وجدت قريباً من المساجد التى كانت كنائس

اكتشف أنها مخطوطات من الأنجيل باللغة القبطية كما أن الرسومات التى وجدت على صدارة الكنائس تكشف ان الروح القبطية كانت هى الغالبية على الكنائس وأن لم يمنع ذلك فى إنتشار اللغة اللاتينية داخل الاديرة والكنائس ولتعرض هذه الاثار بعد الإسلام لكثير من التخريب أضاع الكثير من آثار هذه الفترة إلا ان عمران سوبه وكثرة كنائسها وأستمرارها فى اداء رسالتها حتى القرن الرابع عشر الميلادى يكشف لنا أن رهبان شمال السودان بعد أن قل عدد المسيحيين بالشمال نزحوا للجنوب كما إن خريجى تلك الأديرة وجدوا فى حياة سوبة الوادعه وحاجة السكان هنالك اليهم وبعدهم عن الغارات دفع الرهبان للذهاب للجنوب وأستقرت المسيحيه فى كنائس وأديرة سوبة فى القرن السادس والسابع حتى قيام دولة الفونج التى وجدت هذه الدولة المسيحية فقيرة من المعلمين والرهبان .

توغلت المسيحية فى الجنوب فى حين زاد بمرور السنين دخول الدين الاسلامى فى الشمال وبعدت كنيسة علوة الارثوذكسية عن كنيسة الاقباط فى الاسكندرية التى كانت مركزاً هاماً فى الشرق لأرساء المسيحية وتعاليمها ، وتطوير هذه التعاليم والدفاع عنها .. وانقطع خط الصلة بين سوبة والكنيسة الام فى الاسكندرية .

وكانت هناك فى الشرق كنيسة الحبشة الارثوذكسية أيضاً التى كانت تابعة لكنيسة الأسكندرية التى بدأت تفقد الكثير من الرواد الجدد كما أن بعض الحكام من المسلمين لم يتركوا لها الحرية فى حياة الاقطاع التى كانت تعيشها الكنيسة فى أوربا التى وصلت من القوة عن طريق الإقطاع مركزاً مالياً عظيماً حتى باتت هى السلطة داخل ذلك النظام .

أضافت الكنيسة للفنون وحضارة الفراعنة الفنى القبطى واللغة القبطية والفن الاغريقى واللغة اللاتينية التى لم تخرج عن الاديرة بعيدة وتطور الفن داخل الكنائس والاديرة ووقف نمو الفن والحضارة الفرعونية إلا ان التقاليد الفرعونية لم تزول فى مياه الناس وذلك اضعف رسالة المسيحية التى لم تجد المعلمين والاكفاء بالقيام برسالتهم بين المواطنين ومحاربة تلك العادات الوثنية .

ونحن إذا أردنا أن نتتبع تطور المجتمع السودانى فى القرن السادس الميلادى حتى القرن الثامن عشر فلن نجد أى مخطوطات غير آثار لم تنطق بعد ولم تكشف تاريخ هذه المرحلة غير أننا يمكن الاستعانة بما خلفه بعض الرحالة — بعض المواطنين من مخطوطات بمعرفة الحياة الاجتماعية وسبل كسب العيش وتكوين المدن وبعد ذلك فى مخطوطة ودضيف الله وهى تكشف لنا حالة الصوفية والنشاط الاسلامى الذى قام على اكتاف لرجال الصالحين والصور الغريبة والروايات المبالغ فيها عن الخوارق التى كان يأتى بها الأفراد . وهى تكشف بصورة عامة عن تدهور العلم حتى إستطاع العقل السودانى من جراء الجهل فى قبول تلك الأفكار الغريبة وتفسير بعض الحركات المرضية على أنها علامات صلاح كما يضيف لنا بوكهارت عن الحالة المستقرة للمجتمع على النيل وحالة القبائل وسط حالة التجارة وجشع حكام المدن على النيل فى بربر وعطبرة والدامر وشندى وأعتماد دخل ورؤساء الجماعات على ضرائب التجارة ...

إلا ان التجارة كانت هى الحياة فى بعث حركة العمل فى نقل حاصلات أهل النيل ، وروافده وسنار عن طريق شندى سنار ودارفور سنتة، إلى سواكن أو الدر وعن طريق الأربعين بجانب هجمات قطاع الطريق مثل النعيم الذى كان يعيش فى أرض الرابطات فى القرن التاسع عشر وهجومه المتواصل على القوافل وتقسيم أمواله على الساكين وتبرت الإبو الدربية وتكشف لنا رحالة بوكهارت

والتونسى أن تعاليم الدين تكاد تكون معدومة أو مجهولة وأنتشار السكر والدعارة حتى فى مدينة مثل الدامر حيث نشأت بيوت العلم والصوفية وبيت المجاذيب وما لاقاه بوكهارت فى تلك المدينة يكشف عن رهبة رجال الصوفية على جميع المنطقة التى حواليهم واحترام الناس لحقوق رجال الصوفية إلا أن رجال الصوفية لم يحاولوا أن يتدخلوا فى حياة الناس العامة أو تقويمها وانتشار بيوت الخمر والدعارة حواليهم كان يكشف عن حالة المجتمع وتفككه .

كما تكشف لنا رحلات التونسى لدارفور فى أوائل القرن التاسع عشر أيضا عن حالة المجتمع القبلى والمعرفى فى غرب السودان وانتشار الجهل والخصومات القبلية والصراع الذى كان يلاقيه العلم حتى من رجال الحاشية والخاصة بالملك .

القرن السابع الميلادي

قبل الحديث عن الأحداث الداخلية فى السودان يجب علينا أن نطل على الاحداث الخارجية خارج السودان التى كان لها أثر على تطور السودان وسنحاول فى هذا القرن تتبع النشاط الانسانى والتوسع العربى مما كان له اثر مباشر فى السودانية فقد اعتمدت معظم الدراسات التاريخية بتتبع الحركة العربية فى السودان وأستخدام الحوادث اليومية لدخول العرب السودان وأبعدوا هذه الاحداث اليومية عن مجرى السياسة العربية والاسلامية فى تاريخ الدوله الاموية والعباسية والفاطمية وربط هذه الاحداث وإنعكاسها على الحركة الإسلامية والتوسع العربى . لانه بدون تتبع الوضع السياسى للدولة الاسلامية فى القرن السابع الميلادى حتى القرن الخامس عشر الميلادى لا نستطيع أن ندرك سبب إنتشار العرب والدوافع السياسية والعقائد والمذاهب الدينية التى كانوا يعتنقونها وأثر هذه المذاهب فى تاريخ الدولة الاسلامية ودخول العرب إلى أفريقيا الوسطى .

كان القرن السابع الميلادى هو عصر الفتوحات الأسلامية وأنتشار الدين الأسلامى فى الجزيره العربية حتى شرق إفريقيا . وحين دخول الاسلام إلى مصر فى هذا القرن كان السودان ينعم بميلاد المسيحية وهى فى طور شبابها وأزدهارها وبدأت المحاولات العربية لاخضاع مملكة دنقلة المسيحية إلا إنها إكتفت بعقد صلح مع ملك دنقلة قيلدوروث عام ٦٥٢ م . جاء فيه إنه لايحارب المسلمون النوبة وبالعكس وأن يدخل المسلمين بلاد المسيحيين مجتازين غير مقيمين فيها وعلى النوبة حفظ من نزل بلادهم من المسلمين حتى يخرج منها ، وعليهم رد كل أبق دخل بلادهم من عبيد المسلمين وعليهم حفظ المسجد الذى إبتناه المسلمون بدنقلة وكنسه وإسراجه وتكرمته وإلا يمنعوا عنه مصليا وإن يدفعوا فى كل سنه ثلثمائة وستين رأسا من إوسط رقيقهم غير المعيب يكون ذكراً :

هذا الحادث كان من أهم الحوادث التى حدثت فى حياة السودان السياسية والاجتماعية إذ تعرض لاول مرة لغزو من القبائل العربية وهم لم يعرفوها من قبل وخاصة سكان هذه المنطقة إذ لم تستطع مصر من قبل تحت سيطرة العرب إلا فى عهد العرب العمالقة .

وإن لم يأتى هذا الحادث بنتائج سياسية فى حدود الدولة السودانية إلا أنه كان علاقة تاريخية وممراً مأمونا لدخول العرب فى هذه المنطقة ووقوف الجامع بين الكنائس وإقامة الشعائر الاسلامية من صلاة وآذان وأدخل على حياة الناس فى تلك المنطقة الشمالية أسلوبا جديدا فى العبادة لم يألفونه ودينا جديدا مباركا جاء ينسيهم دينهم القديم

إما ماعدا ذلك فقد استمرت الحياة السياسية والاجتماعية فى السودان كما هى ولم تحدث حوادث خارجية تؤثر فى حياة السودان فى المستقبل غير الهجرات العربية التى كثرت نحو شرق إفريقيا والتى إضطرت إخيرا للهجرة لداخل أفريقيا واواسطها والتأثير فى منطقة الفور وكانم ووداى والسنغال وتمبكتو .

هذا فى الشمال أما فى غرب السودان فيصعب تحديد الحالة الاجتماعية فى تلك المنطقة لعدم وجود أى وثائق إو معلومات عنها ولكن يبدو من العمران والحياة الاجتماعية الملكية التى كانت سائدة فى دارفور ومنطقة جبل مرة حتى القرن الخامس عشر الميلادى . ان هذه المجموعات عرفت الحياة الاجتماعية ونظم الحكم فى فترات بعيدة من ديانة وعبادات شعوب تلك المنطقة كانت تختلف عن سائر البلاد مما يدل أنها قديمة وعريقة فى هذه المنطقة الغنية بالخيرات الطبيعية والأنهار والوديان التى هى المصدر الأول لخلق التجمع والمجتمعات المختلفة الاولى .

أما فى أواسط السودان فقد كانت منطقة الجزيرة أكثر كثافة بالسكان وخاصة منطقة النيل الازرق وجنوبها قبائل الشلك الوثنيه وقد أعتنقت شعوب تلك المنطقة العبادات الوثنية وبعضها أخذ المسيحية بظهور مملكة علوه(سوبه) فى تلك المنطقة وانتقال الحكم اليها بعد هجوم الحبشة عليها فى القرن الرابع الميلادى وتدمير مروى القديمة .

* * * *

* * *

نشاط الحركة الثقافية في العصور الأولى للاسلام

دون أن نضيف للتاريخ بعض العبارات غير العلمية ودون أن نتصور من أشياء صغيرة حقائق كبيرة تعطينا صورة بعيدة عن الحقيقة وتجعل التاريخ الحقيقي صورة بعيدة عن الواقع بفعل حبنا أو محاولة اعطاء ماضينا شيئا من المجد بأسلوب فيه كثير من العطف والحب . . ولكن الاجدر بنا حتى نقف على الصوره الحقيقية للتاريخ أن نقف منه موقف العالم الذى يفسر الاشياء كما هى دون اعتبار للنتائج ان كانت ترضينا أولا ترضينا .

لو تتبعنا حركة البعث الاسلامى المصاحب لنهضة الفكر العربى نجد أنه إبتداء فى جنوب الجزيرة مع مولد الرسول (صلعم) ثم انتشرت الدعوة للشمال ثم عرجت على شمال افريقيا ثم غرب أوربا المطل على البحر والمحيط .

بدأت الدعوة الاسلامية بحماس دينى شديد ثم انحرفت بحماس للدولة الجديدة التى قسمت المسلمين إلى أقسام كثيرة منهم من تبع حكم معاوية بن سفيان وعائلته ومن عارضة من أسرة على بن أبي طالب الشيعة ثم كان الخوارج عارضوا الجهتين المتنازعتين على زعامة المسلمين .

فى بداية هذا الخلاف داخل الجزيرة العربية وانقسام العرب إلى ثلاث جبهات كل فئة تترصد بالاخرى وتعمل للاساءه والإطاحه إليها دفعت بالدولة الاسلامية إلى اتجاه جديد . وهو التركيز على تقوية الدولة الاموية ان كانت أو العباسية عسكريا ، وتنظيم حال الدولة حتى تستطيع أن تطارد وتقضى على الفئات الاخرى التى تحاول أن تسىء أو تتحكون للاطاحة بالدولةالاسلاميةالقائمة

هذا الصراع الداخلى داخل الدولة الاسلامية حد من نشاطها الاسلامى والثقافى بل دفع بكل امكانياتها بل بعضها إلى محاربة الخارجين على القانون ، والمعارضين من العرب بجانب المشاكل الخارجية . . . وهذا هو السبب الذى دفع بالدعوة الإسلامية أن تفقد وحدتها وقوتها التى خرجت بها من جزيرة العرب فى زمن الخلفاء الراشدين

بدأ الحكم الأموى عام ٢١ هـ — ٦٤١ م واستمر صراع داخلى مرير كلفه كل امكانياته لمحاربة الشيعة والخوارج ، ولا ستتباب الأمن فى الأراضى الجديدة التى فتحها العرب للإسلام ، الأمر الذى جعل الدولة الأمويه تتعاون مع الشعوب الأخرى خائفة من أنصار الشيعة والخوارج ، حتى انتهى الحكم الاموى عام ١٢٣ هـ ٧٥٠ م وكان سبب انتهائه هو هذا الصراع الداخلى الذى واجهه من الشيعة والخوارج مع اتساع رقعة الامبراطورية الاسلامية .

لاشك أن خروج العرب من الجزيرة العربية واتصالهم بحضارة كبيرة كحضارة الاغريق والرومان والفراعنة واخضاعهم لمعظم شعوب هذه الحضارات كان لابد للعرب أن يكونوا فى مستوى أقوى من هذه الحضارات .. وقد كان لهذه الحضارات بقاياها الخالدة التى كان لابد للعرب أن يطلعوا عليها وحتى يستطيعوا أن يفرضوا منطقتهم وفكرهم وثقافتهم على هذه المناطق . . . فوجه هذه الدولة الاسلامية سيطرتهم على فكر وحضارة هذه الامم وملاءمة الفكر العربى مع هذا التراث كان لابد للعرب من أن يطلعوا على هذا التراث بعد هذه الفتوحات التى أخضعوا بها هذه الحضارات عسكريا فلابد إذن من اخضاعها فكريا . . . وقد كان لهذه الحضارات سبقها فى هذا المضمار ولا شك الحضارة الاغريقية والرومانية ، وما تركته الحضارة الفرعونية من آثار وما أخرجته جامعة الاسكندرية من علم وفكر .

سقط الحكم الاموى ليبدأ الحكم العباسى عام ٧٥٠ م - ١٣ هـ . وبدأ الصراع العربى من جديد أكثر وحشية داخل العرب المسلمين أهل الدعوى فى عصبية الحكم أنستهم عظمة الرسالة وهدف الرسالة أنما شهوة الحكم دفعت بالقوى لكرسى الدولة الاسلامية الامر الذى مزق وحدة الامة العربية منذ ذلك التارخ إلى طوائف وأحزاب .

فى ظل هذا الصراع اتسعت الدولة الإسلامية فى العهد الاموى والعباسى ولكنه اتساع على حساب قوة ومركزيه الدولة الإسلامية وزيادة مسئولياتها وعبء للدولة بجانب هذا التصدع الداخلى المريع الذى ظل يخلف الدولة المركزية والحاكم باسم العرب والمسلمين حتى فتح هذا الباب لكثير من الاجناس الاخرى أن تتقدم إلى كراسى العرب المسلمين بفرض المساعدة ضد الطوائف الاخرى - أفاد الثقافة العربية والفكر العربى لاشتراك تلك العناصر غير العربية فى مجال الثقافة والفكر والإدارة فى مرحلته الاولى قاد فى النهاية لانقسام الدولة الاسلامية على عدة دول فى حلب وبغداد والقاهره والمغرب .

اتسعت الدولة الاسلامية ولكن ما قيمة ما صرفتة فى نشر الثقافة والفكر العربى فى الاراضى الجديده والاسس التى قامت عليها هذه الدعوه فى عالم جديد عن حضارتها ، وأرضها . . . وسنرى القواعد التى قام عليها الفكر الاسلامى لنشر الثقافة العربية فى مصر ثم السودان .

تخطيط العرب لنشر الثقافه والفكر العربى

بعد حكم رومانى قام بعد مقتل كيلوباتره فى عام ٥٤ ق . م . إلى ٦٤١ م . بدخول عمر بن العاص لينهى سيطرة المسيحية على أرض النيل والرومان عنها وليبدأ عهداً جديداً فى حياة مصر العربية وحياة افريقيا والنيل .

أنشئت الدولة الإسلامية على أرض النيل وامتدت حتى حدود المملكة السودانية وأرسل عمر بن العاص فى نفس العام قائده عبد الله بن سعد إلى مملكة دنقلة المسيحية لينهى هجومه على العاصمة دنقلة بالصلح واتفاقية تتيح للمسلمين اقامة شعائرهم ومساجدهم وضمان حرية مرور العرب .

كان لابد للدولة الإسلامية لتركيز الدولة سلطانها فى أرض النيل أو فى أى بقعة جديدة من اقامة الدولة القوية ثم نشر الدعوة والعلوم الإسلامية بما فيها من شريعة وفقه وحديث وكتاب الله وتفسيره .

كان الجيش هو قوام الدولة الإسلامية وكان الجامع هو المدرسة الأولى لنشر الثقافة الإسلامية .

قامت مدينة الفسطاس بعد فتح عمر بن العاص فى عام ٦٤١ م بعد أن بسط نفوذ الدولة الإسلامية على مصر ومد هذا النفوذ إلى عاصمة الدولة المسيحية السودانية دنقلة .

إنشاء عمر بن العاص المسجد الجامع أو جامع عمر أو كما كان يسمى المسجد العتيق أو جامع مصر أو مسجد أهل الرايه .

وإذا انطلقنا من هذا الجامع الأول وهذه المدرسة الأولى لنشر العلوم الإسلامية والثقافة العربية على أرض النيل وتتبع نشاط هذه الجوامع وازدهار هذا الجانب العلمى من الدعوة الإسلامية حتى نتمكن من رصد هذا التطور على الثقافة العلمية فى السودان بجانب العوامل الأخرى والمصادر الأخرى .

واستمرت مصر فى خلافة الأمويين ثم العباسيين ولم يجد فى حياتها العلمية أى اضافة لجامع عمرو الذى كان منبرا لوالى مصر . . . وقد كان المسجد هو المنبر الرسمى فى المقام الأول ليجتمع الوالى برعيته بعد صلاة الجمعة لالقاء الموعظة والأوامر والتشريعات الجديدة . . . . كان الجامع هو المنبر لنشر سياسة الدولة الإسلامية أيام الجمعة . . وكان يقوم بجانب هذا الدور بعقد الندوات والمناظرات وحلقات الدراسة منذ إنشاءه ولكن هذا الدور لم يأخذ شكله الواضح . . . بل كان نشاطه ضئيلا بالنسبة لموقع الدولة الجديدة التى عاشت فى اضطرابات الحكم وصراع الشيعة والأمويين والخواج لم يتح لها أن تخطط للدراسات والعلوم العقلية لتنمو بجانب الدولة الجديدة ، الأمر الذى جعل من هذه الجوامع كمنبر عام الخطابة الرسمية .

وقبل أن نحكم على هذه الظاهرة يجدر بنا أن نلقى نظرة على المجتمع المصرى قبل الفتح وبعد الفتح ثم نلقى نظرة عملية وعلمية لإنشاء جامعة إسلامية تقوم بتدريس العلماء والفقهاء والمفسرين ولتخرج كافة رجال المعرفة التى تحتاج اليهم هذه الدولة الجديدة .

قبل دخول العرب مصر كانت الاسكندرية هى جامعة مصر تنقل اليها علوم الاغريق وترسل الوفود وتستقبل الوفود ، ونحن نعرف أن بعض العلماء الافذاذ فى العلوم قد تخرجوا ونبغوا من جامعة الاسكندرية وقد انشأت جامعة الإسكندرية ومكتبتها فى عهد البطالسة أو البطالمة ، وقد عرف أهل اثينا العالم « تكريس » فى مفهوم الدولة والقوانين ثم ذاتاؤس ، الذى أنشأ مدينة ارغوس فى قسم الموره « وافلاطون » فيلسوف الحضارة الاغريقية العريقة تتلمذ على كهنة من كهنة عين شمس أخذ عنهم علم مصر القديمة .

ثم « بطليموس» ابن الاسكندرية وأبو علم الفلك والجغرافيا «وفيثاغروس» صاحب النظرية ومطور علم الهندسة والذى رفعه علمه فى نظر تلاميذه حتى أدعوا أنه إبن الآلهة (أبو لون) ثم « بلوتينوس » مؤسسة الفلسفة التى تعرف باسمه والتى تدعو لحرية الإرادة والإيمان بالله والترفع عن المادة وترويض الجسد من الشهوات .

هذه الجامعة التى نقلت حضارة الإغريق والرومان وبعثت الحياة العقلية والفنية من جديد فى مصر — بعد أن سكنت الحضارة الفرعونية التى أعطت أقصى إمكانياتها ثم بدأت تذبل لتفسح المجال لشعوب أخرى لتأخذ دورها فى التطور .

كان المجتمع المصرى يعيش تحت ظل الدولة الرومانيه بفنها وفلسفتها بعد أن ظهر المسيح ليفتح أفاقاً جديدة للعقل البشرى ليفكر فى الله والوجود ويخرج الإنسان من عالم الغيبيات وآلهة الأغاريق والفراعنة إلى دنيا جديدة مليئة بالحق والتضحيات . . . وقد وصلت آثار هذه الحضارة إلى جنوب النيل وعرف

سكان السودان الفن الإغريقى وآلهة الإغريق ولـكنهم لم يبدلوا آلهتهم بآلهة الإغريق حيث لم تـكن هناك سيطرة لهم على السودان إنما المعاملات التجارية التى كانت قائمة بين المملـكة المصرية الرومانية والمملـكة السودانية الفرعونية التى عاشت حتى بعد القرن الثالث الميلادى فى حين وقف نمو الحضارة الفرعونية فى مصر من القرن السادس قبل الميلاد .

كان المجتمع المصرى هو مجتمع البلاط الملـكى وجنده وحاشيته ومجتمع الفلاحين الذين يخدمون هذا البلاط . . . الفن والفكر للذين يدورون حول القصر أو الذين يسكنون فيه أما بقية الشعب فلهم عبادة الآلهة وزراعة الحقول . . ليأكل السادة ويجبون الضرائب ويعيشوا فى عالم آخر قائم على عرق هؤلاء الأشقياء الذين رأوا فيه جنة بالنسبة لحكم الفرس الذين حكموا البلاد بالبطش والإرهاب .

فى ظل هذه الحضارة التى امتدت من شمال البحر الأبيض المتوسط إلى جنوبه حتى عمت النيل ظهر المسيح منافس جديد لآلهة هذه الحضارة ... ومعه الإنجيل الذى حير الفلاسفة وأهل الفلسفة فى معتقداتهم وآراءهم .

إن ظهور المسيح لا يمكن أن يكون حدثا سهلا بالنسبة لرجال الفكر والفلسفة فى ذلك العهد . . فقد جاء رسول بعقيدة تخالف كل فلسفاتهم وأفكارهم . . كما أنهم وجدوا أنفسهم فى مكان إمتحان قاس بالنسبة لبقية الشعب الذين يستفتونهم فى آراء هذا الرسول كما أن موقف الكهنة من هذه

الديانة السماوية الجديدة أمر ليس بالسهل . وأخذ الصراع الطبيعى بين المعتقدات القديمة والديانة الحديثة زمنا ليس بالقليل حتى سادت المسيحية وأصبحت ديانة الدولة وفرضت نفسها على بقية الشعب وامتدت إلى المملكة السودانية الفرعونية التى أثرت فيها وبدلت ديانتها فى القرن الرابع الميلادى حتى وصل هذا الأثر إلى داخل السودان . إلى مملكة علوه قرب مدينة الخرطوم .

دخول العرب والإسلام السودان

سنبحث بعد الآن فى نوعين من المؤثرات على حياة المواطن السودانى أولا دخول القبائل العربية - كقبائل لها عاداتها واخلاقها وفكرها الذى يختلف عن فكر وعادات وتقاليد المناطق الجديدة التى ارتادها العرب مكرهين أو راغبين وسنحاول أن نتتبع المؤثرات التى خلفوها على الجماعات السودانية فى شمال وشرق وغرب السودان كما سندرس أثر الدين الإسلامى كدعوة جديدة جاءت إلى قرى مسيحية وقبائل وثنية . .

دعوة جديدة تدعو لوحدانية الله وعبادته .. وسنرى إلى أى حد كان دعاة هذه الدعوة أو رسل هذه الرسالة توفقوا إلى توصيلها إلى هؤلاء الاغراب عنها، وكيف إستطاعت أن تحل مكان الوثنية ومكان المسيحية فى الشمال وفى وسط السودان.

عرفنا أن زحف القبائل العربية بدأ بظهور الاسلام فى أفريقيا وأوربا من أجل نشر الدعوة الاسلامية ثم هروباً من العصبيات السياسية من إنصار لدعوه الامويه والعباسيه والفاطميه .

وقد كانت مصر هى نظر أمير المسلمين عمر بن الخطاب حين دخل عمر بن العاص ناشراً الدعوة الاسلامية فى أقوى دولة فى أفريقيا فى ذلك الوقت وفتح الطريق للقبائل العربية لتنتشر خارج حدود الجزيرة العربية .

دخل عمر بن العاص مصر عام ٦٤١ ميلادية ولم يكن دخوله إلى مصر دخول

عابر أو احلال دين مكان آخر وعملية التحويل نفسها لا تأتى بالقوة أو بين يوم وليلة أنه تغير فى معتقدات الناس وفى معاملتهم .

وإذا كان دخول عمر بن العاص إلى أفريقيا عن طريق مصر يعنى أولا ـ عزل أفريقيا عن حضارة شمال البحر الأحمر المتوسط التى سيطرت عليها منذ عام ٣٣٢ قبل الميلاد بفتح الاسكندر المقدونى لمصر ودخول الحضارة الاغريقية لمصر وافريقيا ثم أعقبه الرومان من عام ٥٤ قم إلى ٦٤١ ميلاديه .

إذا وضعنا فى إعتبارنا أن المنطقة النيلية التى قامت عليها الحضارة والمبانى الفرعونية تمتد من الاسكندرية إلى النيل الازرق بالسودان لأدركنا أن سيطرة الحكم على الاسكندرية أو الفسطاط يعنى بالتالى أما أخضاع كل هذه المملكة ذات الحضاره القديمة لحكم الشمال أو ترقب الجنوب لهذا الحكم الجديد الذى استولى على مقاليد الحكم فى الشمال . . . وستظل الممالك الجنوبية فى ذعر وخوف وترقب تنتظر زحف هذا الحاكم الجديد على مصر أن يغزوها . وإذا لم يحدث الغزو يحدث التفاهم والتعاون ، وهذا ما حدث كان جنوب النيل ليس بموضوع هام للاغريق أو للرومان رغم أن رحلة هيرودوت فى القرن الرابع قبل الميلاد تكشف لنا رغبة للاغريق العارمه لمعرفة منابع هذا النيل ومحاولتهم للسؤال عنه أو استكشافه .. هذا يضيف إلى أن قداسة هذا النيل واسطورته عند الاغريق . وما وصل إلى اسماعهم عنه وتسميتهم لمنابعه بهضاب القمر البيضاء والتى رجح أخيراً انها تعنى هضبة جبال كلمنجارو وشلالاتها .. وهذا يكشف لنا أن أحد هؤلاء المكتشفين الاوائل قد قرب من هذه المنابع أو أن المعلومات قد وصلت اليهم ... أو أن تصورهم قد بلغ هذا الحد لروائع لمنابع النيل .

هـذه الحضارة المزدهرة التى كانت قائمة على شمال النيـل وكان لهـا أثر مباشر على جنوب النيل كما جاء سابقاً يمـكن أن يـكون زوالها بهبوب عاصفة تغطى على القديم وتترك المـكان مسطحـا للجديد لينبت بل العـكس إما عملية صراع رغم التغلب الظاهرى الذى امتاز به العرب والاسلام على شمال أفريقيا .

ولـكن فرض الثقافة العربية والاسلام والحضارة العربية مكان المسيحية وحضارة شرق البحر الابيض المتوسط وشعوبه ليس أمرا هينا ويسيراً يتم فى عام أو أعوام بسيطه .أن الجيش الاسلامى ربما يدخل ويفرض الحكم الاسلامى وربما ينتشر الجند فى كل بقاع المملكة ... ولـكن الحياة العربية لن تظهر إلا بعد أن يـغلب هؤلاء العرب عدديا وعسكريا وفـكريا على الواقع الموجود ... وهذا ما يـكشف لنا دخول العرب السودان فى جماعات كبيرة ظاهرة بعد سبعه قرون من دخولهم مصر رغم أن عمر بن العاص (عام ٦٤١) أرسل عبد الله بن السرح لتأمين الحدود الجنوبية من المملـكة المسيحية والقبائل الجنوبية لضمان سلامة مملكته من الجنوب ولمحاولة بعث هذه الدعوة للجنوب . . ولـكن لقله امكانياته للتوسع جنوبا اكتفى رسوله عبد بن السرح بعد أن ضرب دنقلة بالمنجنيق بعقد معاهدة صلح مع حاكمها بأن يعترف بالدين الاسلامى ولا يعاديه ... وأن لا يقف ضد من يؤمن به .. وهو بذلك ضمن حرية العباده للمسلمين فى تلك البلاد المسيحية . . كان هذا أهم حادث فى تاريخ السودان الاسلامى .. وأن يفرض الحاكم الجديد على مصر على حاكم شمال السودان المسيحى بأن يحترم الدين الاسلامى .. وأن يحترم المسلمين ويتركهم لأداء شعائرهم ... وقد كان من حسن حظه أن هذه المملـكة المسيحية لا تملك من المنفعه أو المقاومة لهذا الفاتح الجديد الذى أزهلت فتوحاته كل ممالك العالم وأصبح يرعب كل ملك ينتظر قدومه .

كانت معاهدة بن السرح هى وضع الراية الاسلامية من قباب الكنائس فى أرض السودان فى النصف الاول من القرن السابع الميلادى .. . وعاد راجعا بعد أن ضمن حرية العبادة المسلمين .. .. ولكن فى الحقيقة لم يكن هنالك مسلمون فهى دعوة جديدة دخلت عليهم بالقوة .. .. ولكن ظاهرة التسامح والعقد الذى أعطاه بن السرح لحاكم دنقلة فتح الباب لهذه الدعوة أن تدخل قلوب المواطنين فى أرض مسيحية متعصبة لمسيحتها وربما غاضبة لأنهزام مصر المسيحيه أيضا .. .. وسد الطريق أمام هذه الممالك إلى الاسكندرية والأمر الذى قاد لخنق هذه المسيحية فى حدودها وربما عزلها عن العالم المسيحى النشط الذى كان يعمل فى شروق البحر الأبيض المتوسط لتنشيط رسالة المسيح وتدعيم الكنيسة المسيحية وزعامة أور بالنشر الدعوة المسيحية .

وبعد القرن السابع الميلادى خضعت مصر وشمال أفريقيا للاسلام ولسيطرة الحكام العرب والقبائل العربية والتكاثر عدد النازحين العرب فى شكل جيوش أو هتآ جـ يوى يذهبون حيث امتدت دولتهم الاسلامية .. .. فالحكم العربى على هذه البلاد فتح لهم باب الهجرة والتجوال بين هذه الأمم حتى سيطروا عليها وفرضوا لغتهم وأغلب عادتهم

أما فى السودان فلم يحدث غزوا لوضع دولة اسلامية عربيه كما حدث فى بقية البلدان التى خضعت للاسلام والحضارة العربية بكل مقوماتها . . . فقـد ظل السودان فى شبة سلام من هــذا الغزو الاسلامى والحضارى مكتفيا بعزلته المسيحية .

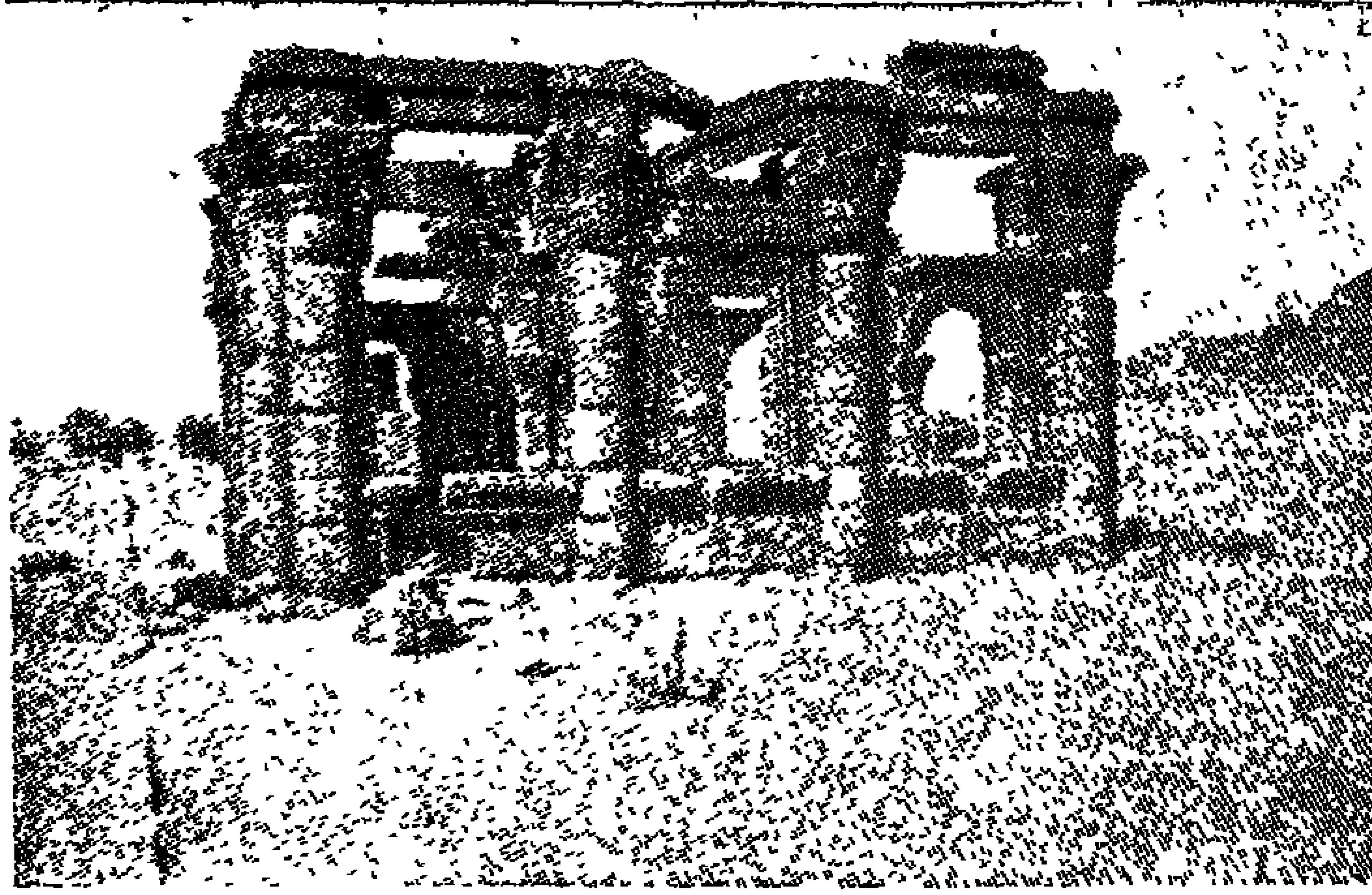
ولكن هل يقف الاسلام والعرب عند شمال مصر ، بالطبع لا . . فقد إمتدت

الهجرات العربية لتأمين الحدود الجنوبية لهذه المملكة الاسلامية التى لها وضع إستراتيجى بالنسبة لعاصمة الامبراطوريه الاسلامية العـــربية وبالنسبة لشمال افريقية وأسبانيا .. وكانت مصر ملتق مركز هام لهذه الدعوة ولهـذ الانتشار العــــربى .

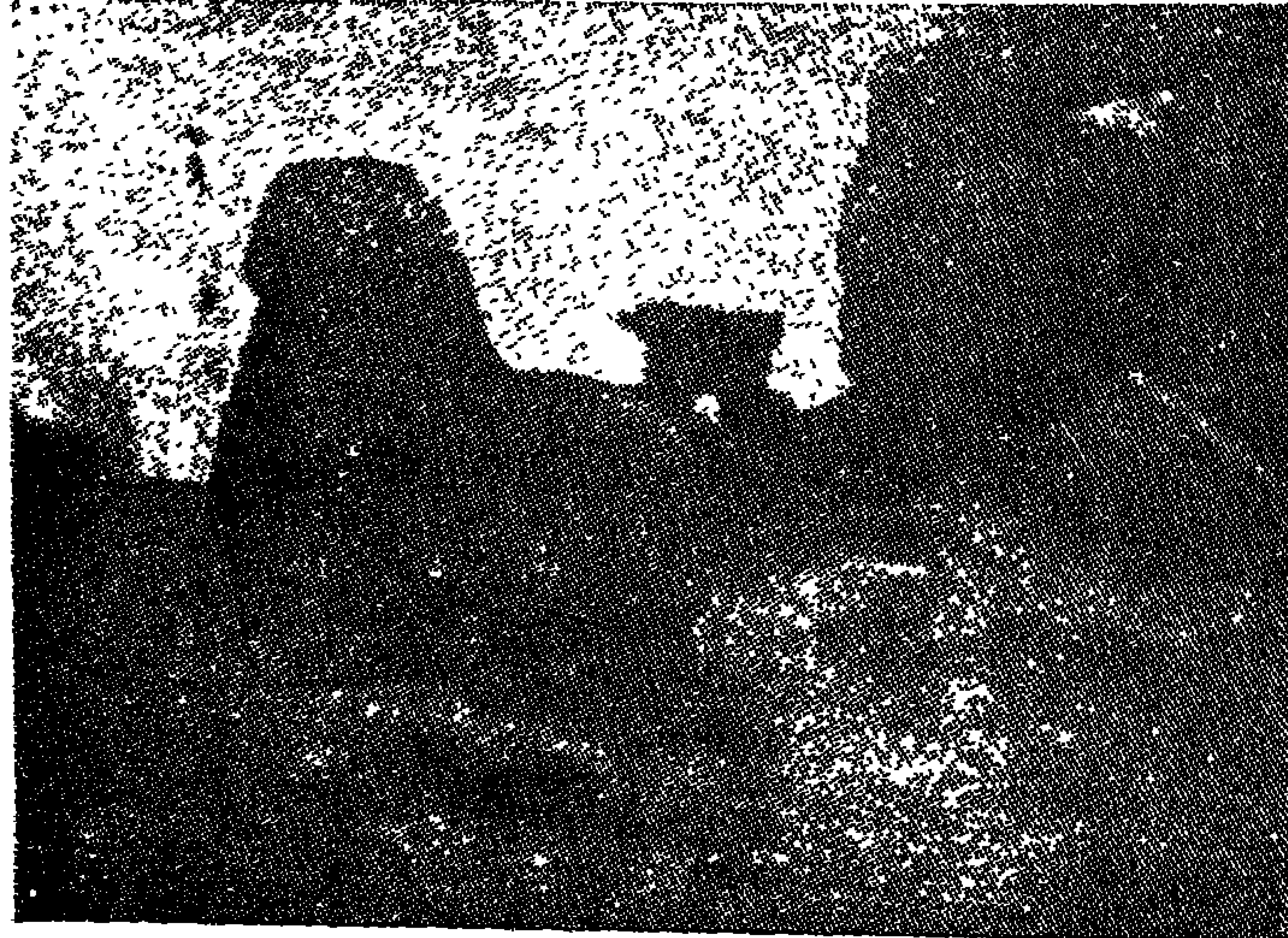
أن ظهور العرب فى أى مكان أو بين أى مجموعات لا يحدث فى لحظة . . . وإذا أردنا أن نتصور أو ندرس التاريخ كما هو ، علينا أن نسأل أنفسنا بعض الأسئلة كيف كان يعيش هؤلاء العرب مع هذه المجموعات . . . أى حرفة كانوا يتكسبون منها قوتهم . . ما نظرتهم للقوم الذين بينهم وما نظرة القوم اليهم .. وما صناعه هؤلاء القوم . . . ما هى العـــلاقات الاجتماعيه بين هؤلاء السكان وما معتقداتهم .. هل وجدوا هنالك تنافراً بين طباعهم وطباع العرب — هل وجه العرب منهم طباعاً تجعلهم ينعزلون عنهم أم وجدوا تقاربا بينهم فى المعاملات والاخلاق حتى سهلت عليهم عملية التعايش والتعامل ... اللغة التى كان يتكلمها هؤلاء القوم قبل قدوم العرب هل كان يعرفها العرب — هذه كلها أسئلة يجب أن نتصورها حتى يمكن أن نتصور حركة التاريخ أما إذا حاولنا ان نبدأ بعد غلبة العرب والاســـلام عليهم . . . فستضح علينا ملامح المجتمع الجديد الذى جاء نتيجه هذا التزاوج والامتزاج .

ولنضرب مثلا أن جماعة العرب التى حكمه أسوان كيف تيسر لها أن تحكم أسوان .. وحتى تظهر لنا فى القرن الحادى عشر الميلادى مملكة عربيه كنزية تسيطر على جنوب مصر . . . هل حدث هذا الحكم فى لحـــة البصر وأصبح حقيقه واقعه أم هناك تدرجا حدث حتى حدث هذا التغلب .

والصورة بحدث كما يلى . . وهو تغلب العرب المسلمين على مصر دفع لفرض



مبانى رومانية امتدت إلى جنوب وادى النيل بصحراء النجمة تضيف إلى تاريخ حضارة النيل إمكانيات حضارة شمال البحر الأبيض المتوسط .



الحيوان من المخلوقات المقدسة .. بقايا آثار النجمة

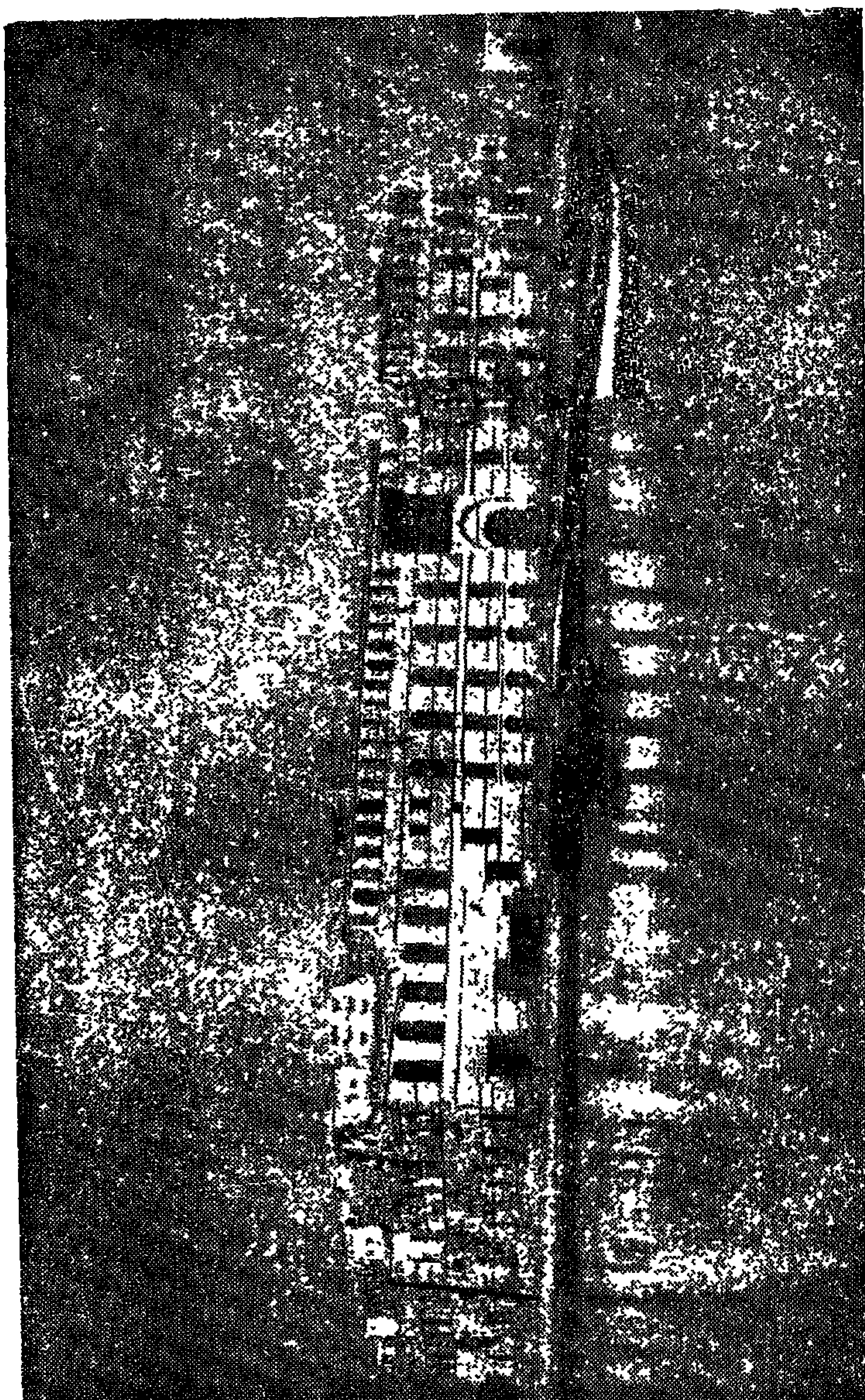


لوحة العذراء والسيد المسيح وجدت بكنيسه فرص . من بقايا الفن المسيحى والقبطى بالمديريه الشمالية . .

اللوحة بها إمكانيات فنية لاحد لها . . منها الجديد . . والقديم الممثل فى حضارة انسان النيل.



بقايا العهـــد المروى (٣٥٠ ق . م . — ٣٥٠ م . فى المصورات الصفراء تبين متانة البناء والأعمدة الفرعونية التى قامت عليها المعابد والقصور والقاعات .



أطلال مدينة سواكن ميناء البحر الأحمر في شرق السودان واجهة الحضارة العربية في الشاطئ
الآخر من البحر الأحمر.

حكام على المراكز الكبيرة ولما كانت أسوان من المراكز التجارية الهامة بين حدود مملكة مصر . . . وممالك النوبة المسيحية والصلاة التجارية عن طريق القوافل لبيع حاجيات أهل السودان لمصر وحاجيات أهل مصر للسودان . . وبمرور الزمن وقوة هذه الحامية الجنوبية كثر عدد العرب بها . . . وحينما كثر عدد العرب بها . .. نزح اليها بعض مجموعات القبائل العربية التى كانت تجد فى ظل الحكم العربى ضمانا وحماية لها من أى منطقة أخرى .

وحينما كانت علاقات أسوان بممالك النوبة دائما فى تحرش بسبب الدين والقوافل التجاريه ... ولهجوم النوبة على حدود هذه المملكة المسلمة .. إنتهى الامر بأن تغلبت المملكة الجنوبية الاسلامية على ردع المملكة النوبية المسيحية وفرض دية عليها .

اذا اعتبرنا الفتوحات الاسلامية هى البداية العظيمة للهجرة العربية خارج الجزيرة فى مجموعات كبيرة ولو اعتبرنا أن العرب وصلوا إلى حدود المملكة المسيحية السودانية دنقلة فى النصف الأول من القرن السابع الميلادى . .. بعد مصادمات هدمت قباب كنائس دنقلة رجع العرب لحراسة الحدود المصرية وأقاموا فى أسوان قاعدة جديدة للحرب .

وفى القرن السابع الميلادى كثرت الروايات عن بلاد النوبة والبجة وبهنسه والسودان فى كتب العرب فى كتابات قائمة على الرواية والنقل وهو أمر لم يكن معروفا من قبل وظهر اسم القبائل السودانية فى روايات كثيرة وأشتباكات مع العرب بعد القرن الثالث الهجرى الأمر الذى يجعلنا نقف عند اسوان كقاعدة انطلاق للعرب والمسلمين داخل السودان .

شيد العرب بأسوان حصناً قوياً ضد غارات النوبة والبجه وسكنت القبائل العربية فى المناطق المجاورة لأسوان وذلك بعد حكم عثمان بن عفان الذى فى عهده عقد الصلح بين النوبة والعرب على أن يدفعوا جزية سنوية قدرها أربعمائة رأس فى السنة

النوبة :

عرف العرب السودان بأرض النوبة جنوب أسوان الى [illegible] ملتقى النيلين الأبيض والأزرق كما أضافوا البجة إلى أرض النوبة [illegible] كان سكان السودان عموما بالنسبة اليهم نوبة . وقد عاشروهم وعرفوا كرم طبعهم مما جعل النبي (صلعم) يقول من لم يكن له أخ فاليأخذ له أخاً من النوبة .

وعند ظهور الاسلام على حدود السودان كانت هنالك على الشمال مملكة النوبة المسيحية وعاصمتها دنقله ... وفى الجنوب مملكة علوه المسيحية أيضـــاً وعاصمتها علوه (سوبه شرق الخرطوم) . . . وهذه المنطقة الشمالية حتى جنوب النيلين كانت تخضع للمسيحية فى حين كانت قبائل البجة المنتشرة فى وديان البحر الأحمر وقرب النيل حتى حدود أسوان طالبا للمرعى وهى قبائل وثنية لا يجمعها ملك إنما لكل قبيلة رئيسها وهى قبائل كثيرة منتشرة .

وقد عرف عن قبائل البجة المتعددة إنها قبائل شرسه ميالة للقتال والنهب وقد كانت كثيرة الغارات على طرق القوافل التجارية ولعدم انضمامها ، وخضوعها لحاكم كبير كانت تتصرف هذه التصرفات الفرديه التى لا ينفع معها عقد صلح أو حلافه ... انما كانت هذه القبائل تتبع طبيعتها الخلويه ... وهذا النهب يكفى حاجتها المادية لخيرات الأرض الطيبة مما تنتجه مصر أو أرض السودان .

أما النوبة فقد جاء في معجم البلدان للأمام شهاب الدين بن عبدالله ياقوت بن عبدالله الحمـــوى المتوفى عام ٦٢٦ هـ . (أن النوبة بخلاف ديانتهم للمسيحية القبطية (يعاقبة) كانت حالته الاجتماعية متيسرة وكانوا أصحاب أبل ونجائب وبقر وغنم ولملكهم خيل عتاق وللعامة براذين وفى بلدهم الحنطة والشعير والذرة ولهم نخل وكروم ومقل وأراكى) .. وهذا الوصف لا ينطبق على شمال النوبة أنما ينطبق على أرض النوبة عامة التى عرفها العرب وهذا يدل على أن النوبة كانت لهم ماشيتهم وكان لهم زرعهم . فهم قوم مقيمون . أما حضارة ومدنية عادية ودولة منظمة عريقة لها تقاليدها ودينها وحضارتها لا بداوة دولة حديثة أو مجموعات متنافره كما فى شرق السودان .. .. وهذه الحضارة أخذت لها مراكز داخل السودان حيث امتدت سوبا القديمة قرب شندى ثم حين ظهرت المسيحية إنتقلت الحضاره إلى الجنوب على ضفة النيل الأزرق عند ملتقى النيلين فى هذه المساحات الكبيرة لم تكن مجهولة أو منعزلة أو بدائية بل بالعكس لها قوتها وتنظيمها ودينها واتصالها الخارجى .

أما فى الشرق فقد كانت هذه القبائل المتعددة من البجة . . . قبائل بدوية وثنية لا تدين لحاكم أو ملك أنما لكل قبيلة زعيمها ، يحكمها قانون القبائل ، كل ما كانت هنالك قبيلة قوية كانت لها المكانة عند القبائل الأخرى وكان يخشى بأسها وقوتها . . . أما القبائل الصغيرة فهى لا تنفك تتعارك مع بعضها البعض أما من أجل الثأر أو من أجل المرعى أو من أجل النهب وسرقة الماشية القليلة الحراسة الضالة .

هذا هو الخط العريض الذى واجه دخول الإسلام والعرب من الشمال . . مدنية مسيحية قديمة ذات حضارة فرعونية عريقة وديانة حديثة ودولة منظمة

قديمة عمرها أربعة عشر قرنا أقدم من حضارة العرب وهى فى الشمال أقوى وأعرق . . . تضم قبائل قديمة أصيلة ذات تقاليد وشجاعة جعلتها تحتفظ بمـالكها بعيدة عن السيطرات الخارجية التى خيمت على مصر فهزيمة هذه الشعوب ليس بالأمر الهين واخضاعها ليس أمراً سهلا لأنهـا قبائل قديمة عرفت المعارك والقتال ولم تستسلم يوما ما . . . . ولذا كان دخول العرب من النيـل ليس أمراً سهلا أمام مجموعات لها دينها وبأسها واستعدادها ولها لغتها الخاصة . . . أربعة عناصر قوية تواجه تدخل العرب والاسلام من النيل . . . الحـكومة القوية العريقة . الشعوب المتمرسة على هذا الصدام والتى لاتخضع بسهولة ... واللغة المختلفة عن اللغة العربية .. ثم الديانة المسيحية التى بسطت نفوذها على طول النيل .

هذا مايخص جبهة النيل أما مايخص الجبهة الشرقية أى تلك القبائل البدوية المتعددة المشاكسة . . . فلو كان هنالك ملك يحكم هذه القبائل لأمكن إخضاع الملك بالقوة للمسلمين من قوة وبذلك يمكن إخضاع جميع القبائل .. ولـكن الامر هنا أصعب ، فمهمة الدولة الإسلامية ليست سهلة . .. فعليها أن تخضع جميع هذه القبائل الوحدة تلو الاخرى .. .. هذه من ناحية السيطرة على هذه القبائل .. .. ويأتى عنصر آخر هو اللغة فهذه القبائل لا تتحدث اللغة العربية مما يجعل مهمة التفاهم معها أمراً صعباً ... وتعليم الاسلام أصعب .. .. وهى اعقد المشاكل فكيف يكون التفاهم بين هذه القبائل وبين العرب المسلمين .. .. وكما أن ديانة هذه القبائل هى ديانة وثنية لا يسهل توصيل هذه الرسالة لهؤلاء القوم الوثنيين الذين لايعبدون إلاها .. .. فلو كانوا يؤمنون بالمسيح لا مكن اقناعهم بسهولة وبالجدل .. .. أما أن تخرجهم من الظلمات إلى النور بدون سابق معرفة .. .. أو تهيىء لهذا اللقاء وهذه القفزة فليس بالأمر الهين .

هــــذا هو الخط الشمالى الذى واجه تدخل العرب والاسلام والعناصر التى حددت من انطلاق العرب والاسلام الى السودان بعد القرن السابع الميلادى كما حدث بسرعة فى بقية بلدان شرق أفريقيا . . . هذا مما جعل العرب يقنعون بأسوان ويقيمون بها لوقت طويل .. ويكتفون بالجزية على مملكة النوبة المسيحية ذات الخيرات والحضارة والتنظيم وتركت القبائل البدوية فى شأنها . ولكن هل استمر الحال على هذا الخط الشمالى ضد تدفق العرب والاسلام أم أن الزمن كان له عنصر مساعد فى ذلك .

بعد القرن الثامن بدأت اعداد القبائل العربية تكثر على شمال المملكة السودانية . واصبح العرب أصدقاء للنوبة وتخالطوا بهم . وتدفقت بعض القبائل بشكل كبير على هذا الجزء منها ربيعة وجهينة وعكرمة على هــــذا الخط الشمالى وبذلك قوت شوكة العرب العددية وأصبح لهم وزن وتخالطوا بسكان وادى النيل وانتشروا على السهول الشرقية وعرفوا القبائل البجاوية . .. ولكن قوة هذا العدد تسنده دولة قوية . .. أرهب العرب سكان هذا الخط الشمالى وفسحوا لهم وجعلوهم يعيشون بينهم يشاركوهم فى التجارة وخالطوهم . وبمرور جيل يأتى جيل بعده لاشك تختفى النظره الغريبة للجانب الآخر فالعرب الأوائل الذين سكنوا بأرض نوبة لاشك كانوا ينظرون نظرة غريبة للنوبيين . .. فقد عرفوا عندهم عبيدا . . كما أن النوبى كان ينظر للعرب كعنصر دخيل عليهم يخاف قوته ويخالفاه ويتحاشاه ولكن أحفاد هذا الجيل الأول حينما يشبون مع بعض ويجدون أنفسهم مع بعض تختفى حدة هذه النظرة وبمرور السنين تتقارب الاخلاق والعادات والنفوس وهذا ما حدث ، رضى النوبة أن يسكن العرب بينهم ويسيروا فى ديارهم ويقيموا شعائرهم خوفا فى البداية .. .. وصداقة بعد مرور السنين واكتسب هؤلاء المستوطنين كان لابد من أن يتزوجوا منهم .. .. ولكنهم لا يزوجونهم بناتهم للنوبى المسيحى والإعتزازهم بعنصرهم العربى .. ..

ولكن الأجيال الجديدة التى ولدت فى الوطن الجديد ولم تعرف شيئا عن تقاليد وأخلاق الوطن العربى القديم فلم تتمسك بهذه النعرات إذا أسلم أحد النوبيين .

وبتسلق هذه القبائل رويدا الى الجنوب كان اضعافاً للملكة المسيحية وللدين المسيحى .. .. وبداية لنهاية الدولة المسيحية — فى القرن الحادى عشر قامت دولة بنى كنز أشارة إلى كنز الدولة وإلى الحاكم بأمر الله على أمارة اسوان .. ..
فقد أقام كنز الدولة دولته العربية عند اسوان وقويت شوكته فى حين كانت موارد الدولة النوبية تقل ليدخل العرب فى الحياة المعيشية ولكثرة عددهم فى الدولة وعدم إمكان تحصيل جزية منهم ولمشاركتهم فى التجارة — لم يرسل حاكم دنقلة الجزيه لأمير أسوان الأمر الذى قاد لاعادة تأديب هذا العاصى ولاظهار قوة العرب المسلمين من جديد فى القرن الحادى عشر .

وبقوة هذه الدولة الكنزيه كثرت القبائل العربية من ربيعة وجهينة كما ذكرنا وأصبحت درعا منيعا لهذه القبائل بأن تتجول وهى واثقة بأن خلفها أمارة لها وزن فى الأراضى المجهولة وهذه القبائل المتعددة المشاكسة .... فهى رغم ذلك تخاف القوى الذى فى استطاعته أن يبطش بها .

هذا يبين لنا كيف كان دخول العرب من جهة النيل عند النوبة بعد أن أصبحت اسوان أمارة ومركزاً تجاريا هاما فى هذه القوة جمع إليه كثافة السكان ، ففيه تجارة مصر ... وبضائع السودان وبضائع العرب .. .. فمن السودان كانت الماشية والعبيد وريش النعام والصمغ والذره والذهب والعاج والبلح .. .. ومن الشمال كانت المنسوجات وبضائع الهند والسكر والودع وما شابه ذلك مما كان ينفع الأهالى فى الجنوب والمناطق البعيدة التى يجلب منها سن الفيل وريش النعام والصمغ لتبادل السلع عليه .. .. وكان الذهب من

أهم هذه المواد .. وكان السودان مركزا هاما لهذه الساعة .. .. ومما ساعد تكاثر العرب ظهور تبر الذهب فى أرض المعدن ووادى العلاقى شرق اسوان .. .. وكانت هذه المناجم التى يخرج منها تراب الذهب ملكا لرؤساء القبائل البجاوية .. ولكن حاجة الإنسان للعيش وللكسب جعلت القبائل العربية تزحف نحو هذا الوادى .. .. وزحفت القبائل العربية أول زحفها الى الشرق ثم الى الجنوب وكان وادى العلاقى وأرض المعدن هو بداية هذا الزحف وكان ذلك فى القرن التاسع الميلادى .

وكثر عدد القبائل العربية بين هذه القبائل البجاوية .. .. ولاشك أنها فى البداية لم تستطلف القبائل البجاوية هذه الهجرة... وهذا ما حدث أن شنت القبائل البجاوية الغارات على هذه القبائل وعلى شواطىء النيل الأمر الذى أزعج أمير أسوان فأرسل إلى المتوكل على الله فى بغداد يشكوا أمرهم فأرسل اليهم هذا محمد بن عبدالله القمى ، واشتبك معهم وهزمهم ، ثم عقد صلحا معهم... بعد أن قتل زعيمهم... وأنتدب ابن أخيه ليذهب لبغداد ليطأ بلاط المتوكل على الله :

وكان هذا العقد الذى وقع فى القرن التاسع الميلادى هو جواز مرور للقبائل العربية والسماح للاسلام أن يدخل السودان من الشرق وأن تقام شعائره ولا يؤذى المسلم -- كل هذه الضمانات التى أعطيت للعرب المسلمين كانت هى أشارة دخول للعرب وللاسلام وبذلك كثر تدوق العرب من هذا الجانب حتى وصلت بمرور السنين إلى أرض البطانه عن هذا الطريق .

كانت قبيلة الحدارية (عربية أصلا) وهى من القبائل الكبيرة فى هذا الخط هى أول من عمد للصلح وأسلم بالجوار ومن هذه العلاقة أقيمت

الشعائر الاسلامية وصاهر العرب زعماء هذه القبائل ليأمنوا شرهم . . . وبهذه الوسيلة دخل العرب فى حياة هذه القبائل وتغلبوا عليهم ... وانتشر العرب عن هذا الطريق طلبا للمرعى أو بحثا عن الوحده أو المرعى الجيد أو خلق زعامة لكل قبيله عربية بعد أن أصبحت لهم السيطرة العددية والتزاوج مع هذه القبائل البجاوية التى تشاركهم فى نفس المناخ والحياة المعيشية .

وحينما أصبح للقبائل العربية السيطرة على هذه السهول الشرقية حتى ميناء عيذاب شجع هذا الهجرة العربية لكثير من القبائل العربية من جهينة وربيعة منهم من سار حتى النيل من جانب الضفة الشرقية حتى وصل العرب إلى ملتقى النيلين وساروا غرب النيل .

أما من ناحية غرب السودان فقد كان الأمر يختلف عن الشمال .. فقد انتشرت القبائل الزنجية جنوب الصحراء الافريقية قبل ظهور الاسلام . . . عاشت حياة بدائية فى الأول ثم تطورت هذه المجموعات بسرعة أكبر من مجموعات جنوب السودان التى وقفت الطبيعة دون استقرارها أو ربما خيرات الطبيعة للمجموعات الزنجية التى لا تكلف جهدا هى التى عطلت الخلق والابداع . . . فقد وفرت الطبيعة للمجموعات الزنجية التى تسكن جنوب السودان كل الخيرات من ثمر وأمكانيات طيبة وحيوان بأقل جهد . فالأرض خضراء كثيفة بها شتى النباتات والأشجار المثمرة التى ساعدت تلك المجموعات على الراحة . . فالطبيعة لم تطالب منها التعب لغرس الحبوب ورعاية الحقول . . . . وقد منحتهم الطبيعة هذه الميزة ليوفر طاقته ووقته للدفاع عن نفسه من الوحوش المفترسة التى تعيش معه داخل الأشجار والحشائش والمستنقعات فلو فرضت عليه الطبيعة الواجب الطبيعى للبحث والتعب والاجتهاد فى لقمة العيش من غرس وحصاد .. الخ

لكانت مكنت الوحوش الضارية من صيده ولما وجد الوقت الكافى والطاقة لمحاربتها والهروب والاحتباء منها .

أما فى غرب السودان فالأراضى سافنا تختلف اختلافا مناخياً ونباتيـــا عن منطقة الجنوب وأرض الجزيرة التى كانت فيما مضى كثيرة الأعشاب والاشجار والمستنقعات ... فالأرض فى غرب السودان رملية ... وبها بعض الجبال والوديان بما يساعد على الزراعة والرعى وبهذه الحرفة تكون المجتمع الزنجى الغربى الاول الذى أمتد جنوب الصحراء حتى النيجر والسنغال .

ولكن حال هذه القبائل لم يستمر كما تحب فقد حدث اضراب سياسى عنيف فى الدولة الاسلامية ... سقطت دولة الأمويين بعد أن انتشرت على طول شمال أفريقيا بأنصارها وقبائلها لتظهر دولة فتيه قوية هى الدولة العباسية .

ولم يكن سقوط الدولة الاموية هو سقوط حاكم واحد أو بيت أو قبيلة أنما كان سقوط نظام تمليه عصبية واسعة حادة الامر الذى ملأ النفوس بالحقد والكراهية لكل أنصار الفريق الآخر الامر الذى جعل تدفق القبائل العربية المناصرة لبنى أمية هاربة إلى خلف الصحراء الافريقية أمرا مقبولا ومعقولا حتى فرضت هذه الهجرة العربية شخصيتها وكثرتها على القبائل التى تجاور الصحراء مما قاد لانتشار العنصر العربى فى وسط أفريقيا ولانتشار الاسلام بين القبائل الزنجية واختلاط القبائل بالمواطنين مما قاد لقيام دوليات إسلامية فى وسط أفريقيا فى السنغال والنيجر وبرنو وكانم ووداى ودارفور .

ومن هنا تبين لنا صوره حدود السودان الغربية التى واجهت هذه الدويلات الاسلامية العربية الزنجية التى تمتد من نهر السنغال فالنيجر وتشاد وبرنو وكانم .

وإذا عرفنا أن سقوط دولة الامويين كان فى القرن الثامن الميلادى . . . . وبدأ زحف هذه القبائل التى تطاردها العصبية القبيلة الحاكمة . . . والعداء المذهبي أن تتوغل فى أفريقيا وقد أخذت هذه القبائل وقتا طويلا لتتأقلم مع المجتمع الجديد الذى واجهته والظروف السياسية التى تحيط بها ولا شك أن موقفها السياسى فرض عليها السكون وطلب الملجأ أكثر من محاولة أثارة هذه القبائل والا أصبحوا محاصرين بعداوة الحكم العباسى من الشمال ثم الفاطمى فيما بعد وهذه القبائل الزنجية فى شمال ووسط أفريقيا . .

وحينما وصل العرب إلى هذه الأراضى لم يجدوها خرابا بل وجدوا فيها نظاما للادارة والحكم والتجارة رائجة . وطرقها سائرة بين الجنوب والشمال والشرق والغرب .

ومن هذه الدويلات القديمة قامت دولة وثنية فى غرب السودان هى دولة دار الفور أو سلطنة دارفور قبل وصول العرب من العنصر السودانى الذى استوطن وسط أفريقيا ثم مهد هذا التجمع إلى ظهور سلطنه الفور الاسلامية فيما بعد .

العرب فى السودان الشمالى بعد حكم الفاطميين :

كما جاء فى دخول العرب على غرب السودان ببداية زوال حكم الأمويين وقيام دولة العباسيين وإنشقاقها بقيام دولة الشيعة الفاطمية على شمال أفريقيا أى بقيام دولة الأدارسة فى المغرب وانتقال عاصمتهم من المهديه إلى قاهرة المعز لدين الله عام ٩٧٠ م .

أستمر حكم الأمويين على شمال أفريقيا ومصر حتى عام ٧٥٠ م حتى انتزعت مصر من يد الأمويين الذين لم يمهدوا لانصارهم من الاستيطان فى مصر بل كانت فتوحاتهم فى المغرب تتطلب أعدادا هائلة من العرب ولذلك كثر عدد العرب الأمويين ولم يستقر فى مصر إلا عدد بسيط من الجند وصلوا حتى حدود المملكه عند إسوان ليحفظوا حدود المملكة ويجبوا الضرائب من سكان تلك المنطقة ويحافظوا على عدم غارات النوبيين عليهم .

وبأنتهاء القرن العاشر الميلادى وبداية القرن الحادى عشر بدأت القبائل العربية التى كانت تقيم جوار إسوان وتحرسها فى عهد الأمويين بظهور دولة الشيعة الفاطمية من الهروب إلى الجنوب ودخول السودان بعد أن أصبح الطريق مقفولا أمامهم من الشمال زاد عليهم القبائل التى أتت إلى مصر لمناصرة العباسيين فى حكم مصر ـ وبذا نزحت إلى مصر بعد الاسلام قبائل عربية تناصر بنى أمية ثم هربت هذه القبائل للجنوب . ـ ثم جاء الشيعة إلى القاهرة إنتصارا للعلويين وانشقاقا على العباسيين الذين تنكروا لآل البيت الذين استغلوا الدعوة لهم فى جمع أعداء بنى أمية والأطاحة بهم .

وبظهور الفاطميين على مصر أصبحت مصر ولايه شيعية لا مكان للامويين والعباسيين بها . . . وبذا بدأ توقف هذه القبائل إلى داخل السودان الشمالى .. وحيث كانت القبائل النوبية المسيحية تسيطر على أرض النوبة فلا مجال لهذه القبائل الهاربة فى هذا للطريق وهى تتحاشا الاحتكاك بهذه القبائل خائفة من العدو الذى يسيطر على الشمال .

العرب على النيل

أختلف ماكمايكل ومحمد عوض محمد فى نسب الجعليين مجموعة القبائل النيلية الميرفاب ـ الرباطاب ـ المناصير ـ الشايقية ـ الجوابرة الركابية ـ أختلفوا فى نسبهم إلى ابراهيم جعل بن سعد بن فضل بن عبد الله بن عباس بن عم الرسول صلى الله عليه وسلم ـ اختلفوا فى هذا النسب وهذا الاسم وعدد الأجيال التى جاءت بعد الرسول (صلعم) وفى القرن الذى جاء فيه إبرهيم جعل هذا حتى كون هذه المجموعة الجعلية الكبيرة .

ومن نسب ابراهيم جعل هـذا يظهر انما نسبة إلى العباسيين . . . ويمكن أن نرجح صحة هذا النسب لحكم العباسيين لمصر فى القرن الثامن الميلادى وانسحاب العباسيين من مصر للشيعة وهروب اتباعهم للجنوب . . . ولا شك أن ابراهيم جعل هذا كانت له المكانة بالنسبة للقبائل العربية التى هاجرت إلى الجنوب وجعلت إبراهيم هذا كبيرها وزعيمها نسبة لأنتمائه للبيت العباسى وخضوع القبائل العربيه المحبة لآل الرسول ولاسرته وبذلك جعلته زعيما لها فى مهجرها الجديد حتى بعد أن اختلفت معه فى الطريق بحثا عن مأوى وأرض للسكن . . وبذلك جعلت أسم هذا الزعيم حيث ذهبت وجعلته أبا روحيا لها رغم

أنها لا تنتمى إليه فى الدم بل بالطاعة والولاء والمذهب السياسى . . . .

وبذلك انتشر أسم إبراهيم جعل على كل القبائل التى هاجرت وسكنت ضفاف النيل وعبرت إلى كردفان كالجموعة والجمع والبديرية والجوامعة والفديات والبطاحين فى الجزء الشمالى من البطانة .

كل هذه المجموعات انتمت إلى ابراهيم جعل العباسى الذى هرب لا شك من دولة الشيعة الفاطمية التى قامت فى المغرب واستولت على مصر فى القرن العاشر الميلادى وبذلك يمكن أن نؤرخ بداية نزوح هذه القبائل للسودان بالقرن الحادى عشر الميلادى بعد قيام دولة الكنوز فى إسوان . . .

وبأنسحاب كل القبائل التى كانت تناصر مذهب العباسيين بدأ فى القرن الثانى عشر الميلادى إستيطانها على النيل وزحفها إلى الغرب والبطانة حتى كان القرن الثالث عشر والرابع عشر حتى ملأت السهول والوديان وقوبلت بالرضا من قبائل النيل القليلة العدد التى لم تجد من هذه المجموعات مضايقة لها فى معيشتها فمساحات السودان الشاسعة ما زالت ترحب بالمزيد من كثافة السكان .

سكان غرب السودان ودخـــول العرب

كما أسلفنا بأن منطقتي كردفان ودارفور أذا قورنتا بمنطقة جنوب السودان تعدان أكثر ملائمة للاستقرار . فالطبيعة عنصرها المساعد للتطور والحضارة فطبيعة أرض الجنوب الاستوائية ، نباتاتها وأدغالها ووحوشها كانت حائلا دون نشوء الاستقرار وكانها حائلا دون الحضارة . أما في ساحتي المديريتين فالأمر يختلف بالجنوب من المديريتين تربة السافانا الغنية ثم سافانا متوسط من الشمال السافانا الفقيرة حتى تقابل صحراء النوبية .

وهذا المناخ طبيعي المتنوع الغني بالوديان والهضاب والأعشاب المختلفة الصالحة للرعي والزراعة قادا لعمران هذه السهول والوديان .

سكنت هذه السهول والهضاب والوديان الرملية عناصر زنجية عرفت أكبر مجموعتين منهما بالتنجور في شرق منطقة جبل مرة و« الداجو » أو « التاجو » في جنوب شرق مديرية دارفور « والباجرمى » في الجنوب الغربي . ثم الفرديت في جنوب دارفور والكنجارة في جبل مرة ، هذا فيما يختص بالاجناس الاصلية التي كانت تعمر منطقة غرب السودان ، وهي الأجناس الاصلية التي كانت تعمر منطقة غرب السودان ، وهي الأجناس زنجية الاصل قبل أن تصل اليها الهجرات العربيـــة

وهذه الأجناس الزنجية التي عمرت أواسط افريقيا حتى نهر السنغال . ولا شك أن تسال هذه القبائل ، لتملاء أراضي افريقيا وأوسطها ، جاء نتيجة لتسال هذه القبائل التي سكنت خط الاستواء ، وحوض النيل وغرب أفريقيا ، ووجدت

نفسها بين الأدغال والحيوانات ، الأمر الذى هيأ للقبائل التى خرجت من خط الأستواء وأعالى النيل أن تتقدم فى عالم الحضارة والأستقرار وأن تخلف المدينيات وتنشىء الدوله عما مهد لهذه الدويلات الزنجية المتقدمة أن تتعامل مع القبائل العربية الهاربة من الاضهاد السياسى وتمتزج بها وتستفيد من حضارتها ، وعلمها وتخوج تلك المدينيات الافريقية من عالمها المحلى لعالم أرحب والى رؤيا جديدة فتحها لهم العرب الرحل بأبلاغهم أن هنا لك عالم آخر غير عالم هذه الدويلات المنعزلة المنحصره فى أواسط افريقيا كما أن إجتياز العالم الذى هرب منه العرب كان موضوع تعليق ودهشة سكان وسط أفريقيا إذ يسمعوا لأول مرة أن هنالك بلاداً عامرة غير بلادهم وأن هنالك ممالك وحكاماً وهنالك بشر بخلافهم وهنالك جنس آخر غير جنسهم وبشره تختلف عن بشرتهم .

هذه الأشياء البسيطة لاشك كان لها آثرها فى تفتح ذهن سكان وسط أفريقيا إذا كانوا لا يظنون أن هنالك بشر بخلافهم وأن هنا لك إنسان له بشرة غير بشرتهم وأن هنالك عالم فسيح يحتاج الوصول اليه إلى شهور وسنين من السفر بالجمال والقوافل .

سكن « التنجور » « والداجو » كأكبر قبيلتين أرض دارفور شاركهم كثير من القبائل الزنجيه الصغيرة كالفرديت والبرقد والأباديما والتموركه وفنجرو وورونجة والمساليط والاباوما والكنجارو والشلك فى الجنوب الشرقى . . . ولكننا إذا حاولنا أن نهتدى إلى القبائل الأولى التى سكنت هذه الاراضى فلا شك إننا لن نجد هذه الأسماء الكثيرة التى ظهرت بظهور سلطنة دارفور والتى وصلت الينا عن طريق الممالك التى قامت فى وسط أفريقيا . وعلى هذا علينا أن ننظر إلى سكان السهول قبل تكوين هذه المدينيات والحضارة حتى نصل إلى القرن الخامس عشر الميلادى .

إننا نرجح أن أصل هذه القبائل الزنجية زحف إلى هذه السهول من القبائل الزنجية التى تسكن الأنهار التى تملأ منطقة خط الاستواء وأعالى النيل ، وبخروج هذه القبائل للسهول والشمس وجدت الظروف الطبيعية ملائمة أكثر للاستقرار بل الإستقرار كان هو الحل الوحيد لحل مشكلة العيش قبل أن تعرف مهنة الرعى وتربية الحيوانات التى جاءت أخيراً وتعلمها الانسان بعد أن عرف كيف يميز الحيوانات المفترسة من غيرها . . حتى كثرت هذه المواشى وفرضت عليه من جديد حياة التجوال . . والبحث عن مرعى أو وادى .

كان جبل مرة مصدر حياة لكثير من القبائل المستقرة فى غرب السودان وعرف جبل مرة بتنوع النباتات لارتفاعه وصلاحيته للزراعة فى منحدراته مما ساعد على نمو نباتاته طول السنه وذلك لتنوع مناخه ووجود مياه الأمطار به والينابيع الكثيرة التى تسقى الزرع طول السنة .

وهــذا الجبل وثروته كان يجب أن يكون مصدر قوت لسكانه . . . وأن يستفيد المقيمين به لتطوير حياتهم وفرض شخصيتهم بما لهم من الإمكانيات والثروة على بقية القبائل التى تسكن تحت الجبل أو بالقرب من وديانه ولكن ما حدث أن القبائل التى تسكن هذا الجبل انزوت فيه وحرسته من هجمات القبائل الكثيرة الأخرى الطامعة فى خيرات هذا الجبل . وأصبح موقف القبائل المستوطنة لهذه الجبل موقف المدافع على طول الزمن بدل موقف المهاجم يقوى ويهدد أن كثرة القبائل المحيطة بالجبل جعل فرض السيطرة عليهم أمراً صعباً إذ يستطيعون أن يفروا إلى السهول ثم يعودون وذلك يعنى نزول سكان الجبل من جبالهم لمطاردة المغيرين وهذ يفتح باباً لقبائل أخرى لتهجم من جهات اخرى وبذلك فضل سكان هذا الجبل موقف المدافع عن ثروتهم الطبيعية دون أن يستعبدوا منها وأن يستفيدوا من امكانيات القبائل التى حولهم او حضاره الشعوب الأخرى .

ولم يسمحوا بأستغلال هذا الجبل الأستغلال الطيب المثمر المفيد بل إستفادوا منه حسب حاجتهم المعيشية وليس حسب حاجتهم الحضارية التى تطلب منهم بناء دولة ومدنية .

غناء هذا الجبل ، وتدفق المياه منه للوديان دفع القبائل الزنجية التى عمرت تلك السهول للأقتراب منه والعيش على فائض مائه فى زمن الصيف . كان جبل مرة هو الأمكانيات المادية لنشؤ الدويلات السودانيه التى قامت فى دارفور . فغناء منطقة هذا الجبل كفلت الأستقرار لهذه القبائل بأن تعيش حول هذا الجبل ، أو بالقرب منه أو الوديان التى تنحدر منه . هذه الثروة الطبيعية كانت السبب المباشر لخلق التجمع الأول للأنسان الزنجى فى غرب السودان كما كانت ثروات النيل سببا فى نشؤ الحضارة الأولى وأرض النهرين ، الفرات ودجلة سبباً لأزدهار حضارة بابل فى تلك المنطقة كما كانت وديان وأنهار شمال البحر الأبيض المتوسط سبباً فى قيام حضارة الرومان والاغريق .

إكتشف الأنسان أن هذه الخيرات بعد سنين التجوال والبحث حتى أستقر به المقام عندما توفرت له أسباب الأستقرار .

تلك المنطقة الغنية فى الغرب المحيطة بجبال مرة كانت السبب فى حياة الدويلات التى ظهرت فى دارفور ولم تظهر فى كردفان ذات السهول الرملية الفسيحة الفقيرة من الأنهار مثل أرض البطانة التى أحسن حالا لوجود ثلاثة أنهار تحيط بها ولكن السهول التى فى وسط شبه جزيرة البطانة منعا قيام حضارة فى تلك السهول . أنما رفع ذلك لقيام حضاره على النيل ثم على النيل الأزرق بجوار ملتقى النيلين وبجوار الرهو والدندر أو مدينة سنار .

إذا حاولنا أن نتعرف على الأجناس الأخرى التى خالطت القبائل الزنجية قبل وصول القبائل العربيـة وتقبلها على هذه القبائل ، نجد فى الشمال الجنس الليبى شمال صحراء أفريقيا ثم القبائل النوبية على النيل ثم قبائل الشلك فى الشرق والجنوب الشرقى . . . واذا عرفنا أن قبائل الشلك التى تقهقرت الآن إلى بحر الغزال انها كانت تغطى وسط السودان حتى قرب ملتقى النيلين وأنهـا كانت ذات مناعة وقوة ثم من الغرب القبائل الزنجية الأخرى التى خرجت من خط الأستواء لتعمر وسط أفريقيا وتسكن على الوديان والسهول والبحيرات والأنهار ماساعد على خلق ظروف ملائمة مثل الظروف التى إتيحت للقبائل الأخرى والحضارات الأخرى . . ولـكن اكتشاف هذه الظروف لاشك جاء متأخراً بالنسبة للقبائل الزنجية بالمقارنة للأجناس الى سكنت أرض النيل والفرات وشمال البحر الأبيض المتوسط .

إذاً يتساوى مع قبائل الفور الأول سكان وسط أفريقيا فى نفس المستوى الحضارى والاجتماعى بظهور المجتمع القبلى أو الممالك الصغيرة وسط أفريقيا التى أمتدت على الأنهـار والوديان والبحيرات . تسكن فى شمالها قبائل الشلك القوية العريقة التى لاترغب فى الابتعاد عن حياة النيـل . . ويبدو أن احرار قبائل الشلك عن الابتعاد عن النيـل هو الذى حد من تطور مملـكتهم حيث قامت على شمال النيـل ممالك قوية عريقة . مروى القديمة ، وسوبه ثم الفونج .

إقتنع الشلك بملـكتهم على النيـل وقل خطرهم وأثرهم على تلك المنطقة البعيدة حول جبال مرة . والذى حدث هو مساهمتهم فى تعمير الأرض بكردفان وجنوب دارفور من الجماعات الهاربة أو القبائل الباحثة عن أرض

جديدة أما فى الشمال فقد كانت القبائل النوبية على النيل ثم العنصر الليبى الذى كان له أثر وغارات على النيل والذى دلت الآثار على أن هناك مدينيات عاشت فى الصحراء جنوب النيل على الواحات قبل أن تقضى الرياح الرملية الصحراوية على تلك الوديان والواحات كما أن هذه الصحراء الافريقية الجرداء اليوم لم تكن قبل عشرات الآلاف من السنين كما هى بل كانت عامرة بالحياة والحيوانات والانسان مما ساعد على هجرات كثيرة من القبائل الليبية للجنوب وكذلك كثير من القبائل النيلية للجنوب مما ساعد على أنعاش حركة الحضارة والمدنية فى غرب السودان فى عصورها الأولى .

وتذكر لنا دائرة المعارف الاسلامية وماكمايكل وبارث ولامين سلجان وبالمر بعض الحقائق العلمية عن الاجناس التى سكنت وسط افريقيا يجدر بنا اثباتها هنا قبل مناقشتها .

فى هذه القبائل الأصلية التى عمرت أرض دارفور أن الداجو من أقدم العناصر التى سكنت دارفور وتعيش جماعات منها فى دار صليح ودار مسيريه فى جنوب غرب كردفان . . وهم أول من أسس مملكة فى دارفور وأن التنجور هم الذين أزاحوهم من وسط دارفور إلى مواطنهم الحاليه .

وهذا الزعم الذى ذهب اليه هؤلاء الكتاب يصيب أثباه . . . فقد عرفت هذه المنطقة العمران منذ زمن بعيد إذا أدركنا أن العرب كونوا دولهم الاولى من زنوج تمبكتو فى القرن الحادى عشر الميلادى ولم يصل العرب فى ذلك الحين إلى هذه المناطق كما أنهم لم يكتبوا عن هذه المنطقة المؤرخين الاوائل الذين كتبوا عن الممالك الاسلاميه فى غرب أفريقيا فهذا الزعم لا يقوم على

أساس ولا تستند فيه إلى روايات تاريخيه حيث لاتوجد أى أثار مدونه عن التاريخ القديم لهذه الأجناس الا التنجور الملى أما محاولة هذا الزعم فلاتستنده أى حجه عليه . أذا عرفنا أن هذه الارض كانت أهله بالسكان قبل الميلاد ووجود الشكل على النيل والارض التى حواليه يثبت هذه الحقائق

التنجور : —

يذكر أهل البلاد أن الداجو أول من أسس دولة فى منطقة دارفور وتلاهم التنجور ثم الفور . . وزعم ما كما يكل أنهم من النوبيين ومن هلالك وأنهم هاجروا فى بلاد النوبه فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلادى واشتهروا هناك بأسم التنجور وأسسوا دولة لداجو فى جنوب جبل مره ، ثم بسط التنجور سلطانهم على وادى غرب دارفور .

فأدى ذلك إلى اضعاف سلطانهم فى دارفور خاصة ولذا انتزعته منهم أسرة من الفور تسمى أسرة « كيرا » . واسست سلطنة دارفور من التنجور جماعات موزعة بين دارفور ، ومرواى وكانم وبرنو :

ويبدو أن الذين جاءوا بهذه الآراء أعتمدوا على روايات فى زمن متأخر من أناس لا يدركون معنى الروايه العلميه . فى حين يصعب إيجاد روايه علميه لأهل هذه المجموعات إلا فيما يخفض بالقبائل العربيه أو النوبيه التى أتت حديثا إلى هذه الأراضى .. ولكن هذه الأجناس هى التى عمرت هذه الاراضى دون أى مؤثرات خارجية كبيرة من النوبيين أو الليبيين وربما يكون الشكل تأثير كبير على هذه الاجناس أكثر من أى عنصر آخر ... ثم أننا نجد العالم لايمكن أن يصل إلى هذه النتيجة كما أنهم لم يحاولوا أن يتصوروا

أسلوب العمران الذى يحدث فى بدايه الحياة الحضاريه ولا أنقسام القبائل فى قبيله واحده إلى عدة قبائل بسبب التشاجر والاختلافات العائليه والزعامة مما يدفع إلى أهل البيت الواحد إلى النزوح على آراضى جديدة لتكوين حياه جديده لهم فى خلق قبيله بمرور السنين بهذا الانقسام والانشقاق .

البرقو : من سكان وادى برنو ، انتقلت جماعات منهم إلى دارفور حيث عرفوا مع غيرهم من الجماعات الوافده من وادى بأسم المراريت ومعظمهم يسكن شرق ووسط دارفور .

التكرور : شعب من الزنوج يسكن معظم وهادى نة السنغالية ويعيش شعبه منهم فيما بين النيجر وبحيرة تشاد ولاسيما فى سكوتو وربما يكون تكرور هى الاسم الذى كانت تعرف به فى وقت من الاوقات مدينة بالقرب من بعد السنغال والمملكة التى كانت عاصمتها هذه المدينة وموضعها الان فوته السنغاليه ثم أطلق أسم تكرور على جميع بلاد السودان التى دخلها الإسلام وهى الممتده من المحيط الاطلنطى إلى حدود وادى النيل وأصبحت كلمة تكرورى فى نظر العرب مرادفه لكلمة سودان .

الفرتيت أسمه اطلقه العرب على القبائل التى تسكن فى أقصى جنوب دارفور وشمال غرب بحر الغزال وفى أقليم وادى وزعم ماكما يكل أنهم سكان جبل مره الاصليين وأزاحهم الداجو ثم التنجور والعرب من مواطنهم الاصليه فى جبل مره إلى الجنوب والفرتيت قبائل سته منها رونجه وبندلا ، وشت ، وبنجا وقراوجيه .

البرقو : من سكان وادى وبرنو أنتقلت جماعات منهم إلى دارفور ، مع غيرهم من الجماعات القايله الوافده من وادى باسم المراريت ومعظمهم يسكن شرق ووسط دارفور .

وفى هذا التعريف نظهر لنا القبائل التى حملت شتى الأشيـاء والتى انشقت بعضها البعض أو التى أمتزجت مع بعضها رغم اختلاف الاسماء فى وسط أفريقيا من دارفور حتى التنجور والسنغال . وهى قبائل الداجو والتنجور والتكرور والأنهار المتشابه فى طبيعتها ونباتاتها وحشائشها ومناخها .

ظلت هذه القبـائل الزنجيه صافيه العنصر إلا من بعض الهجـرات الليبين والنوبيين والشكل ، التى ساعدت فى تطور مدينه هذه الجماعات وظهور تلك الممالك حول جبل مره قبل ظهور العرب المسلمين فى أفريقيا ووضح تلك الجماعات المجاوره يسمح منطقيا بالهجره .

وظهر العرب كما سبق كما هاجرين وفاتحين لظهور الإسلام فى النصف الاول من القرن السابع الميلادى ودخول عمر بن العاص إلى مصر عام ٢١ هـ .

وقد انتشر العرب على طول شاطىء أفريقيا الشمالى فى عصر بنى أميه حتى جاء عام ٧٥٠ وسقطت دولة الامويين لتبدأ دولة العبـاسيين . هـذا الانتصار للعباسيين على الأمويين بعد سنين من الحقد والتربص والـكيد شحن النفوس والقبائل والانصار بشتى المشاعر والـكراهيه السياسيه التى غلبت على رسالة الدولة الإسلاميه الحديده وحتى قادت لتمزقها كما سنرى فيما بعد .

ويتغلب الدولة العباسية على الدولة الأمويه فى القرن الثامن الميلادى يمكن

أن نؤرج بدايه زحف القبائل العربيه عن الأراضى التى أحتلتها فى أفريقيا من قبل لتفسح المجال لأنتصار الدولة العباسيه ليحتلوا مكان تلك القبائل . هذا الزحف كان تنقله على الشاطىء الشمالى لأفريقيا ويبدوا أن القبائل العربية التى جاءت إلى مصر زمن الامويين لم تستقر فى مصر بالنسبة للحاجه العسكريه التى كانت تطالها الفتوحات الأسلاميه فى شمال افريقيا والأندلس لذا نلاحظ إن القبائل العربية التى أستوطنت مصر لم يكن لها شأن حتى القرن الثامن الميلادى انما جاء ذلك بعد القرن الثامن الميلادى واستلام العباسين للسلطه وبهم بدأ استيطان القبائل العربيه بأعداد كبيرة فى مصر لان عصر الأمويين كان عصر فتوحات وأنتصارات لم يسمح لقبائل العربيه صاحبة الدعوه بالراحه والاستجمام بل كان جنود الدعوه وسيوفها حيث أمتدت قوة الدولة الأسلامية الأمر الذى جعل أعدادا هائله من هذه القبائل تنتشر على شمال الشاطىء الأفريقى :

بأنتصار العباسيين على الامويين بدأت حركة قلق عند القبائل المناصرة للأمويين وبدأت حركة التحرك من أراضى الدولة الجديدة .. وبدأ أبى العباس السفاح فى تعقبهم ومطاردة آخر ملك لهم وأرسل جنده خلف مروان بن ولحقه قائد جيش العباسيين عبدالله بن على بالشام ثم طاردته حتى جيوشه من قريه بوصير بمصر ، وقتله وأرسل رأسه لعبدالله بن على العلى الذى بعث به إلى إبن العباس السفاح الذى كان ابتهاجه برؤيه رأس خصمه أمامه أن كر ساجداً لله وأنشد قول الشاعر :

لو يشربون دمى لم يروا شاربهم ولا دماؤهم لقيظ ترويني

ومافعله السفاح بضيف بمجلسه سليمان بن هشام بن عبد الملك حينما اغتاظ أحد أنصار العباسيين لوجود هذا الاموى بينهم انشد .

لا يغرنك ما ترى من رجال　　ان تحت الضلوع داء دويا

فضع السيف وأرفع السوط حتى　　لا ترى فوق ظهرها أمويا

وهذا يكشف لنا المظهر الانتقامى الذى ساد على خلفاء العباسيين والحقد المكبوت عند أنصارهم للأمويين . الذين أذاقوا العلويين والهاشميين من العذاب والتنكيل ، الامر الذى أنعكس على سائر سياسه الدوله فى معاملة جنودها وأنصارها لعمال الدوله السابقة وأنصارها .

وقد عمل عبد الله بن على بالشام ماجال بصدره من حقد فأكثر القيود وطارد الاحياء . . وأخرج اعظام من القبور وأحرقها .

بنى أميــــة قد أفنيت جمعكم　　فكيف لى منهم بالأول الماضى

يطيب النفس أن النار تجمعكم　　عوضتم من لظاها شر معتاض

هذا ما فعله العباسيين فى بدء الأمر بالامويين حتى أحلوهم من أمارتهم وهربوا إلى الاندلس ولأن من وجد الفرصة عند دولة الأندلس البعيده عن سيطرة العباسيين وهرب من الاعراب من هرب إلى داخــــل افريقيا طالبا للأستقرار وضمانا لحياته .

رغم التماسك الظاهرى لذى بدأ على الدوله العباسية قبل أن تظهر دعوة العلويين وإنشقاقهم وتكوينهم دولة الفاطميين بالمغرب الامر الذى زاد الحال سوءا بالنسبه لأنصار الأمويين .　فإن كان العباسيون غلاظاً منهم واكثر حقداً فالشيعه دائموا ثائراً وحقداً على قتله آل البيت .

وبقيام دولة الادارسه بالمغرب الاقصى مناصرة الشيعه إنتهى عصر الأمويين وانقسمت الدوله العباسية ، ظهرت عوامل التناقض التى دفعت الجميع للقضاء على حكم الامويين وأستلام السلطه ونسيان آل البيت فى هذا الحق الذى جمع العباسيون حوله العرب والفرس للقضاء على دولة الأمويين . . .

وفى نهاية القرن الثالث الهجرى (العاشر الميلادى) ظهرت دولة الفاطميين الشيعية بعد أن مهد لها الادارسة فى المغرب الاقصى وزحف الفاطميون على مصر عام ٩٧٠ م بقيادة جوهر الصقلى فى عهد المعز لدين الله وبنى القاهرة عاصمة الدولة الفاطمية الجديدة معلناً بذلك قيام دولة شيعية قوية فى أفريقيا منفصلة عن كل نفوذ من أرض الرسالة الجزيرة العربية وبذلك أصبح العرب سادة شرق أفريقيا وأصبحت الأرض ممهدة لأنصار الشيعة الذين كانوا يحلمون بدولة آل البيت ، بنصرة دعوتهم وعودة الحق إليهم ، قد تحققت على يد الفاطميين تيمنا بفاطمة الزهراء . . . وانتقلت العاصمة من المهديه بالمغرب إلى أرض النيل وكان قيام كل من الدولتين له أثر على دخول العرب على غرب أفريقيا وعلى السودان الشمالى كما سنرى فيما بعد .

ويبدو أن الاضطهاد السياسى بقيام دولة الادارسة بالمغرب أدى إلى هروب أعداد هائلة من أنصار الأمويين إلى داخل أفريقيا حيث لا يوجد حاكم يساند العباسيين يخشى من غدره ، رغم التجاء البعض إلى الاندلس . لكن الاعداد الكبيرة التى وازنت الامور وجدت الامان المطلوب هو فى هذه الارض الجنوبيه وبذلك سارت القوافل داخل الصحراء والوديان والجبال وأنتشرت على غرب افريقيا حتى وصلت السنغال والنيجر ووسط أفريقيا ، ووجدت الطبيعة تلائم حياتها وطبيعتها البدوية فعاشت هذه القبائل العربية فى سلام . لم يقل من عددها عدو أو حرب ، وتكاثر عددها بمرور السنين حتى ظهرت فى

عام ١١٠٠ م دولة تمبكتو المسلمة على نهر النيجر وحملة لواء الرسالة الجديدة بين هذه الشعوب التي لم تعبد آلهة من قبل ودخلت الدين الاسلامى فى يسر ومكنت للعرب والاسلام من أن يستقروا فى وسط أفريقيا . . .

لاشك أن قيام دولة « تمبكتو » لم يمكن قيام دولة اسلامية لها قوة القاهرة أو بغداد بل كان بدايه تكوين لخلق نظام للجماعات المسلمة التى تكاثرت على نهر النيجر . . وخلقت أول بذرة لدولة المسلمين بين الزنوج ولتغلب العنصر العربى على زنوج وسط أفريقيا والانصار فيهم . . .

ظهرت دولة تمبكتوا وقبائل وسط أفريقيا تعيش بقانون القبلية ، وتطور بها الزمن حتى ظهرت دولة برنو وكانم وودای ودارفور على نفس الخط مالئة وسط أفريقيا بدويلات صغيرة لم تعرف الاسلام فى بدايتها ولم يستطع العرب المتجهين إلى أفريقيا التجرؤ على سلب سلطة تلك الدويلات أو التى عاشوا بجاورين لها أحسن جوار مسالمين محاولين الابتعاد والتحرش بهذه الجماعات قدر أستطاعتهم . فهم فى موقف لايحسد عليه وأخبار دولة الفاطميين وبسط نفوذها على كل الطرق مازالت تصل اليهم وقفل طريق العودة لذا رفضوا الدخول فى مشاحنات تضرهم إلى الالتجاء إلى أعدائهم الشيعة .

وبذلك كثر عدد الاعراب حول قبائل جبله مرة الآتية من ليبيا وعاشوا مع آبائهم ورعيهم على الوديان مبتعدين قدر المستطاع عن هذه الدويلات الزنجية وعزوا السهول الشمالية . . .

وحيث لم تكن لهذه الدويلات سلطه واسعة تجمعهم فلم يستطيعوا طرد

هؤلاء الاعراب ، حيث لم يفكر هؤلاء الأعراب فى مضايقة هذه المجموعات فى أراضيها ورزقها حيث كانت الأرض واسعة لمجموعات أكبر ، وما زالت تلك السهول كافية لمجموعات أكبر ولأعداد هائلة من المهاجرين . . .

فقد أنتهت مشكلة التزاحم على الاراضى والقوت التى ربما لو وجدت لخلقت صراعا عنيفاً بين هذه القبائل المستوطنة وبين القبائل المقيمة حول الجبل والوديان والانهار . . .

وبذا ظهر العنصر العربى على حدود دارفور الشمالية ولم يذكر لنا التاريخ أى شيء عن العلاقات الاولية وأثر هؤلاء العرب على العناصر الزنجية التى تحكم دارفور . . . إلا روايه المعقود الذى يرجع اليه أسلام دولة دارفور وادخال الدم العرب على البيت المالك .

ظهر الاسلام فى منطقة دارفور وكردفان ، بظهور العرب على الحدود الشمالية على هاتين المدينتين ، وتوغلهم داخل هاتين المديرتين مما جعل السلاطين القائمين على شعوب هذه المناطق من المتأثرين بدين هؤلاء العرب وزعمائهم الذين أوجد علاقات مامع علماء القبائل السودانيه .

وما تحكيه الروايات التاريخية أن السلطان سولنج هو جد مؤسس سلطنة الفور الإسلامية فقد إقتسم سليمان سولنج حكم كردفان ودارفور مع أخيه المسبع أخذ أقليم كردفان وأخذ هو أقليم دارفور وأن السلطان سليمان سولنج والذى تدعى بعض الروايات انه حفيد أحمد المعقور من بنى هلال الذى حقره أخيه فى طريقهم إلى المغرب ففر بعبيدة إلى دارفور وشارك بعلمه فى تنظيم سلطنه الفور حتى زوجه سلطان الفور من إبنته وبذلك دخل الدم العربى على الدم

الزونجى . ومعه دخل الاسلام . وهذا التاريخ غير واضح المعـالم وبدايه هذه السلطنة غير مؤكد ، ولكن بدأ حسب الروايات فى القرن السادس عشر الميلادى لأن سليمان سولينج حفيد المعقور حكم سلطنة دارفور عام ١٦٤٠ ويرجح أن يكون بداية هذه الأسرة العربية الهلالية فى أواخر القرن السادس عشر الميلادى وبهذا التاريخ يمكن لنا أن نؤرخ دخول سلطنة دارفور تحت الأثر العربى الذى لاشك إن صحت رواية المعقور قد مهد له العرب المجاورين لسلاطين الفور منذ زمن بعيد حتى يجد المعقور الأرض ممهدة ليعمل فى خدمة سلطان الفور .

ويحكى عن سليمان سولنج أنه بدأ اصلاحات كثيرة على سلطنه وشن غارات عديدة بلغت ٣٣ غارة على العرب والقبائل لاخضاعها تحت طاعته وقد حكم سلطنة دارفور من عام ١٦٤٠ م إلى ١٦٧٠ م فى خلالها نظم شئون هذه السلطنة وأرسى قواعدها لتستمر فى دارفور ، ويفتح المجال للقبائل العربية داخل إقليم دارفور وكردفان حتى تتغلب عليها وتنصهر فيها بمرور الزمان

وبظهور السلطان سليمان سولينج يمكن أن نعتبر بداية سيطرة العرب على القبائل وسيادتها على أقاليم واسعة من إقليم دارفور وكردفان وسنعود إلى أثر هذا السلطان ودخول الاسلام فى غرب السودان . . .

العـــرب فى شـرق السودان :

وربما يمكن قد تأخر دخول العرب إلى داخل السودان وظهورهم كوحدة متماسكة او كمجموعات لها شأنها والاسلام كذلك شأن بوجودها إذا ادركنا أن تأسيس المملكة الاسلامية الكبيرة تم فى القرن السادس عشر الميلادى فى سنار بين العبد لاب وعمارة دنقس .

وإذا اردنا أن نتتبع تاريخ هذا الجزء من السودان فسنجد أن العلاقة فى هذا الجانب الشرقى قديمة جدا إلى ماقبل الميلاد بالاف السنين .. .. . فلو وقفنا عند قصة اهل الفيل وملك الحبشة وهجومه على الكعبة يسود هدمها بالقبلة وحدوث المعجزه وظهور الطير ورميه بحجارة من سجيل لاستطعنا أن نتصور مكانة شعوب هذه المنطقة فى القوة والمناعة حتى تحاول أن تنتقل إلى الجزيرة العربية لتحتلها .. لاشك ان هذه المنطقة بين الشاطىء الافريقى والشاطىء العربى اليمنى كانت قديمه وأن الاتصال كان قائما وربما كان هو أهم اتصال تم بين هاتين المملكتين العربية والحبشية وهذا يؤكد قدم القبائل العربية التى سكنت الهضبة الحبشية والامارات الاسلامية التى عاشت داخل الدولة المسيحية والفراغ الذى حدث بين المسيحية والاسلام واضطهاد الاول للمسلمين الأمر الذى قاد لنزول كثير من هذه القبائل المسلمة العربية إلى داخل السودان ونشره بين قبائل النيل الازرق ومنحدرات جبال البحر الاحمر والهضبة الحبشية .

فقد ظهرت على هذه المنطقة أول دولة إسلامية فى السودان لها كيانها العربى على البحر الاحمر عند مدينة سواكن . وهى مملكة « البللو » . لهذه المنطقة

التجارية الهامة من قدم فقد نشأت قبل عالكة البيالو درلة وثنية لم تتأثر بالمسيحية التى تنتشر على الهضبه الحبشية يؤكد هذا تاريخ اوتيريا ... ويبدوا أن انتشار نفوذ العرب والمسلمين على العالم وانفصال الكنيسة الحبشية جعل هذه المنطقة مفتوحة للمسلمين ونشر دعوتهم ...

ظهرت عالكة البلاد الاسلامية فى القرن الرابع عشر الميلادى لتحل محل الممالكة الحبشية التى عاشت فى هذه المنطقة وهذا يؤيده وثنية الهند نوره وعدم عبادتهم لدين .

فقد واجهة هذه المنطقة اندفاعاً عربياً من ثلاث جيهات من جهة الشمال من العرب الوافدين على أرض المعدن للعمل والتعدين حتى تسربوا إلى داخل أرض البطانة والنيل ومن جهة البحر للعلاقات التجارية التى كانت رائجة بين منتجات السودان والجزيره العربية وآسيا والاثار الخزفية التى وجدت عند ميناء عيذاب أخير كشفت عن اتصال هذه المنطقة بمنتجات وصناعات آسيا والصين ... ومكانة هذه المنطقة ....

والفخار الثمين الذى وجد فى الحفريات الأخيرة كشف غناء هذه المنطقة ورواج تجارتها لان الفخار الذى وجد كان غالى الثمن من اجود أنواع الفخار الذى كان يستعمله اغنياء القوم .

فقد عرفت ميناء عيذات منذ القدم وجاءت الكتب العربية القديمة ومؤرخين العرب وكانت ميناء تجاريا هاما .

ثم واجهه هذه المنطقة نزوح القبائل العربية من بنى عامر من أرض الحبشة من الجنوب الشرقى حاصدة البجة بين التلال والوديان فاتحين أبواب التأثير على سكان المناطق الاصلية فى ثلاث جهات .

دخول الاسلام فى المنطقة الشرقية :

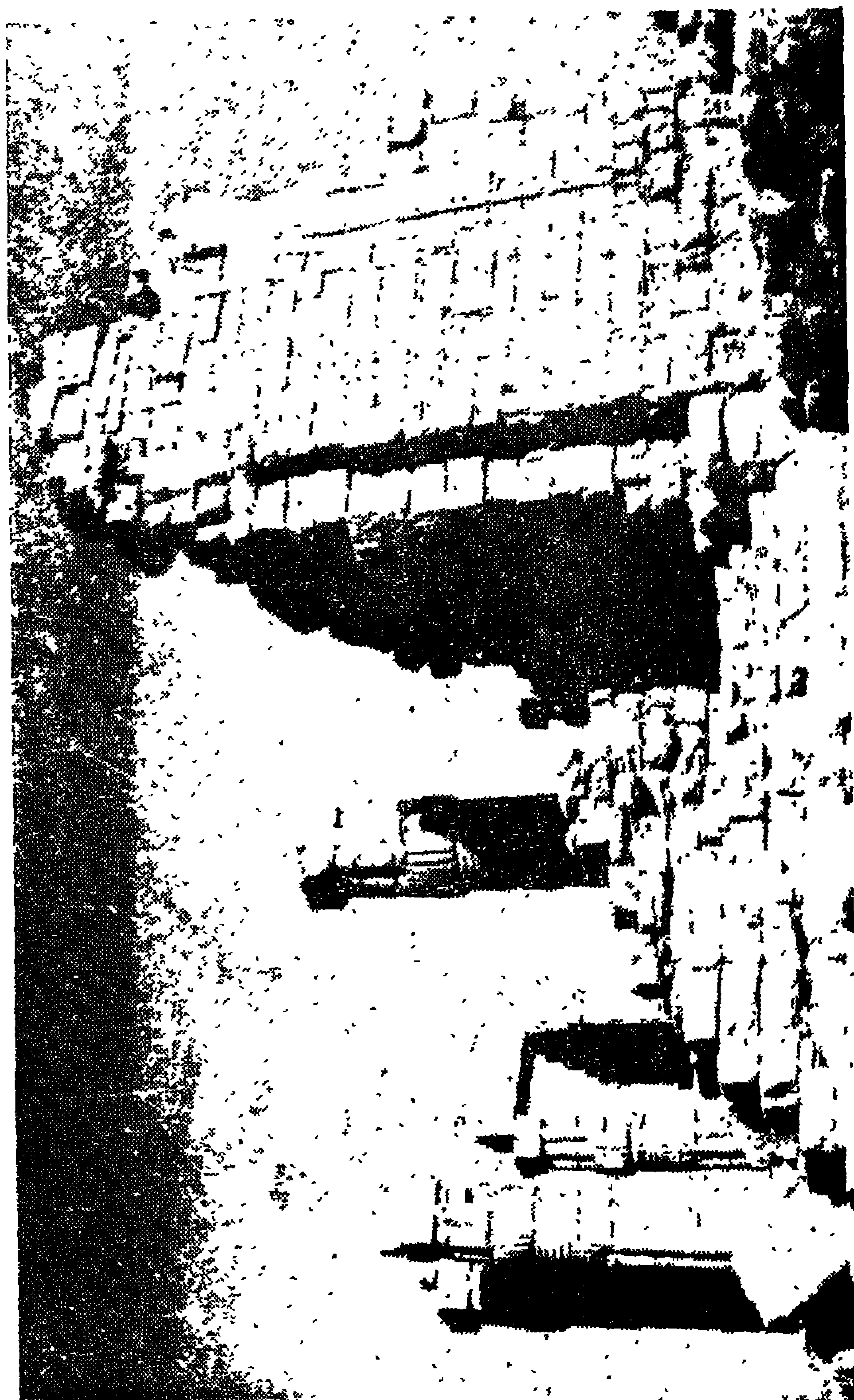
لوقدرنا مكانة شرق السودان وربطه بالحضارة العربية والآسيوية وحضارة البحر الابيض المتوسط لاستطعنا أن نتصور دور هذه المنطقة فى نشر الثقافات المختلفة على هذه المنطقة العريقة فى المدنية والعمران .

فقد عرفت التجارة بين العرب وبلاد آسيا وأفريقيا من عصور قديمة فى الجاهلية العربية وغناء افريقيا بخيراتها وغناء بلاد آسيا ورواج هذه التجارة ونشاط العرب فى نشاط هذه التجارة ونقلها عبر البحر والسهول من شمال الجزيرة العربية والبحر الابيض المتوسط إلى أفريقيا وإلى الهند والصين ورواج منتجات هذه المناطق فيما بينها منذ .. عصور قديمة وقيام العلاقات التجارية بين شعوب هذه القارات وأثر هذه التجارة فى حضارة كل منطقة من هذه المناطق ...

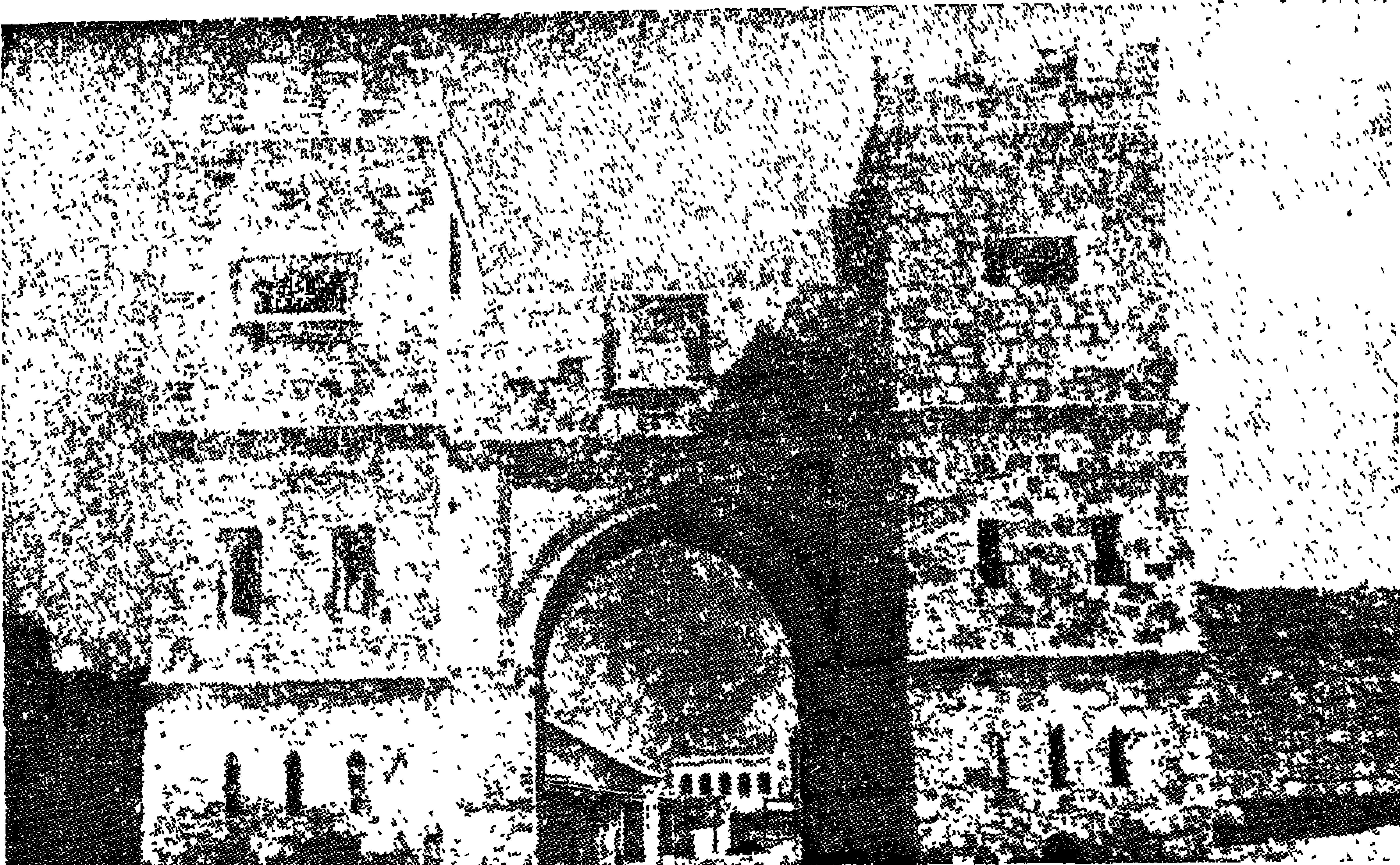
لو أدركنا حيوية هذه المنطقة التى خلقتها حركة التجارة وإذا اضفنا إلى ذلك موقع مكة والمدينة وقرب أسوان وعيذاب من أرض الرسالة وما يحدثه موسم الحج من حركة ورواج للتجارة بوجه عام واستغلال سكان شرق السودان لهذا الموسم وحاجته للبضائع والمأكولات ورواج المصنوعات شعوب كثيرة وموقع عيذاب وسواكن كمنفذ لسكان هذه القارة المسلمين بعد أن انتشر العرب على

أرض أفريقيا لاستطعنا أن ندرك استجابة هذه المنطقه وسكانها لثقافه العرب والمسلمين ومايفرضه رسم موسم الحج من رواج للدعوة الإسلاميه وتنشيط للثقافة الاسلامية وعدم تأثر هذه المنطقة بالدعوات الصوفيه التى جاءت من المغرب والعراق إلا بعد ظهور الدعوة الوهابية فى الجزيرة العربيه فى القرن الثامن عشر الميلادى . . . وارسال السيد محمد عثمان الميرغنى فى القرن التاسع عشر مبعوثاً لها للسودان ليعمل لمحاولة الشعوذة من الدين التى انتشرت بين الطرق الصوفية واقامة مبعوث الوهابيين بالسودان بعد ان جاءه السودان وكون له أنصار . .. بنى عليهم دعوته كما سيجىء فيما بعد للحديث عن الصوفية ودخولها للسودان . ..

حركة التجارة النشطة على ساحل البحر الاحمر وقرب مكه والمدينة وحركة المسلمين فى البحر الاحمر بكرت بنشر الثقافه العربية والاسلامية على هذا الشاطىء وهذا تكشفه مبانى سواكن وحفريات عياب . .. أما كلما بعدنا عن الشاطىء وتجاوزنا تلال الخر الاحمر للقبائل البيجاوية والعرب الذين نزحوا من الشمال نجد فرقاً كبيراً فى الجو الثقافى والحضارى وبعد هذه القبائل البدوية على حركة العالم والشعوب وبعدها عن منبر الدعوة ونشاط المسلمين ولذا يمكن أن نقول أن عيذاب وسواكن وسكان شاطىء البحر الاحمر الذين يشاركون فى التجارة والعمل بالشاطى واتصالهم بحركة التجاره. .. والحجاج قد أوجدوا ثقافة عربية وإسلامية قريبة من الدعوة الاصلية ومواكبة للثقافة والحضاره العربية .. .. وكانت مركزاً لنقل الثقافة العربية لداخل السودان عن طرق القوافل التجارية ومواسم الحج لانه حركة التنقل بين الاقاليم كانت معدومة كلية وأغراض السفر خارج حدود القبيلة أو الاقاليم كان أمراً شاذاً .



بقايا آثار معبد حلب من القرن الخامس عشر قبل الميلاد



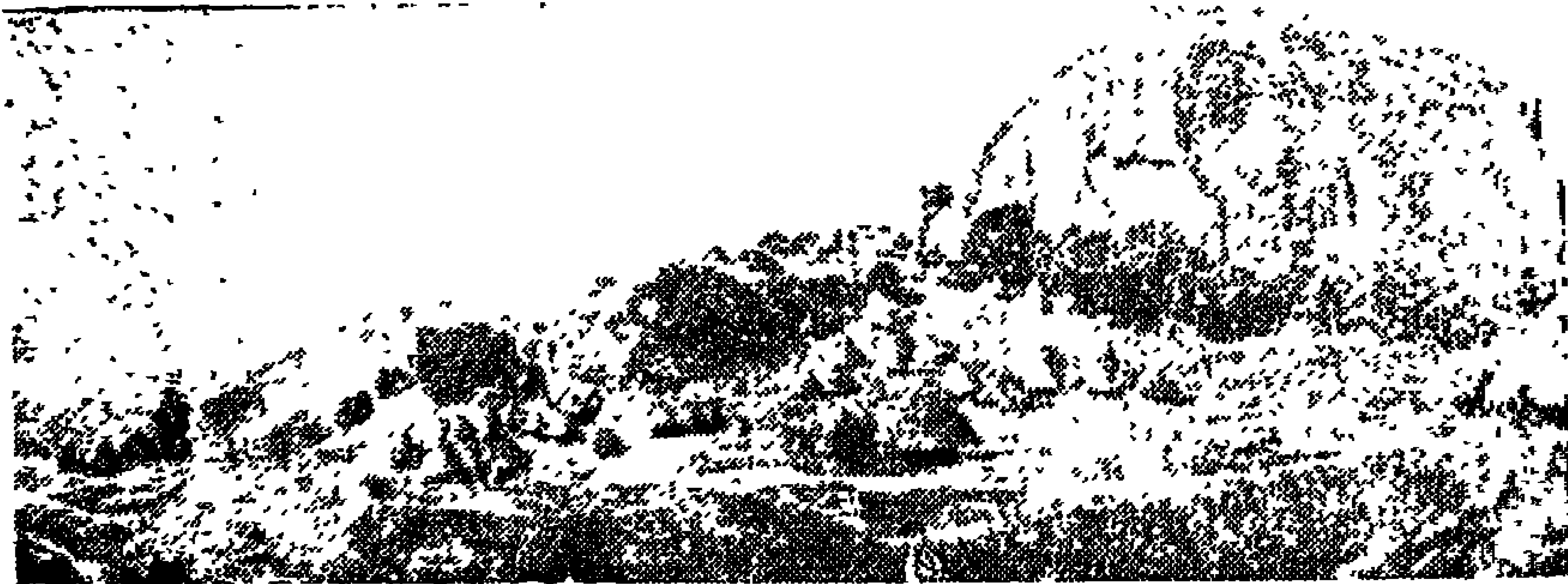
الفن العربي ظهر واضحاً على شرق السودان والبحر الاحمر .
وبقايا بوابة سواكن مازالت شاهداً على تقلب الحضارة العربية على شرق السودان .



بقايا اثار معبد بوهين أختفى من سطح الأرض
ومازلنا ننتظر المزيد من الاكتشافات الجديدة لتضيف شيئا الى تاريخنا القديم .



السوق . . . بأرض الجزيرة يكشف عن حاجة الانسان للتعامل مع الغير وتبادل الخيرات . . . وللنساء دور هام فى البيع والشراء



دار الفونج شرق ارض الجزيره

شارك سكان الفونج فى سلطنة سنار فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى .

فالقوافل التجارية التى تسر بين وسط السودان من بربر وشندى والشرق والشمال والغرب والجنوب كانت مستمرة منذ القدم .. .. وكانت هى الوسيلة الوحيدة لنقل الثقافة والحضارات الاجنبية . . . وكانت هذه القوافل ليست بالكثير حتى تخلق التأثير العظيم بل كانت تسافر مرة فى الشهر أو أكثر من هذه المدة فى مجموعات كبيرة مختلفة من تجار الجهات المختلفة لان .. .. كان فى تجمعهم قافلة واحدة خوفا من قطاع الطرق .. وأهوال الطرق البرية الموحشة وصعوبة السفر بالابل هذه المسافات الطويلة وخوف المجموعات الصغيرة من طمع القبائل المنتشرة على هذه السبل التى كانت لاتعرف إلا قانون الاقوى .

* * * * * *

الظروف الخارجية التي ساعدت على ركود السودان:

بعد القرن السابع الميلادى وظهور العرب فى أفريقيا ظهرت الفتنة بين المسلمين ومحاولة معاوية لأستلام السلطة من آل البيت ، وظهور الخوارج فى هذا النزاع ضد الطرفين حتى نجا معاوية من خطة اغتيالهم المدبرة وأعتلى السلطة ومنذ ذلك التاريخ أخذت الدولة الاسلامية طابعاً آخر غير الطابع الذى عرفته فى عهد الخلفاء الراشدين الذين آمنوا بمبدأ الشورى وأن يولى المسلمون من يصلح لهم .

قامت دولة الأمويين بين سخط آل البيت وبين معارض الخوارج وإنشق نصف العرب الاسلامى ، وتقسمت الوحدة العربيه إلى مذاهب . واستعمل معاوية كل القوة لبسط نفوذه على دولة المسلمين وفتوحاتها . وقد كانت مهمته أعسر مهمة واجهها رئيس دولة وابناء سيف الأسلام على إبن أبى طالب رضى الله عنهم مازالوا عائشون يحيط بهم إقاربهم ، يدفعونهم لطلب السلطة والتمرد على معاوية وظهر حزب الشيعة من جراء هذه المقاومة لحكم الامويين ، ولكن نجاح معاوية فى إدارة دولته جعله أقوى من تحرشات خصومه ، حتى إنتهى الحكم لابنه يزيد الذى فى عهده قوى حزب الشيعة وظهرت بوادر الصدام بينه وبين دولة يزيد بن معاوية . . وإستنكر يزيد هذا التمرد وعمل سيفه المجرم فى ذرية سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه وإنتشرت الكراهية السرية لحكم الامويين وتمركزت فى الكوفة والبصرة ، أى شمال الجزيرة العربية . وظلت هذه الكراهية تعمل ، : وهذه العداوة السياسية لحكم الامويين تتجمع حتى إستطاع العباسيون إن يجمعوا ضد الامويين كل العرب الكارهين لذلك

الحكم حتى إستطاعوا فى عام ١٣٢ هـ من دحر الأمويين من السلطة.

إستلم السفاح سلطة العباسية مبعداً الأمويين منهياً حكمهم بمساندة العلويين والفرس . وظل العرب العلويين ينتظرون من العباسيين إبناء عمومتهم أن يعطوا الحق لأهله . فقد قام العباسيون لمناصرة الشيعة العلويين لاسترداد حقوقهم . ولكن العباسيون تنكروا لهذا الحق بعد أن جمعوا حولهم كل المعارضين لدولة الامويين وظهر الخلاف بذلك عند ظهور دولة العباسيين وإنفرادها بالسلطة . إنعزل عنها انصار الدولة الشيعية فلا هى قادرة على ضربهم وهم منها وهى منهم أبناء أسرة واحدة . وظل الخلاف باقيا . وقامت الدولة العباسية الجديدة لتحمى مسئوليتها الكبيرة وتدبر الدولة الاسلامية التى وسعها الخلفاء الراشدين وكملها بنو أمية ...

وكانت فسطاط مصر أول عاصمة اليوم إنضمت اليوم ، وهرب العرب الأمويين إلى الداخل رغم أن عددهم فى مصر لم يكن بالكثرة التى نتصورها فقد كانت حاجة الفتوحات وإستتباب الامن فى أطراف الدولة الاسلاميه حتى الاندلس تفرض على كل عربى وأموى أن يذهب حيث ذهب نفوذ الدوله الاسلاميه وبذلك إزدحم العرب فى شمال إفريقيا وعند ظهور دولة العباسيين خافت هذه القبائل المناصره للأمويين من بطش العباسيين الذين ذاقوا العذاب فى عهد الأمويين . هربت العرب المناصره للامويين إلى الأندلس . وهرب الجزء الأكبر داخل افريقيا وأواسطها حتى كان القرن الحادى عشر وأوجدوا دوله عربيه إسلاميه فى تمبكتو على نهر النيجر . وأنتشروا فى مالى والسنغال وسهول السودان الغربيه عن طريق ليبيا وأقنعوا بالعيش والحياه السلميه فى هذه الأراضى الجديدة .

اما بالنسبة للهجرة للسودان فلم يؤثر هذا التغيير كثير ولم يجد من القبائل الهاربه نفس العدد الذى كان فى شمال افريقيا إلا أنه كان بدايه زحف هؤلاء العرب الأمويين الذين تخافوا إذ لم يستطيعوا الهرب مع جماعتهم إلى شمال إفريقيا وغربها اضطروا إلى الهروب داخل السودان .

وكانت مصر للعباسيين فى عام ٧٥١م والدويلات المسيحيه فى السودان مازالت عاجزه عن عمل أى شىء فهى خائفه تترقب هجوم المسلمين عليها وهى ليس بالقوة لترد هذا الهجوم وليس بالطموح حتى تتمكن من طرد العرب من مصر فاقتنع ملوك دنقله وعلوه بكراسى الملك ، محاولين قدر المستطاع إن لا يثيروا المشاكل بينهم وبين هذه الدولة الاسلاميه القويه .

وكان المسيحيه فى السودان قد انفصلت عن مركزها فى الاسكندرية وقنعت بالتعاليم الأولى التى وصلت إليها حين انتشار الكنائس الأول بالسودان .

وبعد أن ولى السفاح عمه صالح بن على ، على مصر عزله ليوليه على فلسطين ثم عاد وولاه على مصر والمغرب مره أخرى . وفى عام ٧٨١ م أخرج (وحيه) بن المصعب الاموى فى الصعيد عن طاعة العباسيين حيث كانت إسوان مركزاً هاماً للتجارة والتجمع . وتجمع حول وحين عامه الصعيد ولم يستطيع إبراهيم بن صالح العباسى إلى مصر أن يفعل شيئا معه وقويت شوكته وحيه فى جنوب مصر ولم يستطيع جيش موسى بن مصعب وأسامه بن عمرو على شىء مع هذا الخارج على سلطة والى مصر . فقد لقيت جيوشهم الهزائم من وحيه بن المصعب وأنصاره من الأمويين وأهل الصعيد .

وظل جنوب مصر متمرداً على مصر حتى عهد الهادى بن المهدى موسى فولى

على مصر الفضل بن صالح (عام ٧٨٦) م . فجرد جيشاً وانتصر على وحيه فى جنوب مصر وقاده إلى الفساط . وهربت الأعراب التى كانت تناصر وحيه ن المعصب إلى داخل السودان وإلى أرض المعدن طالبه المأمون والعمل والعيش وهى أول مجموعة كبيرة تدخل السود ن .

وفى عام ٨٥٤ م ٢٣٢ ه امتنع ملك دنقله والنوبه المسيحية عن دفع الجزيه المقرره لوالى مصر . وهزموا الجنود المصريين عند جبل الزمود وأغاروا على صعيد مصر ونهبوا مدينه إسنا وقنا وادفو وذلك فى عهد ولايه عبسه بن اسحاق على مصر .. وجهز عبسه لملك دنقلة والنوبه جيشاً مكوناً من سبعه الف محارب وشحن المراكب بالمؤمن والأسلحة لمحاربه ملك دنقله .. وقطع الجيش سهول مناجم الزمود إلى دنقله .. وحين إقترب جيش عنبسه من دنقله ورآه أهل دنقله أسلحته وعاده خافوا منه وأدركوا إنهم هالكون أن استعصموا فى معه ... واحتموا بالجبل وحاولوا جر الجيش حتى تنفذ مؤنته ، وإذا هم فى حالهم تلك ظهرت على النيل مراكب دعبس بالمؤن والأسلحة وكان على دنقله ملك يدعى «على بابا» فصار يحارب المراكب محاولا أغراقها .. وإذا جيوش دعبس هجم على جيوش على بابا الكثيرة العدد من الأبل والرجال . وحين سمعت الجمال صوت الاجراس التى أطلقها جيش دعبس أضطربت الجمال ولم يستطع جيش على بابا الصمود وانهزم على بابا وأسر وسيق قائد الجيش الذى أكرمه وعقد الصلح مره أخرى معه على أن يدفع متأخرات الجزيه التى عليه .

وكان دعبس آخر الملوك الرب على مصر ثم اضطرب الحال وصار يتولاها كل مغامر وراغب فى السلطة حتى أصبحت مصر ولايه طرلونيه للسلطان احمد أبن طولون (٨٧٠ — ٨٨٤ م) وفى عيدهم انتشر العلم والنظام مصر .

وفى هذا العصر ظهرت شكل الدويلات الاسلامية داخل الدولة الاسلامية الكبيرة ففى الاندلس مازال الامويون يحكمونها .. وفى المغرب ظهرت حركة الفاطميين تطالب بحق العلويين ومصر أصبحت فى يد الطولونيين وبانت بغداد هى السلطة العباسية الحقيقية . وإنتهت مقارمة ملوك دنقله لأهل صعيد مصر . وخضعوا للأتفاق بدفع الجزيه فى حين كانت تستقبل ارض المعدن العرب الهاربين من بطش ولاه مصر ، وقد كان السودان هو المأوى الوحيد لديهم حيث لاسلطه لوالى مصر على السودان ولارقيب بينهم ولاعين ترصدهم .

وحاله الحكم فى مصر والعالم الاسلامى تكشف لنا التفكك الذى بدأ يدخل إلى جسد إلى هذه الدولة العظيمة إذا لم يستمر الحال لحزب سياسى معين أو ليثبت معلوم ينفرد بحكم المسلمين . وهذه مصر تتعرض لعدد هائل من الحكام الاحزاب حكمها الامويين ثم جاء العباسيون ثم جاء الطولونيون وبعدهم جاءت الدولة العباسية مره أخرى من ٩٠٥ إلى ٩٣٥ ولم يستمر الحال للدوله العباسية إذ ظهرت دوله الاخشيد بين عام ٩٣٠ م إلى ٩٦٩ التى فى عهدها قام الملك النوبه فى فتره حكم أبو الحسن على بن محمد الاخشيدى — وغزاء مصر حتى بلده أخميم فوجه اليه كافور جيشاً عظيماً بالبحر والماء وحاصر ملك النوبه . حتى اضطره إلى الهروب وإنهزم جيش النوبه وتفرق جيشه حتى كان عهد أبو المسك كافور ٩٦٥ هـ — ٩٦١ هـ ثم تولى الحكم بعد ذلك أبو الفوارس وانتهى بذلك عهد الاخشيدين على مصر .

خلال فتره الحكم الاسلامى على مصر نلاحظ اضطراب الحاله فيها وتعدد الحكام عليها . كما نلاحظ كثرة الاجانب وعدم ظهور ملوك من المصريين المسلمين عليها ، حتى كان عهد كثر عدد الحكام الاجانب من دون العرب الامر الذى

يكشف لنا ضعف شوكة العرب فى مصر وعدم اتاحت الفرصه للمجتمع العربى ليتشبع بالروح العربية الاسلامية فى جزاء هذا التغيير السريع وإختلاف الحكام وكثرة مظالم بعضهم وثورات الصعيد عليهم .

هذه الاضطرابات لم يتمكن الدين الجديد من الانتشار فى الديار المصريه ، وإنتشار علومه وثقافه العرب من جراء هذا الجو السياسى المضطرب . حتى نستطيع أن نقول أن المصريين وحدهم كانوا كفلين بنقل الثقافه الاسلامية العربيه إلى جيرانهم من السودانيين فالرسالة ماذالت تحمل عبأها القبائل العربية التى اختلفت فى ذلك العصر عن العرب المجاهدين الاوائل والذين نشروا الاسلام بروح عاليه .

وما نود أن نشير اليه هنا هو أن الدعوة الاسلامية الخالصه لله ورسوله صلى الله عليه وسلم وعن الخلفاء الراشدين كانت دعوة للدين ونشر هذه الدعوة حتى دانت لهم الشعوب والقارات وعملوا على توصيل تعاليم هده الدعوه عن طريق قوانهم ورسلهم إذ كان الحماس للدين الاسلامى فى عهد الرواد الاوائل فى ذروته ، ولم يقع أى إختلاف بين خلفاء المسلمين رضى الله عنهم إلا بعد أن دخلت الدولة الاسلامية فى صراع الجماعات المتسابقه على الحكم . هنا يأخذ الصراع لونا آخراً وأصبح التسابق لا لنشر الدعوه بل إلى مطارده المعارضين والخوارج الأمر الذى إقتضى أن تصبح الدولة عسكرية إلى حدما .. وأن تفكر فى المقام الأول فى تقويه جيشها وذلك لتقضى على الفتن التى شيعت فى جميع إنحاء الدولة الاسلامية فى داخل الجزيرة العربية بين الحكام وانفسهم والموالين لديهم وبين المعارضين لهم بين ولاتهم على الأقاليم التى بسطوا نفوذهم عليها

رغم وصول الثقافه العربية وصلت إلى ذروتها فى عهد العباسيين من ترجمة علوم الشعوب الاخرى وتوسيع دائرة المعارف العربية ونقل مؤلفات الاغريق والرومان والفرس إلى اللغه العربية . إلا أن هذا كان لا يتعدى العواصم الاسلامية كبغداد وحلب والكوفه والبصره أما الفسطاط فقد نشطت فيها حركة العلم فى عهد أحمد بن طولون ، ثم جاءت الفتن لتوقف هذا النشاط وتعطيل حركة إنارة لبقية الديار المصريه .

كما إن ظهور دولة المهديين بالمغرب وإنشقاقهم فى تفسير الدين والدعوه للشيعه جعل هؤلاء العرب البسطاء وأهل البلاد المسلمه فى بلبله فكريه من أمر هؤلاء وهم ليسوا فى حالة تسمح لهم بالقطع فى هذا الخلاف ، الأمر الذى فتح الباب لكثير من الآراء الخاطئة لتنتشر بينهم ونحن نعرف إذ أختلفت وحده الفكر لدعوة دينيه ما ماذا يحدث لرعاياها البسطاء حين يصبحون خاضعين لكل الأصوات ويتلقون كل الأفكار ويفسحون المجال لظهور الافكار الغريبه والمذاهب الجديدة الأمر الذى قاد لظهور عدد كبير من رجال الطرق الصوفيه كل يدعو لطريقته الخاصه فى العباده حتى تعددت المذاهب الصوفيه فى المغرب والجزيره العربية وإنتشرت بسرعة بين عامة الناس حتى أوقعتهم فى شرك كبير وقد رفع خضوعهم الكامل لرجال الصوفية من شأن هؤلاء الرجال من الصوفية ، الذين شغلوا الناس بذكرهم دون عبادة الله ورسوله ، وأصبحوا هم المثل الأعلى بدلا من الرسول صلى الله عليه وسلم وباتوا هم القدوه فى العباده بدل الرسول صلعم وخلفائه الراشدين .

الفاطميون فى مصر :

قامت الدولة الفاطميه بالمغرب عام (٩١٠ م — ٢٩٧ هـ) فاستولت على

شمال افريقيا . وبسطوا خلافتهم عليها . فى حين ماذال خليفه المسلمين يقيم فى بغداد . بجوارهم خليفة الامويين فى الاندلس .

ويدعى الفاطميون أنهم ينتسبون إلى فاطمه الزهراء بنت الرسول (صلعم) وإلى العلويين . وقد قامت دولتهم ضد إبناء عومتهم أبنـــاء العباسيين الذين إنفردوا بالخلافه دون العلويين الذين هم أحق بالخلافه فى نظرهم ، وفى هذا الخلاف بين آل البيت وأبناء عومتهم ظهرت إشياء كثيره بين المسلمين ، ومحاولتهم الاجتهاد فى ما لا مجال للأجتهاد فيه ومحاولتهم الوصول الى من هم أحق الناس بخلافة المسلمين .

حاول أبو محمد عبيد الله المهدى مؤسس دولة العبيديين الفاطميه بالمغرب .. فى حياته ضم مصر إلى العبيديه ، إلا أنه لم يوفق وتم ذلك فى عهد خلفه المعز لدين الله (٩٥٣ — ٩٧٥ م) ورأى ما كانت عليه مصر من فتن فجرد جيشا عظيما بقيادة جوهر الصقلى الذى تمكن من فتح مصر عام ٩٦٩ م) وأقام خارج مدينة الفسطاط حيث عزم بناء مدينة القاهرة الحاليه . ثم بناء جامع القاهرة . وهو جامع الأزهر الحالى وبعث جوهر للمعز لدين الله باخبار النصر . وأنتقلت دوله العبيدين بعد ذلك من المهديه بالمغرب إلى القاهره بمصر .

وأقام الفاطميون العدل فى مصر وأداروا شئونها أحسن إداره بعد أن ذاق الناس ظلم الحكام المعتدين من جراء الحروب الكثيره التى كان وبالها على الناس البسطاء ودافعى الضرائب الذين يمولون الحروب بالمال والجنود :

وأول عمل قام به جوهر الصقلى لنشر الاسلام خارج حدود أرسال مندوب إلى جورجيوس ملك دنقله يسأله الدخول فى الاسلام وايقاف الاتاوة عنه إلا

ملك النوبه رفض الاسلام وفضل دفع الجزيه . وهذا يكشف لنا أن المسيحيه ماذالت منيعه ذات أرض صلبه فى السودان حتى القرن العاشر الميلادى وان رواد الدين الاسلامى لم يتوغلوا بين جماهير هذه المملكه الشمالية حتى يمهدوا لمثل هذه الدعوه المسلميه .

وفى عصر الفاطميين على مصر بدأت القبائل العربيه الواليه للعباسيين فى النزوح عن مصر إلى داخـــل السودان وبدأت الهجره الكبيرة إلى أراضى السودان نسبه للعداوه التى نشبت بين العلويين والعباسيين . وامتلأ صعيد مصر وأرض المعدن وضفاف النيل بالعرب الهاربين الذين لا خوف منهم على سكان السودان . ولاخوف عليهم من سكان السودان . فقد كانوا مسالمين هاربين ينشدون المأوى ، كما أن العهد الذى قطعه ملوك دنقله على أنفسهم بعدم تعرضهم للعرب المسلمين كان يضمن لهؤلاء الخارجين عدم ايذاءهم من ملك دنقله وصاروا أعوانا وعيونا للملك دنقله ضد ولى مصر .

وفى عهد الدوله الفاطمية ظهر بعض النفوذ والمكانه للسودانيه فى مصر وذلك لان أم المستنصر (١٠٢٦ — ١٠٩٤ م) . كانت جاريه سوداء ذات ذكاء وتجاوب . استغلت ضعف إبنها ووظفت السودانيين فى الدولة فى المناصب الكبيره ليكونوا لها قوة وباتت ذات نفوذ وسيطره على شئون الدوله حتى قويت شوكتهم وقد بلغت قوة السودانيين لطرد الاتراك من مصر والاستيلاء على السلطه حتى تمكنوا من وطردهم إلى صعيد مصر الامر الذى مهداً لاستمرار صعيد مصر فى عصيانه على والى مصر وعدم خضوعه تحت سيطرتة سيطره كامله واستمرار عدم أستقرار صعيد مصر وخضوعه لسلطة المسطاط او القاهرة مما جعل السودان بعيدا عن يد ولاة مصر فلو كان صعيد مصر تحت يدهم وسيطرتهم الكاملة لكان استغلوه لفتح السودان وضمه إلى مصر الا إن صعيد مصر نفسه

كان مشكله ومصدر قلق اليهم وبذلك كان توسيع حدود هذا الصعيد إلى الجنوب فيه مخاطره ومساعده لمغامرى الصعيد أن ينفردوا بسلطه جنوب مصر والأراضى الجديده .

أخذت العلوم والآداب تنتشر فى عهـــد الفاطميين بانشاء جامع القاهرة (الازهر) والاشراف عليه وتشجيع العلوم حتى إضطرت الاحوال بعد ذلك محاقا لضياع ذلك المجهود إذا أحرقت الكتب وأستعملت فى أغراض كثيره فى عهد المجاعه التى جاءت فى عهد المستنصر .

ظل السودان حتى الآن بعيـدا عن النفوذ الاسلامى والعربى لانشغال الولاة المسلمين فى إنفسهم وتأمين سلطتهم من الغاضبين ، ومطامع الانقسامات الكثيرة التى إنتهت اليها الدوله الاسلاميه الكبيرة .

ولم تظهر على السودان حتى ذلك الحين أى مؤثرات عربيـة او اسلامية حقيقيه الا ظهور بعض العرب الهاربين بجوار النيـل وأرض المعدن وعند البحر الاحمر .

وأنتهى الحكم الفاطمى فى مصر بعد فتن وحروبات داخليه ودسائس حسب طبيعه ذلك العصر وتعدد الامارات وتعدد الاساليب للوصول إلى السلطه حتى جاء عهد الدوله الايوبيه عام ١١٧١ م بزعامة صلاح الدين الأيوبى الذى عهد سير جيشاً بقيادة أخيه سيف الدوله توران شاه إلى النوبة لتأديبها على تمردها ومناوشاتها ، فسباها وعاد مثقلا بالغنائم والسفر .

إلا إن الظروف لم تتح لصلاح الدين للتفكير فى فتح السودان الشمالى وضمه

إليه أو فرض الاسلام عليه وذلك الانشغال بالحروب الصليبيه التى كرس لها كله جهده لابعاد الفرنج من البلاد العربية وأرض المقدس. إلى أن توفاه الأجل والصليبيين مازالوا يواصلون حملاتهم على العرب حتى إنتهت دولة الايوبيين عام ١٢٥٠ م بعد أن دخل الوهن على المملكة الايوبية وتكالب الاخوان والاقارب على الحكم كما كان ساريا فى ذلك العصر وما يدخل فى هذا الصراع من وسائل ومكر حتى سقطت مصر فى يد المماليك البحرية عام ١٢٥٠) إلى ١٣٨٢ وهم من الرقيق الذين أكثر منهم السلطان الصالح نجم الدين أيوب من اسواق الجركس ومنغوليا والقوقاز لمساندته وقد أخلصوا له فى حياته حتى كثر عددهم وعلى شأنهم وتطلعوا إلى السلطة ووصلوا اليها بعد أن خبروا إمورهم وأسرارهم وظهر التتر على حدود سوريا فى عهد المماليك الذين تصدروا لهم واوقفوا زحفهم على مصر فى عهد السلطان الظاهر ركن الدين والدنيا بيبرس البندقدارى (١٢٦٠ — ١٢٧٧ م) الذى فى آخر عهده فتح بلاد النوبة وسواكن واضعف مملكه دنقله الشمالية وفتح للعرب الطريق لدخول السودان . وجعل للذين سبقوه مكانه فيها حتى أشتد ساعدهم وكثر عددهم على النيل وسهول السودان الفسيحة.

وقد كان ملك النوبة ينتهز دائما فرصة أنشغال وإلى مصر بالحـــروب مع الصليبين أو غيرهم فى الشمال ويرى أبتعاد جيوش المسلمين عن مصر ويمتنع عن دفع الجزية ... وهو لايدرى أن أيقاف دفع الجزية يعنى فى مفهوم الحرب إيقاف الأمتدادات عن الجنود المحاربين ولذلك كانت ترسل اليه الجيوش لتأديبه وأعادة الموقوف من الجزية وتحصيل المطلوب منه فوراً وقد حاول هذه المرة فى عهد المنصور سيف الدين قلاوون الالف (١٢٧٩ — ١٢٠٩٠ م) وأمتنع عن الجزية حين شعر بأنشغال المنصور بمحاربة التتر فى أرض الفرات وحلب . إلا أن الالف جرد عليه حملتين فى عام ١٢٨٨ م و ١٢٨٩ م ... وعادت

الحملات بالجزية الموقوفة والغنائم والسبايا وخضع ملك دنقلة مرة أخرى لدفع الجزية ولم يفرض عليه الإسلام إنما ترك في ديانته المسيحية التي باتت راعفة بعد انتشار العرب بين النوبة على ضفاف النيل .

وقد ظل ملك دنقلة والنوبة يمارس هذه الوسيلة كلما شعر بضعف ملك مصر حيث كانت هذه الجزية عقاباً صارقاً على ملوك هذه المنطقة حاولوا التخلص منه بكل الوسائل ولكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً : وقد حاول ملك دنقلة مرة أخـــرى في عهد الملك الناصر محمد بن قـــلاوون (١٢٩٩ — ١٣٠٢) . (١٣١٠ — ١٣٤١) وامتنع عن دفع الجزية الأمر الذي فرض تجريد جيش عليه وأعادة الجزية إلى ما كانت سابقا وإنتهت بهذه المحاولة آخر محاولة لملك دنقلة الافلات من دفع الجزية التي كانت وبالا على ميزانيته ومواطنيه وحساب عمرانه ولاشك أنها كانت ترهق هذه المملكة المتوسطة الدخل المعتمدة على ضرائب البلح والقمح وهذه المحاصيل إنتاجها يرتبط بموسم الأمطار فان كثرت الأمطار في الجنوب وفاض النيل ضمن مواطنيه محصولا طيبا من الزراعة وإذا قلت الأمطار قل الزرع وصعب تحصيل الضرائب منهم لانهم لايملكونها وكذلك الحال بالنسبة للبلح إذا هبت عليه عاصفة وهو مازال أخضراً أسقطت معظمه وكذلك إذا نزلت عليه أمطاراً وهو على وشك الاصفرار تلف أكثره وقل محصوله .. ولكن والى مصر كان لا يعرف هذه الظروف ولايقدرها . وإذا أنكر ملك دنقلة هذه الظروف على رعايته فقد أنكر معرفته لهم وحالتهم الاقتصادية . ولذلك كان تمرد ملك دنقلة المستمر لدفع الجزية تفرضه ظروف المنطقة الاقتصادية ودخل المنطقة القائم على الضرائب الزراعية والماشية كان لاشك لايكفي حاجة التوسع الطبيعية لهذه المملكة في إدارتها وتطورها وفرض جزية عليها كان يعني نقاص

تطورها وتدهورها تدريجيا مع مرور السنين فهى بأمكانياتها المحدودة لا تستطيع التوسع حتى تفى بألتزاماتها .. وهذه الامكانيات المحدودة إمتدت لها يد الجزية لتقلل من المصروفات الانشائية لهذه المملكة ومصروفاتها العامة وجعلها هذا الالتزام تقلل تدريجيا فى مصروفاتها حتى جاء العهد الذى أصبحت غير قادرة بسط نفوذها على هذه المنطقة حتى مهدت لانضمامها المملكة الفونج والعبدلاب فى القرن السادس عشر .

خلال هذه الفترة كان العرب يتقدمون فى سهول السودان ويتكاثر عددهم بمرور السنين ولاشك أنهم كانوا يذهبون إلى النيل فى موسم الجفاف للتزود من مياهه وحشائشه وهذه الزيارة كانت تفرضها عليهم ظروف الطبيعة نفسها فهم مطرون للبحث عن قوت لماشيتهم ومياه لهم وتقربهم من النيل كان فائدة لسكان النيل فقد كانوا يبيعونهم الماشية ومنتجاتها مقابل الذرة والبلح ولاشك كان سكان النيل يرحبون بهذه الزيارات التجارية فهم لا يستطيعون إن يستهلكوا انتاجهم من البلح وخاصة ولذلك كان لابد لهم من سوق لهذا البلح إما عن طريق التجارة مع إسوان ودلاو أو مقابل الضرائب وحينما سهل عليهم هؤلاء العرب شراء الفائض من محصولهم من البلح والذرة أصبحوا يتعاملون بهم ويرحبون بقدمهم وتوسعوا فى زراعتهم وخلال هذه المقابلة كان يحدث التزاوج وإسلام بعضهم حتى ألفوا على العرب والف العرب عليهم وأقام البعض منهم على النيل أو ترك زوجاتهم حين يعود فى موسم الجفاف .

وأما مصر فما زالت الاضطرابات تسودها والدسائس تدساب لنزع ملك لاجل أخر حينكانه وهى العرب أن لاخرف عليهم وعلى أولادهم من سكان النيل أصبحو يرتادونه ويفتحون بالقرب منهم وكثرة تزوجهم من نساء سكان النيل حتى تغلبوا

بمرور الايام على هؤلاء السكان وانتشر الاسلام على النيل بواسطة هؤلاء العرب ثم دخله سكان النيل متأثرين بهؤلاء العرب .

أما مصر فما زالت الاضطرابات تسودها والدسائس تحاك بين الطامعين لنزع ملك لاحلال آخر مكانه والحروب الداخلية لاتقف نتيجة هذا الصراع للسلطة من الداخل أو الزحفات الخارجية حتى أنتهى حكم المماليك البحرية عام ١٣٨٢ م ليأتي عهد المماليك الجراكسة عام ١٥١٧ ولتدخل مصر بعد أن وهنت ومزقتها الفتن والاطماع ضمن أراضي الامبراطورية العثمانية حتى عام ١١٠٨ م

أثر الثقافة العربية في السودان حتى القرن السادس عشر

كما أسلفنا إنتهى التخطيط العام لنشر الدعوة الاسلامية والثقافة العربية بعد الخلفاء الراشدين بعد تحولت الخلافة الاسلامية إلى ملكية وراثية ، وكثرت حولها الأطماع والدسائس وأصبح إهتمام الدولة بالجيش في المقام الأول للحفاظ على كرس الخلافة وإنغمس الخلفاء في دولة بنى امية والدولة العباسية في اللذات وإبتعدوا عن تعاليم الدين وأصبحوا أسواء مثل للمسلم حتى كثر الأجانب حولهم واستولوا على مقاليد حكمهم . . . ودخل الثقافة العربية الفكر الفارسى والاغريقى لتحيا في عصر بعض الخلفاء ، الخلافه الاسلامية فى أوج مجدها العلمى والأدبى . وإذا لاحظنا ذلك الازدهار الذى حدث للعلوم والاداب . . فى العصر العباسى أو الأخشيدى أو الفاطمى إنما كان لشغف بعض ملوكها بالعلوم فأزدهرت العلوم لأنهم أكرموا العلماء وبأنتهاء أولئك الملوك أنفض السامر وفلت حركة العلم حتى وصلت إلى درجة الركود وحتى خباضؤ الثقافة العربية .

وإذا أردنا أن نتابع خلفاء الدولة الاسلامية وتخطيطهم للعلم لانجد هنالك أى تخطيط بالمفهوم الحديث . فعمر بن العاص رضى الله عنه حين دخل مصر أمر ببناء جامع عمرو وأصبح هذا الجامع فيما بعد هو جامع الخلافة وملتقى المسلمين على جميع طبقاتهم يستمعون إلى الارشاد والتوجيه وإلى تعليمات الخلفاء التى كانت تلقى دائما على منابر الجوامع ولكن جامع عمرو لم ينشأ ليكون مدرسة لتدريس القرآن أو اللغة العربية أو علوم الدين بل إقتصر على أداء فريضة الصلاة ومواعظ خطبة الجمعه . والخطبة لاشك لاتخرج معلمين ينفعون غيرهم

بعلمهم إنما هى تذكير للمؤمنين بأخلاف السلف الصالح من المجاهدين وإلى توجيه الناس إلى الأشياء الضرورية الواجب إتباعها فى بعض المناسبات وحيث كانت الحياة فى مصر فى عمل عسكرى دائم فقد كانت خطبة الجمعة فى جامع عمرو هى حث الناس لاطاعة خليفة المسلمين والاجتهاد لنصرته ولم تترك الظروف العسكرية والحربية التى عاشت فيها مصر للجوامع أن تؤدى رسالتها الدينية التعليمية بل أصبحت المنابر وسيلة لجمع الناس وتهدئة الخواطر والدعوة لتأييد حاكم جديد أو لمؤازرة الوالى لمحاربة الجيوش الغازية أو للتجنيد فى صفوف الجيش لصد العدوان أو لقمع تمرد حدث أو للدعاية للملك الصالح المصلح المؤمن القائم على شئون البلاد .

وإذا إعتبرنا الجامع هو المدرسة الأولى التى حفظت التعاليم الاسلامية وعلوم الدين فيجدربنا أن نتتبع هذا التاريخ ونرى ماحدث فى مصر حتى يكون مايحدث فيها ذا أثر على السودان وعلى المسلمين المقيمين بها من عرب وسكان أصليين .

وأول جامع أنشاء فى مصر هو المسجد الجامع أو جامع عمرو أو الجامع العتيق كما كان يسمى بهذه الاسماء فى عام ٦٤١ م بعد دخول عمرو بن العاص إلى الفسطاط .. وظل هذا الجامع يخدم الاغراض السياسية للدعوة ، إذ كان العرب فى حاجه لمثل هذا المنبر لتهدئة الخواطر وشرح الدعوى للناس وتنشيطهم لدخول الاسلام وحثهم على معاونة جيش المسلمين والتطوع فيه . . وقد كانت خطبة الجمعة فى معظمها خطبة لمثل هذه الاغراض ولم تمنح ظروف العرب المتحمسين لنشر الدعوى على كل الشعوب أن يعملوا أكثر من ذلك ، شرح الدعوى والدعوة للايمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم ثم تعليم الناس الفرائض الخمس .

وظل الجامع العتيق يقوم بهذه الرسالة بعد عودة عمرو بن العاص وتركه مصر لابن السرح ولم تتسع رسالة هذا الجامع لأكبر من ذلك فلم تتسع بعد العلوم الدين وتدريس أحكام الشريعة الاسلامية بل ظلت هذه التعاليم تلقى فى منبر الجمعة ، ويقوم بها الأفراد المسلمون من العرب وتوصيلها إلى سكان مصر فى أكثر صورها حتى يدركوها ويهضموها : واستمر الحال على هذا المنوال حتى جاء عهد العباسيين ، وكانت الدعوة قد إنتشرت وامن بها الكثيرون وأصبح الجامع والصلاة فيه من أول واجبات المسلم وأصبحت تعقد فيه الحلقات الصغيرة للتذاكر والتفاهم وللتحابب بين المسلمين . وأصبح يرتاده كثير من الناس فى غير أيام الجمعة لمعرفة تعاليم دينهم

ونشطت فى جامع عمرو حركة التدريس فكثرت فيه الحلقات وخاصة بعد الصلاة وأهمها صلاة المغرب والعشاء ، وكانت تدور فيه المناقشات الدينية والأدبية والمطارحات الشعرية والروايات التاريخية وكل الوان المعرفة ماتيسر لرواده وما شائخه . ولم تكن حلقات تدريسه لها أسس معينة إنما كانت مواضيع الحديث تأتى من جمهرة المجتمعين وتخرج من هذه الحلقات بعض رجال الدين والفقه فى مصر الا أن هذه الحركة لم تنشط ويظهر لها ثمارها الا فى عهد العباسيين ثم الفاطميين .

ومن هذه الحلقات المشهورة حلقة الامام محمد ادريس الشافعى (١٩٨ — ٢٠٤ هـ) . . كما إنتشر نوع آخر من حركات التعليم والمناظرة فى بيوت الفقهاء وأهل العلم . كانت تجذب إليهم طلبة المعرفة . ومن أشهر هذه الحلقات حلقة بنى عبد الحكم . وكان يرتاد حلقاتهم أكابر العلماء والفقهاء الذين يزورون مصر .

ثم أنشأ المعز لدين الله الجامع الازهر عام ٩٧٢ ليكون منبراً لدعوة الفاطميين أول الامر، ولنشر مذهبهم الشيعي بين الناس وقد استغل الجامع الازهر كغيره من الجوامع الاسلامية (اغراض سياسية وحربية تخص أمن الدولة) فالأضطرابات الكثيرة التى شهدتها الممالك الاسلامية على طول العام لم تكن تدع للحكام وقتا لالقاء الخطب الدينية الخالصة على منابر هذه الجوامع بل كانت الأحداث المتلاحقة تدفع بخطب الجوامع إلى موضع من مواضيع تلك الظروف العصبية والخلافات الكثيرة.

بل لم يفكر حاكم من حكام المسلمين أن يخطط لنشر التعليم ناهيك عن نشر العلوم الأخرى التى يصعب أن تقوم بدون التعلم الذى إذا أردنا أن نتطوره وأن يصل إلى أكبر عدد من محبيه أن يوفر أماكنه ومعلميه.

إلا أن ذلك لم يحدث فقد نشأ العلم فى بيوت الأفراد والخاصة والمهتمين والذين أخذوا هذا النوع من الحياة هدفاً لحياتهم وغاية من غايات وجودهم وهو التزود من المعرفة ونشر هذه المعرفة.

إلى أن جاء عام ١٠٠٥ م وأنشاء الحاكم بأمر الله بن العزيز بالله دار الحكمة وكانت أول مدرسة تنشأها الدولة الاسلامية لنشر العلوم والمعرفة رغم أن انشاء دار الحكمة كانت دوافعه مذهبية لنشر دعوة الشيعة التى ظهرت بعد فترة من فتح هذه الدار وتوسعت حلقاتها وأنتظم فيها الشيعة والسنة حتى جاءت العاقبة على علماء أهل السنة وقتلوا وأصبحت دار الحكمة دار حكمة الشيعة لايجرؤ أى مذهب على دخولهـا وقلت فعاليتها بعد ذلك ظهرت عصبيتها المذهبية.

وقد كانت دار الحكمة فى بدايتها داراً عظيمة للعلم والمعرفة - تدرس علوم القرآن والفقه، وعلوم اللغة والفلك والطب والرياضة والتنجيم وغيرهما ووفرت لها كل الأمكانيات المادية لتصبح جامعة علوم حقة . حتى أصابتها عصبية المذهبية وأصبح يخافها العلماء لعدم وجود الجو العلمى الحر بها .

وإذا سألنا أنفسنا من أين جاءت تلك النهضة العلمية التى ظهرت فى عصر العباسيين والفاطميين دون أن يكون هناك تخطيط وأشراف من الدولة على نهضة العلم .

إلا أن الأمر بسيط غاية البساطة ... فتلك النهضة العلمية وتلك المؤلفات العظيمة فى كل فروع المعرفة التى تركها لنا الاسلاف جاءت نتيجة اجتهادات الافراد والتسابق العلمى الذى أصاب الذين كانوا يخدمون القصور . فقد كان ضمن حاشية الملوك جمهرة من العلماء الثقرب للملوك وكسب رضاهم هو الاجتهاد فى المعرفة والعلوم وكانوا الملوك يقدرون المجتهدون من أهل العلم . ويجيزونهم العطايا الأمن والسكن والاحترام والتقدير .

والعلم كنوع من النشاط الانسانى تتحكم فيه القيم الاجتماعيـــة والحوافز الانسانية فيه ، فان كان العلم هو أفضل الناس فى نظر الجميع أتجه الناس إلى العلم وكذلك الحال باتت الفروسية أفضل من العلم افضل الناس الفروسية على العلم وكذلك فى جميع فروع النشاط الانسانى كالتجارة والرياضة والفنون . حيث يصبح هذا النشاط والاجتهاد ذا فضيلة إجتماعية أعلى من النشاطات الاخرى يجذب اليه إهتمام الناس وأهتمامهم .

وبدراسة ظروف نهضة العرب العلمية نرى هناك كثير من النشاطات الانسانية ذات القيمة الاجتماعية المتقاربة كالفروسية والثراء ثم كان العلم عند جمهور المتعلمين المحيطين بالقصور . وهذا هو السبب لدفع حركة العلم عندما وجد الملوك الذين يقدرون العلماء ويفضلونهم بعلمهم على غيرهم من الناس حتى أصبح العلم هو بقية الكثيرين حتى يصل لتلك المرتبة من تقدير المنصور والخلفاء والأمراء وأصبح الاجتهاد والتسابق العلمي هو الذى يحدد مكان العالم والجانب فى مجلس الخليفة وقيمة الهدايا والعطايا السنوية المقررة له ..

وقد أخذت مصر فى عهد الدولة الفاطمية بعد القرن الحادى عشر رسالة النهضة العلمية العربية وتوزعت هذه النهضة بين دار الحكمة التى نشطت فيها العلوم العقليه والدعوة الشيعة فى حين إحتفظ الازهر بتدريس العلوم الدينية والقراءة وكذلك جامع عمرو وأصبحت هده القلاع الثلاثة قبس الفكر الاسلامى إلا أن هذا النشاط وهذا الرقى كان يرتبط بحياة الدولة الفاطمية التى وفرت الامكانيات لهده النهضة العلمية رغم الاضطرابات الكثيرة التى عاشتها حتى عجزت الدولة الفاطمية عن الاستمرار فى الأنفاق على دار الحكمة وتعرضت فى عام (٤٩٥ — ٥١٤ هـ) لاغلاقها بعد أن ظهرت عصبيتها المذهبية داخل الدار ثم اعيد فتحها مرة أخرى عام ٥١٧ هـ فى عهد المأمون البطائحى وزير الآمر بأحكام الله إلا أن هذا كان ايذانا بسقوط هذه الدار وهذه الجامعة التى كان لها الفضل العظيم فى حفظ العلوم الدينية وتطهير الفكر الاسلامى والثقافة العربية

وقد انتهت دار الحكمة الجامعة الاسلامية الاولى بذهاب أصحابها وانقضاض.

دولتهم وعادت الصدارة للجامع الازهر ونشطت حلقاته من جديد بعد انقضى رواد دار الحكمة وسقوط الدولة الفاطمية واضطراب الحياة السياسية فى مصر وكثر تعدد الحكام فيها ووقف فيها كل نشاط .

ثم تدخل مصر فى عهد المماليك البحرية ١٢٥٠ م والمماليك الجراكسة عام ١٣٨٢ -- ١٥١٧ م ولتنضم اخيرا الى اراضى الامبراطورية العثمانية التى امتدت الى شمال افريقيا والجزيرة العربية .

جاءت الامبراطورية العثمانية التركية بكل صلفها ووحشيتها وهمجيتها وجاءت لتقضى بضربة واحدة على آخر قبس للفكر العربى ، بعد أن بدأ يثبت وجوده فى الحياة ويعطيها من انتاجه واجتهاد ابناء البلاد الخاضعة للاسلام . انتشرت الامبراطورية التركية كالاخطبوط على الشرق العربى لتشل حركته وتوقف كل حركة سالفة ولتميت كل اسباب الخلق والابداع بعد إن سبقها التتر فى القرن السابع الهجرى بضرب الحضارة العربية العباسية وهى تعطى الفكر العالمى اطيب خيراتها . جاءت القبائل الوحشية التترية لتضرب ضربتها على معقل المملكة العباسية وتتلف كل ما انتجته تلك النهضة العربية وتعيث بأقيم إنتاج خلفه الانسان فى عصر تلك الخلافة حتى تندثر نهضة الخلافة العباسية على يد التتر .

كانت مصر هى آخر أمل للفكر العربى ولذلك كان اسباب إزدهار الفكر والعلوم بها والتجاء العلماء إليها واشتداد حلقات المذاكرة والعلوم فى جوامعها

وإروقتها أمر طبيعي بعد ان قفلت كل أبواب الحرية والتقدير لرواد الفكر والمعرفة من المسلمين وانصارهم

ولو حاولنا أن نرى أثر النهضة السابقة التي قامت في عهد الخلافة العباسية في شمال الجزيرة العربية او تلك التي قامت رغم مشاكل مصر الكثيرة وأثبتت وجودها رغم كل الصعاب والدماء والخلافات الجديدة الكبيرة التي كانت لا تقف لو حاولنا أن نرى انعكاس تلك النهضة على السودان حتى عام ١٥١٧ بدخول مصر تحت سلطة الدولة العثمانية ودخول الحياة الاسلامية في مرحلة الركود الذي شل كل إمكانياتها الخلافة وجعلها فريسة لهذا الاخطبوط اللعين الذي لا يقتل ضحيته مرة واحدة ولا يعطيها اسباب الحياة لتعيش .. انما يجعلها حية هكذا بلا حياة سالباً منها كل موارد الحياة الا ما يجعلها تتحرك وكأنها حركة المشلول لا هو قادر على الحركة ولا هو راضي بالسكون

ا

كانت هذه الفترة من القرن الثامن الميلادي الى القرن السادس عشر الميلادي هي فترة الصراع بين الدماء العربية والدماء السودانية . . . صراع بين العرب الذين اضطرتهم الظروف السياسية للجوء للسودان وبين أهل السودان المسيحيين والوثنيين . بين اخلاق هؤلاء العرب البدويين اولئك الفلاحين المقيمين على النيل . . .

كانت معركة طويلة بدأت بسقوط الدولة الاموية في القرن الثامن وهروب اتباعها الى حيث لا يوجد حاكم من الدولة العباسية . ثم مرة أخرى في القرن العاشر الميلادي حين سقطت دولة العباسيين في مصر امام زحف دولة الفاطميين

المتعصبة للشيعة الغاضبة على الدولة العباسية التى تنكرت لمبادىء الاتفاق على اسقاط الدولة الاموية وأعادة حق آل البيت إليهم ولكن بنوا عمومتهم لم يروا فى طلب الشيعة مايلزمهم بتسليم السلطة اليهم ، بعد أن استحقوها بقوتهم وقوة مناصريهم واتباعهم .

كما رأينا أن الثقافة العربية والاسلامية بدأت حول حلقات الجوامع الكبيرة بالقاهرة وكانت هذه الندوات الصغيرة التى يتطارح فيها طلاب المعرفة والعلم أراءهم ومجهوداتهم هى بداية حركة الفكر العربى الأسلامى وعاشت هذه النهضة بقرب السلطة كى تكسب حمايتها واعاناتها إما الارياف والمدن البعيدة فلم يكن لها نصيب من هذا التقدير وهذه الرعاية فقد قامت الجوامع الاسلامية حيث تكاثر عدد المسلمين وعلت سلطتهم ولكن تلك الجوامع البعيدة والتى يدرس بها غالباً خريج من طلبه تلك الحلقات الدراسية الذين وفدوا لهذا الغرض للألمام بأصول الدين والفقه والحديث حتى يستطيعوا أن يسيروا الحياة الدينية والفكرية داخل الجوامع المنتشرة على المدن النيلية . . .

وهذه الجوامع لم تكن بأستطاعتها إن تلعب نفس الدور الذى كانت تلعبه جوامع الفسطاط ومدينة العسكر والقاهرة التى كانت تتلقى الرعاية والأهتمام من السلطات الحاكمة وحاجة السلطات الحاكمة نفسها لمنبر من هذا النوع . ولذلك كلما ابتعـــدنا عن العاصمة الأسلامية فى العـراق او الفسطاط أو الاندلس أو المهـدية قلت حـركة العـلم والثقـافة وكانت اهتمامات النـاس إهتمامات أخـرى غـير إهتمامات أهل الـكتب والدين يستخلص فى ذلك أن أولئك العرب الذين نزحوا إلى السودان وكانوا يستوطنون جنوب مصر ، حيث كانت أكبر معقل لقلاق الحكومة فى الشمال ، ففقد كل صعيد مصر

والنوبة فى أكثر المناطق إضطراباً وتمرداً على السلطة . فى الشمال وانتهاز أى بادرة ضعف أو إنشغال جيوش الدولة فى حرب خارجية إلا وترفع إحدى هاتين المنطقتين ، الصعيد ، والنوبة عصا التمرد والعصيان الأمر الذى ربط مملكة النوبة وصعيد مصر بالثورة ضد حكومة الشمال حتى قاد الاتفاق غير المقصود إلى احترام الهاربين من أهل الصعيد ولوائهم بالنوبة وبين سكان شمال السودان مما ساعد على هجرة العرب بجوار النيل .

هؤلاء العرب الذين إضطرتهم الظروف السياسية والاقتصادية إلى اللجوء إلى الاراضى الشاسعة شبه الخالية من السكان فى الجنوب وخاصة فى فصل الصيف . لم يكن هؤلاء العرب من رجال العلم والفكر ولكن كانوا من رجال العصبية المذهبية الدينية ومنهم الأوائل من بنى أمية ، ولم يكن بحصر منهم العدد الهائل الذى يؤثر كثيراً . ومنهم الاعداد العباسية التى جاءت لتملأ الفراغ الأموى وتنتقم لآل البيت حتى وجدت نفسها هذه الجماعة موضع إضطهاد وكراهية من أهل الشيعة والفاطميين الذين قذفوا بهؤلاء الأنصار العباسيين إلى قبائل السودان .

أبتعد هؤلاء الانصار العباسيين عن منطقة الاضطهاد حاملين معهم حرارة الدعوة الاسلامية التى برزت على رجال الصحراء النوبة . وفقدت الكثير من حماسها ووجد أصحابها أنفسهم فى شبه حالة تشرد وضياع يبحثون عن أرض تأويهم وجماعة تتفاهم معهم وظلوا يحافظون على شعائر دينهم وصلواتهم بين تلك القيافى والصحارى والوديان وانقطعت أخبار العالم عنهم أو كادت تنقطع عنهم لبعد المسافة وتوغلهم فى أراضى السودان عاما بعد عام وظهرت أجيال

جديدة منهم لم ترتبط بالخصومات القديمة ولم تحاول أن تنتمى إلى الشمال بقدر حبها للأرض الجديدة التى آوتهم والتى اعطتهم الامان والحياة .

أحب العرب هذه الحياة البعيدة عن المشاكل والحروب واستسلموا لحياتهم البدوية وبدأ ويمسحون الاراضى التى حولهم يتعرفون على خيراتها وعلى سكانها وكانوا فى خلال توغلهم داخل السودان بمرور السنين حذرين غير محبين للعراك حتى عرفوا أنفسهم كقبائل مسلمة مسالمة للقبائل السودانيـة التى كانت تستوطن النيل وتعيش على لزراعة . .

كانت حياة الترحال هذه غير كافية لنمو العالم الاسلامية بجانب انتشار وتطور الثقافة العربية بينهم .. بل كانت هذه الرحلة داخل اراضى السودان من العوامل التى أفقدت أولئك الرواد الأوائل وأحفادهم الكثير من دينهم وبعدهم عن أرض المعركة وما إنتهى اليه حال الدعوة فى عصرهم حين فقدت حماسها الدينى إلى الحماس إلى كرسى الخلافة والغدر والقتل ودخول عناصر كثيرة كان لها الاثر الكبير فى بث روح الفتنة ومؤامرات الحكم . . . بمرور السنين ظهور أجيال جديدة من أحفاد هؤلاء الرحالة العرب فى فيافى السودان فقدت هذه الاجيال الجديدة الكثير من خصائص الرواد الاوائل فى حفظهم لتعاليم الاسلام وغيرتهم الشديدة عليه الا أنهم أحتفظوا بكثير من خصائصهم العربية من تقاليدوأخلاق ملازمه لعنصرهم وبيئتهم وهذا مانلاحظه حين تم التفاهم والاحترام التام بين أهل السودان وأمتزاجهم بهم حتى أصبحوا عنصراً وحداً ذا تقاليد واحده شائعة بين الجميع وتقلصت صفات سكان السودان الأوائل كما تغيرت صفات العرب الاوائل ليظهر لنا هذا المزيج السودانى من التقاليد السودانية القديمة والتقاليد والاخلاف العربية التى صنعت منها رحلة الترحال مواطنــــاً جديداً حسب البيئة والمناخ .

كانت حركة الامتزاج هذه فيها شيء من اللين والمقاومة ، بين عادات وأخلاق أهل السودان والعرب فلاشك كان هناك تنافر بين عادات المجموعتين إلا أن الامتزاج السلمى الذى تم على مر العصور كان إمتحاناً لعادات المجموعتين فالعادات القديمة العريقة لايمكن أن تزول فى كل المجموعتين بمجرد التفاهم والحب والمعاشرة فهنالك تقاليد قديمة عاشت على نهر النيل يصعب على هؤلاء العرب المسالمين المتفهمين الراغبين فى المعاشرة من محو هذه التقاليد حتى لو كانت تخالف تعاليم الذى أتوا به عليهم أن يتقبلوا مثل تلك التقاليد العريقة القديمة ، ومن التقاليد الفوعونيه الخاصة بالافراح والختان التى كان يتمسك بها أهل النيل فقد قبلت الأجيال الجديدة من العرب هذه التقاليد التى عاشت فى النيل ورأوا فى إعتناقها تقرباً منهم لسكان أهل النيل والسودان ورأى أهل السودان بقبول العرب لمثل هذه التقاليد وإحترامهم لها إحترام لشخصيتهم ، وقبلوا بدورهم عادات وأخلاق العرب التى رأو العرب يتمسكون بها ويقدسونها كجزء من حياتهم . .

وكان هذا الامتزاج وهذا التجاور بداية لنشر الاسلام والثقافه والحضارة العربية وسط السكان المسيحين أو الوثنيين . وجوب الأسلام بعدعملية التزاوج والامتزاج بين المجموعتين معظم إنصار الممالك المسيحية التى كانت فى علوة ودنقلة تنفث آخر إنفاسها وتعيش الكنيسة نفسها فى حالة جذب وإنفصال كامل عن الحركة المسيحية فى العالم وفقدت كل علاقة بها حتى كان القرن الخامس العشر الميلادى وقد تم خالق شخصية جديدة تحمل من تقاليد النيل الوثنية العريقة وتقاليد العرب الذين فقدوا كثيراً من خصائصهم خلال عملية الرحلة الطويلة حتى يصلوا إلى النيل وإلى أرض البطانة والنيل الأزرق وأرض الجزيرة وغرب السودان حتى ظهرت الشخصية الجديدة لمجتمع القرن الخامس عشر ووضح فيه شكل الزعامة القبلية وأصبح لها وزنها الاجتماعى بين الأفراد وظهر المجتمع

القبلى الجديد بعد التكاثر وسيطرت المسلمين على معظم أراضى النيل والفونج وغرب السودان مما مهد لقيام دولة العبد لاب والفونج فى سنار وأسلام دولة الفور فى غرب السودان وإنتصار الاسلام وظهور زعامته من رجال العشائر وزعماء القبائل ليحلوا مكان سلطة الدولة المسيحية فى الشمال وفى أرض الجزيرة عند سوبة .

• • • •

السلطنة السنارية

بعد أن تم الامتزاج بين العرب وسكان السودان وظهر المجتمع الجديد الذى جمع بين الخصائص العربية القديمة والخصائص النيلية القديمة وحل الاسلام محل الديانة المسيحية بعد أن حمله هؤلاء العرب الرحل مئات السنين وفقد كثيراً من تعاليمه وفقد العرب أنفسهم الكثير من خصائصهم الأولى وابتعادهم على دولة الإسلام فى الشمال وتوغلهم فى هذه الفيافى والوديان والانهار حتى تكاثر العدد وغزو أرض النيل والجزيرة وظهر شكل المجتمع القبلى . . . وظهرت شخصية زعيم القبيلة الكبيرة العدد التى لها وزن فى الخصومات القبلية والمشاحنات وفرضت الشخصية الجديدة نفسها على المجتمع وبدأت تظهر وتتضح معالمها البارزة المميزة وتمارس كل حقوق زعيم القبيلة .

وخير مانشير اليه هنا هو كتاب الأستاذ شاطر البصيلى معالم سودان وادى النيل الذى ناقش فيه قيام السلطنة السنارية مناقشة مستفيضة بعد عرض الخلافات الكثيرة بين المؤرخين فى أصل قيام هذه المملكة .

جاء القرن الخامس عشر وكانت ملامح المجتمع القبلى قد برزت وظهرت زعامات قبلية كثيرة ذهب بعض المؤرخين بتسميتها ممالك .

ونجد فى شمال السودان بعد سقوط دولة « المقرة المسيحية فى القرن الرابع عشر الميلادى من جراء هذا الشكل الجديد للنفوذ الجماعى فى الشكل القبلى وظهرت فى الشمال مشيخة ملك « ارقو » على ارقو وجزيرة مقاصر والخناق

فى الجوابرة والنوبة ثم تليها مشيخة البدبرة من حلة تبين إلى جبل دافر وتضم الخندق ودنقلا العجوز وجزيرة تنقس وايكر والدفار بزعامة مالك دنقلة العجوز ثم تلتها المشيخة الشايقية وتضم حنك وقوشابى ومروى والعمرى ثم تليها مشيخة المناصير من الرحمد إلى نهر العطبرة ومن وصف بوكهارت فى رحلته فى السودان أن هذه المنطقة قليلة السكان حتى فى منطقة ملتقى نهر العطبرة ونهر النيل وتشمل كذلك هذه المنطقة مشيخة الرباطاب والميرفاب ثم بعد ذلك المشيخات القرية حيث كثافة السكان أغزر هنا من الشمال مالقرة هذه المشايخ واستلامها السلطة فيما بعذ على المشايخ الأخرى وهى مشيخة العبدلاب تجاورها الزعامة الدينية لبيت المجاذيب بالدامر وشندى حيث ملك الجعليه .

تزعم العبدلاب هذه المنطقة بواسطة زعيمهم عبد الله جماع وبسطوا نفوذهم على المشايخ الأخرى لقوة قبيلة العبدلاب حتى تمكنوا من توحيد منطقة نفوذهم مع منطقة نفوذ الفونج فيما بعد فقد امتد نفوذ الفونج إلى أرض النيل الأزرق وشرق السودان .

وأهم مانود أن نضيفه هنا إلى تاريخ هذه السلطنة وتلك الفترة كثافة السودان وزيادة الموارد الاقتصادية واتحاد الأفراد فى مجموعات باسم القبيلة خلف ذلك الصراع الذى عاشت فيه الجماعات التى عمرت السودان واستوطنته وذلك مابين الفترة من القرن الثالث عشر الميلادى والخامس عشر الميلادى وهى الفترة التاريخية الكافية لخلق ذلك التجمع وتلك القوميات الصغيرة على ضفاف الأنهار والوديان والسهول . . . كما يجب أن نضع فى أذهاننا طبيعة تلك المجموعات وميلها إلى الحروب والمشاكسة وخروج الأفراد والشاذين منهـا الذين يحترفون مهنة السلب وقطع الطرق الأمر الذى يقود إلى مصائب كبيرة . فقطاع الطريق مهما كان الجرم الذى ارتكبه كفرد اصبحت القبيله مسئوله منه .

أن الاخلاق القديمة التى جاءت مع العرب كانت تلزم القبيلة بجناية الفرد المنتمى اليها . . . وهذا سبب من الاسباب الرئيسية لخلق المشاحنات والحروب الداخليه بين المجموعات القبيلة التى خلقت البيئه الجديدة . . . . . . ويجب أن لاننسى القبائل النيلك التى كانت تسكن جنوب أرض الجزيرة وماعرف عنها بحب للقتال وكأى مجموعات بدائية كانت الحرب رغم بدايتها الحروب منها أمر محال . . فالتمرد على الحرب والقتال أمر تفرضه طبيعة البيئة والحياة . .

وإذا كان تاريخ السودان فى العصور الوسطى يبتدىء باهم حدث تاريخى وهو قيام السلطنة السناريه بين عبدالله جماع رئيس أكبر مجموعة فى الشمال وبين عمارة دنقس رئيس أكبر مجموعة فى حوض النيل الازرق ...

ويجب علينا أن نسأل بعض الاسئلة لماذا أتحد هؤلاء الزعماء هل كانوا فى قوة متعادلة أغرتهم اطماعهم على حفظ قوتهم وتوحيدها لبسط نفوذهم على كل المجموعات الأخرى التى كانت لاتخضع لهم .....

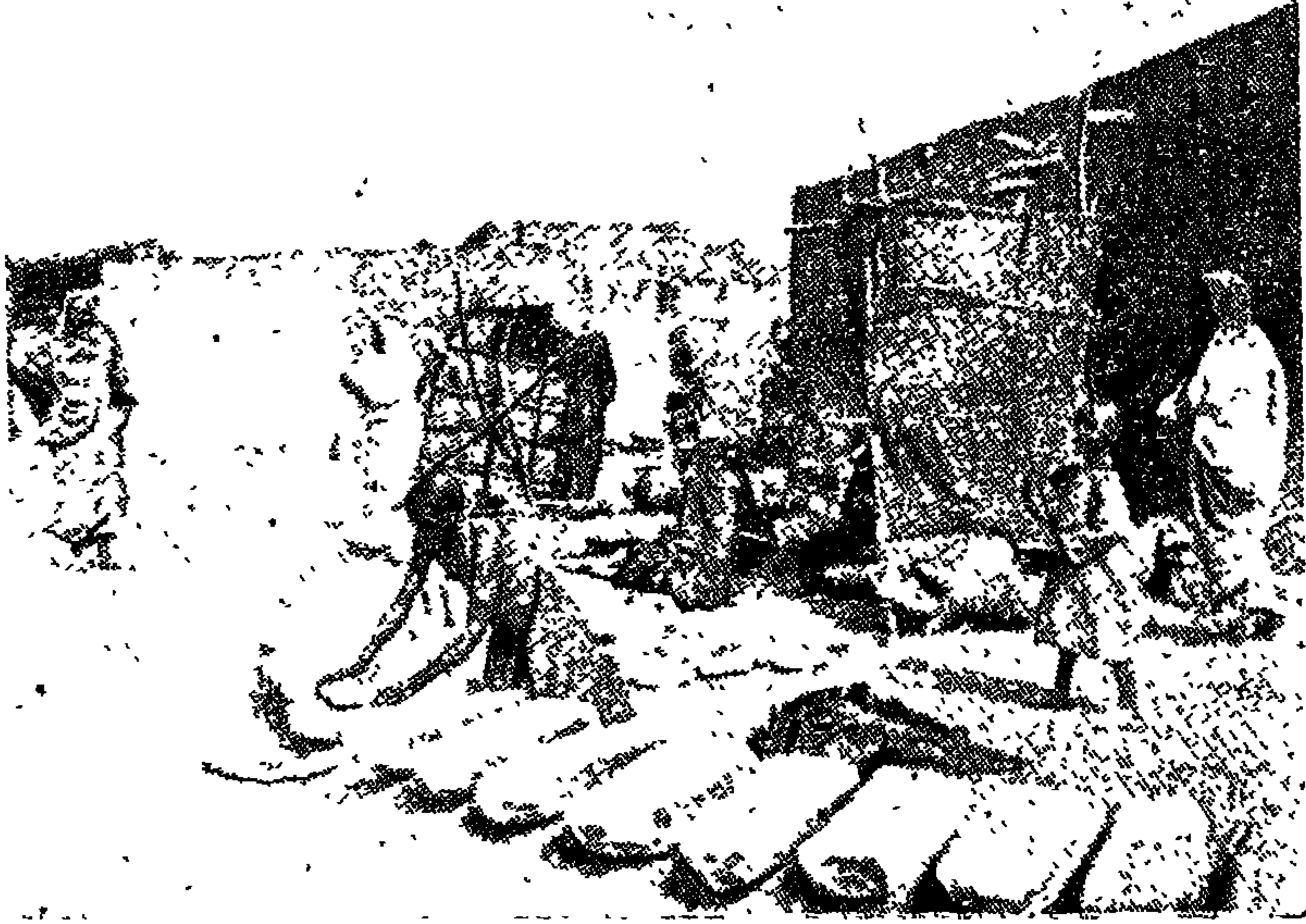
أن هذا الاتحاد جاء بصداقات ومعاملات تجارية بين أغنى أولاد المجموعات السودانية .. وعبدالله جماع زعيم العبدلاب وعمارة دنقس زعيم الفونج الذين ظهروا كمجموعات قوية فى منطقة النيل الازرق وحـــدود الحبشة فقد أنتهت مملكة علوه المسيحية وضربت بواسطة قبائل الفونج وأنتهى حكمها وسلطتها وفقدت البلاد السلطان والملك الذين يجب أن تدين له كل هذه المجموعات كما أن دنقله أنتهت السلطة فيها فتغلب العرب عليها بعد الحروب التأديبية العديدة

التي كان يقود فيها ملوك مصر لردع تمرد ملك دنقلة والنوبة المسيحية وذلك في عهد الملك بيبرس . وتدخل سلطات مصر في شئون مملكة دنقلة وطرق التجارة رغم أستمرار مسيحية هذه المنطقة إلا أن الظروف الاقتصادية لدولة المماليك كانت تفرض عليهم الاستمرار في أخضاع شمال السودان لدفع الجزية والضرائب في حين أستطاعتهم أن يفرضوا سلطانهم على هذا الاقليم وتعيين حاكم مسلم عليه . .

أن الجزية السنوية والضرائب التي كانت تصل إلى السلطان كانت اقوى من حوافز المماليك الاسلامية ... فلو فرضوا الاسلام على شمال السودان اقلة الجزية وأنعدمت ولذلك حافظوا على نصرانية هذا الجزء أكبر قدر ممكن ليستفيدوا من جزية المسيحية التي كانوا يتقاضونها .

كانت السلطنة السنارية هي بداية جديدة لحياة السودان الاسلامي وكانت أملا لتوحيد تلك القبائل والنهوض بالسودان والاسلام إلا أن الظروف العالمية كانت لا تسمح لهذه الدولة أو لغيرها بشيء أكثر من قيام هذه الدولة وأنحصارها في منطقتها ومحافظتها على أستمرار التجارة في المقام الاول .

فاذا كانت تستطيع أن تفعل السلطة السنارية ١٥٠٤ م تاريخ أنشاءها ومساطيل المملكة العثمانية وتمديد الشلك إلى كل البلدان حتى مست مصر عام ١٥١٧ م وبذلك سكنت حركة الحياة في البلاد العربية الاسلامية حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى .. كان تدخل السلطنة العثمانية في البلاد الاسلامية وشل حركتها من الاسباب الرئيسية لركود مملكة سنار وخاصة الحياة الثقافية عامه





الصورة العليا

المرأة عنصر هام فى صناعة وإبتكار الأدوات المنزلية . . من الحجارة إستطاعت أن تخلق أدوات لرحى الذرة

* * *

الصورة السفلى

العرب بعد أن استوطنوا السودان وخلقوا لهم حياة جديدة حسب ظروف السودان وأمكانياته.

صورة لعرب صحراء بويضة .



أحد قرى الشلك حيث استفاد من خيرات الطبيعة فى بناء مساكنه بدلا من الأحجار والطين . ليناسب مناخ منطقته .



منظر العرب الجعليين استقرار موسمى فرضته طبيعة حياتهم المعيشية استفادوا من جلود الحيوانات وأشجار الصند التى حولهم.



رغم انتصار الاستعمار على الصوفية إلا أنه لم يستطيع أن يفرق وحدة الصوفيين
الصورة تبين محمل دار فور مخترقاً مدينة أم درمان عام ١٩٠٤

فى البلاد الإسلامية وشل حركة التقدم للعلوم الاسلامية التى كانت تتمركز فى بغداد وحلب والقاهرة والاندلس وسنعود إلى ذلك حين مناقشة الحياة الثقافية فى عصر السلطنة السنارية ..

والان رغم أختلاف كل المؤرخين فى تحديد زمن تحالف العبدلاب والفونج بين بروس وكايو وكاتب الشونة وتريمو ونعوم شقير ومخطوطة واضيف الله إلا أننا سنعتمد على ما جاء فى مخطوطه ودضيف الله اليه وشروحها .

فقد جاء فى المخطوطة تأكيد لهذا الاختلاف وهو أن بعض الروايات تروى بداية ملكهم عام ٨٩٠ ﻫ وأخرى تروى ٩١٠ ﻫ وهذا الاختلاف يشير إلى إلى أن حكومة الفونج قد قامت قبل عشرين عاما قبل أن تتخذ مشيخة العبدلاب وعليه يمكن أن تعتبر أن عام ٨٩٠ ﻫ بداية تدوين سلطة الفونج التى كانت أقوى الأمر الذى يؤكد احقيتها التاريخية على العبدلاب للعشرين عاما رغم الاتحاد فى عام ٩١٠ ﻫ ١٥٠٤ م

. . . .

عمارة دونقس : (٩١٠ - ٩٤٢)

زعيم الجماعات التى سكنت حوض النيل الأزرق والتى شاركت العبد لاب جزء من أرض الجزيرة وأمتدت نفوذها على النيل الأزرق وروافده وشماله .. نرجح أنه أستلم زعامة هذه المجموعات عام ٨٩٠ هـ تتغلب مجموعة التى عرفت فيما بعد إسم الفونج أو الفنج كان عصره عصر الزعامات القبيلة والفترة التى آتشكل فيها شكل المجتمع شكله الجديد بعد سقوط الدويلات القديمة بحسب رئاسته لهذه القبائل كان أغنى مجموعته وكان من المهتمين بالتجارة والقوافل التجارية الامر الذى مهد له ولعبد الله جماع الاكتفاء والتفاهم على إخضاع المجموعات الاخرى وتكون الحلف السنارى.

ثم فى عام ٩١٠ هـ كتابة وثيقة الحلف بين عبدالله جماع وبين عمارة دونقس الذى بنى مدينة سنار .

وقبل قيام مدينة سنار وأنتقال المدينة والحضارة اليها ظهرت مدينة قبلها وهى مدينة اليجى على الشاطىء الشمالى للنيل الأزرق خطها الشيخ حجازى بن معين . .

وحتى ذلك الحين لم تكن تعرف تلك المنطقة شيئا من مظاهر المدنية والعلوم فقد جاء أن الرجل يطلق المرأة ويتزوجها غيره فى نهارها بدون عدة . . وهذا كان يحدث بين الأعراب الذين أبتعدوا عن الإسلام وتعاليمه وخالطوا نساء

السودان بعاداتهم الفرعونية القديمة التي لم يستطيعوا حتى الان الخلاص منها ... ويجب علينا أن نقف عند هذه النقطة حتى نستطيع أن نتطلع ونتابع حركة التطور التي أحدثتها السلطنة السنارية . سلطنة تجارية قامت من أجل المحافظة على تجارة القوافل التي تهم زعيم الفونج وزعيم العبد لآب ، بين قبائل رعوية متنقلة شرسة فتولى عبد الله جماع إخضاع قبائل الجعليين والجواذيب والميرفاب والرباطاب والمناصير والشايقية والدناقلة وتولى عمارة دنقس إخضاع القبائل التي تغطى شرق النيل الأزرق ووديانه والمضارف والبطانة . .

فقد كانت تلك المجموعات صغيرة متنافرة قليلة الإمكانيات ، إذا رأينا أغنى منطقة وهي منطقة نهر النيل الأزرق اقتسمتها قبيلة العبد لآب حتى حدود أرض الجعليين شمال قرى عاصمة العبد لآب ثم الجزء الشرقي من النيل الأزرق بأراضيه الخصبة ومراعيه الأمر الذي يسهل لأى مجموعة تقطن هذه المنطقة أن تعيش في رغد ويسر إن كان من ناحية المحصولات الزراعية أو المرعى لماشيتها التي كانت عماد حياتها .

هكذا بدأ الحلف السناري لخلق مجتمع مستقر وبناء المدن وخلق إدارة جديدة بين أفراد لم يتعودوا مثل هذه المسئولية ويجب أن نقف عند هذه النقطة أيضا إن أردنا ان نتابع التطور الحضاري لهذه المجموعات الرعوية التي لم تعرف الادارة والنظام وما تطلبه هذه الدولة من مؤهلات وكوادر لإدارة شئون الدولة الجديدة التي اقتسمها عمارة دونقس واحتفظ بالرئاسة لنفسه ولعائلته واعطى عبد الله جماع واسرته أمارة القسم الشمالي من المملكة . .

وقد ساعد التركيب الاجتماعي القبلي ونظام إدارته هذه المملكة على الاستمرار

فى أدارة هذه المملكة الشاسعة .. فقد كانت القبائل منظمة بطبيعتها برأسها زعيم قبيلة هو الغالب أغنى مجموعته إن كان يحصل ضرائب مباشرة منهم أو غير مباشرة فى شكل غرامات وخلافه .

هذا النظام الإدارى القبلى الذى كان يدير المجموعات كفل للدولة الجديدة مشقة البحث عن كوادر جديدة للقيام بالنظام والادارة فتولى كل زعيم أدارة مجموعته مع خضوعه لسلطان سنار أو لخليفته من العبدلاب بقرى مع أستقلاله الذاتى فى إدارة شئون أقليمه.

ظهور زعامات دينية جديدة دفع لاتحاد رجال المال .

رغم الأختلاف بين كل المصادر التاريخية والوثائق القديمة بداية هذا التاريخ إلا أن هناك حقيقة تثبتها المراجع أنه حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى لم يستقر الاسلام والثقافة العربيه فى السودان وكان نهاية القرن الخامس عشر هو بداية ظهور شخصيات دينية .

وقبل التعرض لهذه الشخصيات الجددة التى أثرت فى الفكر السودانى وسلوك الأفراد بل غرست قواعد المجتمع الجديد منذ القرن الثالث والرابع الهجرى منها مدرسة حسن البصرى وابراهيم بن ادهم ومدرسة رابعة العدوية تلك الشخصيات الوافدة الى السودان بتقييم جديد للانسان ومقدراته وملكاته بذرت بذور الصوفية والكرامات والخوارق وأوجد نوع من الشخصية الجديدة الى بدأت تزاحم الشخصيات القديمة الى تولت زعامة المجتمعات والرجال .

كانت الزعامة قبل ظهور هذه الشخصيات الجديدة للافراد الأقوياء أصحاب الامكانيات وأبناء القبيلة الكبيرة وأصحاب النسب والحسب فظهرت هذه الشخصيات لتخلق نوعاً جديداً من الافراد عاديين ليسوا أغنياء ولا من رجال كبار القبائل أو من الفرسان الذين يهزمون العشرات أو من الكرماء.

طرحت هذه الشخصيات الوافدة مفهوما جديداً للرجل الكامل حسب وجهة نظرهم التى قبلها المجتمع . . الانسان العابد المنقطع للعبادة والانسان الذى يأتى بالخوارق ، الانسان الذى يستطيع أن يكشف الغيب وأن يشفى وأن يؤذى وله حق الامكانيات غير الطبيعية مايذهل العقل الانسانى عن مصدر هذه القوة وهذه الامكانيات .

أن القرن السادس عشر بالنسبة للسودان هو بداية تحول كبير فى التفكير والسلوك والقيم وفى إرساء تعاليم والثقافة العربية التى لم تنشأ حتى ذلك الوقت أما بالنسبة للعالم الاسلامى فكان ايذانا بتحول كبير بعد أن أمتدت يد الدولة العثمانية إلى البلاد العربية وبعد أن ظهرت الخلافات المذهبية بين المسلمين الأمر الذى قاد لظهور مذهب جديد هو مذهب الصوفية الذين رأوا لاخير فى هذا العالم وتأثروا على يبدوا بسلوك الرهبان فى العبادة . فانقطع نفر من الصوفيين الأوائل للعبادة وعدم التفكير فى أمور الدنيا بل فتح قلبه لعبادة ربه ورسوله ودام فى حب خالقه ورسوله درجة اعمته عن كل مسئوليات الحياه ومشاكلها واتجه بصره وعقله وبصيرته للعالم الآخر وفعل مايشبه مايفعله الرهبان المسيحيين فى إنقطاعهم للعباده وتركهم ملذات الحياة ومسئولياتها .

وكانت هنا لك منطقتين ظهر فيهما هذا الاتجاه الجديد فى العبادة بغداد حيث

نكب الاسلام بضياع وحدة دولته وإنحراف الخلفاء المسلمين عن المعالم الاسلامية في المغرب حيث أمتد المذهب الشيعي الذى اخذ أصحابه في سلوك الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاءهم وتفانيهم المنقطع النظير لخالقهم مثلا أعلى لهم اقتدى الشيعه بذلك المسلك السامي للرسول في العبادة ونسوا أن الرسول لم ينس مسئوليات الحياة ولم يطلب من الناس أن يجعلوا العبادة تلهيهم عن مسئوليات الحياة وكسب العيش .

وأول ماجاء للسودان حاملا هذه البذرة هو الشيخ تاج الدين البهارى البغدادى وننقل هنا تعريفه حسب ماجاء بمخطوط ودضيفة ضيف (هو تاج الدين البهارى البغدادى أسمه محمد والبهارى نعته مأخوذ من قولهم قمر باهر أى مضيء أسمى بذلك اضياء وجهه ريحانة من أخباره هو والشيخ الامام القطب الربانى والغوث الصمدانى خليفة الشيخ عبد القادر الجيلانى مولده ببغداد حج إلى بيت الله الحرام وقدم بلاد السودان باذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم والشيخ عبد القادر الجيلانى قدم مع درواد بن عبد الجليل أبو الحاج سعيد جد ناس العيدى (١) وقدومه أول النصف الثانى .

....

---

(١) العيدى بلدة بالشاطىء الأيمن للنيل الأزرق شرق مدينة الكاملين

تطور الثقافة العربية فى عهد السلطنه السناريه:

أتاحت الظروف العالمية لسلطنة سنار أن تتقدم وتحتضن الثقافة العربية كما خلفت من حولها مناخاً جافاً من النهضة والتقدم .

قامت السلطنـة السنارية والأمبراطورية الاسلاميـة قد تقسمت إلى . . دويلات صغيرة أهلكتها الخلافات والحروبات حتى أمتدت لها يدالاخطبوط العثمانى لتشل حركة تقدمها وبذلك فرضت حياة راكدة فى البلدان العربية المحيطـة بالسودان والتى تشاركه فى الاسلام كما أتاحت للسودان الفرص أن يتبنى النهضة العلمية التى كانت سائدة فى البلدان العربية وتقديم كافة المساعدات والامكانيات المادية التى كانت تغرى العلماء بالنزوح للعواصم ومجاورة المـــلوك . .

وقد كان تخلف السودان الثقافى والاسلامى عن البلدان العربية لايتيح له الفرصة لمثل هذا الدور الخطير ... فلو كان السودان متقدما مثل بقية الدول الاسلامية لاحتضن علماء الدول الاسلامية وتبنى تطور الثقافةالعربيةوالاسلامية ولكن ظروف تطور السودان الاسلامى والعربى لم تواكب تطور بقية البلاد الاسلامية والعربية . . . .

وفى القرن الذى بدأت فيه الحضارة الاسلامية فى البلاد العربية فى الذبول والضياع ظهرت دولة السودان العربية الاسلامية فقيرة من كل الامكانيات بعيدة كل البعد عن تطور الحياة فى البلاد العربية ولذا لم يستطيع أن يستفيد

السودان من خيرات المفكرين العرب باتاحة الظروف الملائمة للعمل العلمى على على الوجه المطلوب . . .

ورغم ذلك كان السودان متنفذا هاماً لبعض الغاضبين والمترددين والحالمين من العلماء والمخلصين أيضا .

قامت السلطنة السنارية وخلفت المملكة الاسلامية الأول فى السودان . . فكل زعيم من المجموعتين الذين خلقوا التحالف السنارى عبد الله جماع وعمارة دونقس هسام يحتفظ بشجرة نسب عربية مما أتاح هذا النسب الانتعاش تطور الفكره الاسلاميه والثقافة العربية . . وقد كان هنالك وسيلتين لهذا الانتعاش مواسم الحج وإنتشار الفكرة بين الناس وحماية الدوله لقوافل الحجاج واشتراك أمراء سنار والعبدلاب فى حفظ سلامه قوافل الحجاج ، دفع بالكثيرين لزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وأداء الفريضة ... وعن طريق الحج كانت تنفتح مدارك الحجاج لمفهوم الاسلام .. وقد لعبت هذه المواسم دوراً كبيراً فى دعوه بعض العلماء لزيارة السودان وتقديم المساعدات العلمية ونشر التعاليم الاسلامية وقد كان تاج الدين البهارى (البغدادى) أول من لبى هذه الدعوة وأول من أشتهر من العلماء الذين أتوا من الحج مباشرة مع قوافل الحج السودانية .

وإذا أردنا أن نؤرخ للثقافة العربية والاسلامية بالمفهوم العلمى الحديث وبما كان سائداً فى البلاد الاسلامية فسنؤرخ له بدخول تاج الدين البهارى أوائل القرن السادس عشر أما قبل ذلك فلم يعرف السودان من الثقافة العربية والاسلامية إلا الشىء اليسير من الذين سبقو تاج الدين باعوام بسيطة فى أدخال

القراءة العربية والتعليم الاسلامية ونشر القرآن والصوفية حسب ماجاء الينا في المخطوطات

وقد كان تعطش الناس للتعاليم الاسلامية وتعلم القراءة وحفظ القرآن من العوامل التي ساعدت لنشر هذه الثقافة العربية والاسلامية في وقت وجيز في السودان على يد تاج الدين البهاري وراجل القصير وأولاد جابر .

وقد سبق تاج الدين البهاري بعض العلماء المصريين والمغاربة إلى السودان بزمن يسير إلا إن تلاميذ تاج الدين البهاري هم الذين قامت عليهم النهضة الثقافية والصوفية في مملكة سنار فقد سبق تاج الدين البهاري الشيخ البراهيم البولادى ابن جابر إلى دار الشايقية حيث درس فيها خليلا والرسالة بعد أن زار مصر وتعلم في الازهر ثم ذهب إلى سنار كبقية علماء ذلك العصر لمجاورة الملوك والعواصم الاسلامية حيث جعل له مدرسة كاروقة الأزهر الشريف يدرس فيها ويلقى فيها محاضراته في شتى العلوم الاسلامية .

وقد قامت على يد أولاد جابر بأرض الشايقية منذ القرن السادس عشر أول مدرسة لتدريس القرآن وعلومه بالسودان ، وقد سبقت أرض الشايقية بقية الأقاليم السودانية في هذه المعرفة ولذلك لقرب أرض الشايقية من طريق القوافل التجارية الذاهبة إلى مصر والازهر . . رغم أن الازهر في عصر الحكم العثماني لم يكن كما كان في عهد الفاطميين والماليك إلا أن المسلمين بسماحة دينهم كانت تفرض عليهم أطعام طلاب العلم وتوفير سبل الحياة . . .

وقد أهتم بعض الميسورين ببيوت الله ورعايتها من أموالهم الخاصة الأمر

الذى حفظ للأزهر مواصله رسالته رغم كل الظروف العصيبة ووقف الاعانة المادية عنه .

وقد خصصنا فصلا بتاريخ الازهر والجوامع التى سبقته فى مصر لنعطى صوره عن حياة العلم فى عهد الدولة الاموية والعباسية والفاطمية والمماليك وأمكانيه إستعداده السودان من دراسته الى يأتى فى المرتبة الأولى ضمان العيش للطالب فيه وقد ساعد الحج عن طريق مصر فى سفر كثير من طلاب العلم إلى مصر ليقيموا بالأزهر حتى قيام قوافل الحج ثم بقاءهم بمكة لمجاورة المصطفى عليه السلام ثم العودة عن طريق مصر وعلى سبيل المثال العلامة الكبير عمار بن عبد الحفيظ الخطيب من أهالى سنار حيث درس جميع العلوم الفقهية والنقلية والعقلية وعلم النحو الاصول والمنطق والتصوف وكان ذلك فى عام ١٠٧٧ هـ ...

وقد مدحه تلميذه الفقيه على ولد الشافعى بقصيدة قال فيها :

ياطالبين لكل من تبتغوا ... شدوا الرحال وتيمموا سنارا
قد حل بها امام فاضل ... زين النوافل عالى المقدار
ورع تقى صابر متواضع ... وجل عليه سكينة ووقار
له العلوم تأهلت طوع المنا ... من غير إشكال ولا إعسار
فى كل فن تطلبون تورنه ... يبدى المزيد كزاخر الأبحار
فقه وتفسير الحديث ومنطق ... وبديع علم والمعانى يدار
فقه ونحو والبيان وصرفه ... علم الكلام به جلا لغبار
علم التصوف طال فيه يافتى ... وقتا به للسادة الأبرار
وكأن مجلسه المسمى أزهر ... على المدارس فى كلا الامصار

وهذه القصيدة تكشف لنا علم العلامة عمارة بن عبد الحفيظ الخطيب ولاشك أنه قد كان خير علماء سنار كما تكشف لنا عن حالة الشعر العربى فى القرن السابع عشر الميلادى .

وقد كان يتكسب كغيره من هداية الطلبة والأصدقاء وزعماء القبائل المحبين لرجل الدين والعلم . اما ملوك سنار فلم نسمع عنهم أنهم تبذنوا هؤلاء العلماء كما كان سائرا فى بغداد وحلب والقاهرة والاندلس وان كانت هنالك بعض الهبات والهدايا فقد كانت لظروف خاصة ولكنهم كسياسة عامة لم يسلكوا سلوك رؤساء الحكومات الاسلامية فى البلدان العربية . . . .

اما الشيخ تاج الدين البهارى الذى حضر فى بداية القرن السادس عشر الميلادى لم يسكن سنار بل أقام فى الجزيرة فى ضيافة داود عبد الجليل الذى دعاه لزيارة السودان وتعليم أهلها تعاليم الاسلام بعد أن قابله فى أرض مكة وتزوج من أهالى العك بالهلالية وتخرج على يديه علماء من علماء السودانيين الاوائل ورجال الصوفية منهم الشيخ محمد الهميم الذى جعله الشيخ تاج الدين البهارى خليفته بعده وطلب من الناس مبايعته . ومن أخباره وتسميته بالهميم . . . ان زوجة شيخه طلبت منه دوكة كسرة فطلب من محمد أن يحضر لها دوكة فذهب واحضر الدوكة على رأسه وعند حضوره وجد شيخه قد غادر اربجى إلى سنار فلحق به فى سنار والدوكة على رأسه وعندما وصل سنار سأل عنه فعرف أنه رحل إلى قريته فلحقه فى القرية وهو مازال حاملا الدوكة على رأسه وعندما علم شيخه بقصته قال له هذه همة تصلح بهـــا دين الله عز وجل فوقع مغشيا عليه . . .

ثم تتلمذ على يد الشيخ تاج الدين البهارى بانقا الضرير وهو من رجال الصوفية الصالحين . . .

وكذلك حجارى بن معين بانى أربجى ومسجدها وشاع الدين ولد التويم جد الشكرية والشيخ عجيب الكبير . .

كما سلك أربعين رجلا منهم الفقية حمد النجيق صاحب مسجد اسلانج والفقية رحمه جد الجلاويين ختم أثنان ولد عبد الصادق وبان النقا كما سافر إلى نقلى وسلك فيها عبد الله الجمال جد الشيخ محمــــد ولد الترابى مع جماعته . . . وقد حمل هؤلاء من بعده رسالة الصوفية وبناء المساجد واشعال نار القرآن والدراسات . .

وإذا أردنا أن نحصر مراكز التعليم فى السودان فى عصر سلطنة سنار فسنجدها حيث طاب المقام لرجال العلم والصوفية . . فقد جذبت أرض رفاعة وأربجى والجزيرة الكثير من العلماء ورجال الصوفية لكرم رجالها وحسن ضيافتهم وكرمهم ثم مدينة سنارو الحلفاية وسندى وبربر وأرض الشايقية وخاصة نورى وتفلس وتوتى . . .

بعد نجاح الحلف السنارى ومع بداية القرن السادس عشر واستتباب الأمن واستمرار القوافل التجارية مع مصر والحجاز انتعشت الحركة التجارية وكثر عدد المسافرين والمرافقين لها وكثر عدد العرب المهاجرين للسودان طلبا للرزق والثروة وكثر عدد طلاب العلم فى أروقة الأزهر والمجاورين بمكة وتزودوا بالعلم والعلوم الاسلامية . . . . وانتشر خبر قيام السلطنة السنارية بواسطة

القوافل التجارية فى مصر والحجاز وانفتح الباب للهاربين من ظلم مجتمعاتهم وشظف العيش بأوطانهم للقدوم إلى السودان كما انتهز الحجاج السودانين الفرصة لدعوة رجال العلم الصالحين للحضور إلى السودان لتعليم أهله تعاليم الاسلام والقراءه والكتابة وحفظ القرآن .

وبنهاية القرن السادس عشر كانت العلوم الاسلامية والثقافة العربية قد انتشرت فى ربوع السودان والمدن التجارية وبحلول القرن السابع عشر الميلادى كانت الصوفية قد تركزت فى القرى والمدن وشغلت الناس بما صاحب رجالها من كرامات وورع وصلاح جذب اليها الناس دون رجال العلم حتى بات مركز رجال الصوفية أعلى من رجال العلم والدين .

وأذا حاولنا أن نتتبع النشاط العلمى والدينى خلال القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر فسنجد دراسة القرآن وحفظه كانت تحتل المركز الأول وكان حفظ القرآن امل الغالبية من طلاب العلم اما مازاد عن ذلك من علوم فكانت تمليه ظروف الطالب والشيخ . . . فالشيوخ الذين قاموا بتدريس القرآن والخليل والسيرة واللغة العربية كانوا يقومون بتدريس هذه العلوم فلم يختص شيخ أو عالم بتدريس مادة منفردة بل قصر بعضهم على تدريس القرآن وعلوم الدين وزاد البعض تدريس اللغة العربية . من فقــه ونحو وعروض ...... الخ ...

وقد كانت لكل شيخ خلوته (الكتاتيب) الخاصة به يحضر إليه التلاميذ من القرى المجاوره للأقاليم البعيدة حسب سمعته وتراثه وبركته وصلاحه

واستعداده لقبول الطلاب وضيافته لهم وكل ما كان استعداد الشيخ لتعليم الطلاب دون ارهاقهم بالالتزامات المادية كلما كثر طلابه . . . وقد اختلف علماء السودان عن بقية علماء البلاد العربية الأمر الذى جعل نشاطهم لا يصل إلى تلك النهضة العربية . . فقد كان علماء الدين واللغة يجتمعون جميعا فى الجوامع الكبيرة كل له زاويته يدرس علمه المتخصص فيه . فأحدهم يدرس التفسير وآخر السيرة وآخر علوم اللغة العربية وكانت حلقاتهم يشهدها كبار العلماء والادباء الأمر الذى رفع من مستوى تلك الندوات والمناظرات التى كانت تجرى فى جامع بغداد أو الفسطاط والأزهر أو حلب حتى خلقت تلك النهضة الفكرية الاسلامية العربية لاتساع صدرها لهذا التنافس والتخصص واشتراك العلماء مع بعضهم فى المناقشات واجتماعهم تحت سقف واحد بما أتاح أيضا للطالب أن يتلقى العلم على يد أكثر من معلم رغم إستعداد البعض للتدريس فى كافة العلوم

ازدهر تدريس القرآن وعلوم اللغة العربية وآداب الصوفية وقد دخـــل الشعر الصوفى قبل غيره من آداب العرب وذلك لانجذاب الناس نحو رجال الصوفية . .

ومن رجال الصوفية الكبار محمد أبراهيم الهميم ، ولم يكن عالماً إذ اضطر القاضى دشين (قاضى العداله) أن يفسخ زواجه لانه تزوج أكثر من أربعة وجمع بين الاخوات ثم الشيخ خوجلى بن عبد الرحمن أبو الجاز وكان أكثر رجال الصوفية صلاحاً وظهرت له كرامات كثيرة ودانت له الملوك وعامة الناس ومن سبقه فى درجة الصلاح والصوفية الشيخ أدريس بن محمد الارباب المولود عام (٩١٣ هـ — ١٥٠٨ م) والمتوفى عام (١٠٦٠ هـ ١٦٥٠ م) وعاش مائة وسبعة وأربعون عاماً مدفوناً بالقرب من الحلفاية وكذلك بانقا الضرير أحد

الذين سلكهم الشيخ تاج الدين البهارى الذى ولاه تربية أبنائه حين توفى وأعطاه أسرار الصوفية . . . . ومن رجال الصوفيـــة الذين علت سمعتهم وظهرت كراماتهم ، الشيخ دفع الله بن الشيخ محمد أبو إدريس . تبناه الشيخ ادريس بن الأرباب حفظ القرآن وأشتغل بالفقه ثم قرأ مختصر الخليل على الشيخ إبراهيم الفرضى . . .

وإذا أردنا أن نحص مراكز التجمع الثقافى والعلمى فى السودان داخل أراضى السلطنة السنارية ، فنجد على النيل الأزرق حوالى ثلاثة أو أربعـــة مناطق تجمع على طول النيل الأزرق أحد هذه المناطق خاضع لنفوذ العبدلاب والثلاثة تحت نفوذ السلطنة السناريه ، وأول هذه المناطق هى التى كونها الشيخ محمود راجل القصير العركى فى نهاية النصف الأول من القرن السادس عشر ، على النيل الأبيض فى أرض الحسانية ، بحلة الهوى . وسنذكر تاريخه فى حديثنا عن تاريخ كل منطقه . وهذه المنطقة قريبة من منطقة نفوذ قرى عاصمة العبدلاب اما المنطقة الثانية فهى المنطقة الذى عمرها الشيخ تاج الدين البهارى حين جاء إلى السودان مع داود بن عبد الجليل أبو الحاج سعيد جد ناس العيدى فى ولاية الشيخ عجيب وسكن مع داود فى وادى شعير فى أول الامر إلا إنه تنقل بنشر علمه فى ربوع السودان ، ووادى شعير ، حلة قرب الحصاحيصا فى أرض الجزيرة والمنطقة الثالثة هى منطقة أربجى مدينة الشيخ حجازى بن معين الذى خطها وكان غنيا وتتلمذ على الشيخ تاج الدين البهارى واربجى فى منطقة رفاعة بالقرب منها جهة الشرقة والرابعة هى مدينه سنار عاصمة الفونج فقـــد تتلمذ علماؤها على الشيخ القصير وتاج الدين البهارى وتوسعت فيها حلقات العلم ومن علمائها الكبار العالم عمار بن عبد الحفيظ الخطيب هذا فيما يخص منطقة النيل الازرق . . . .

وكذلك توسع نشاط الأفراد شمال النيل الأزرق وتعمرت الحلفاية قريب قرى وشندى وبربر بلاد الشايقية وادناقلة وتوتى واستقر فى كل منطقة من هذه المناطق العلماء والشيوخ من الصوفية الذى ملأت أخبارهم البلاد وصار الوصول إليهم منية كل فرد .

بدأت حركة البعث هذه بعد قيام السلطنة السنارية فى النصف الأول من القرن السادس عشر ، وبداية النصف الثانى من القرن السادس عشر ، بعد أن استتب الامن للسلطة السنارية . وشيوخ قرى من العبدلاب . بعد أن استتب الامن ، واستقرت الأحوال لهذه السلطنة الجديدة ، بدأ الناس يطالبون بالتوسع فى تعاليم دينهم وكفلت السلطنة للناس الأمان باشتراكها فى القوافل التجارية لمصر واطمأن الناس على حياتهم من مخاطر قطاع الطرق . ... وترددت فى الناس الحاجة للالمام بتعاليم دينهم ، إلا وصلوا اليه من جهل به . وقامت قوافل الحج عن طريق القوافل التجارية الذاهبة إلى مصر ثم تستقر فى مصر وتذهب مع القوافل المصرية إلى الحجاز وتؤدى الفريضة .

وقد كان لبداية هذه الحركة التجارية أثرها الكبير فى تشجيع طلاب العلم ولحضور الكثيرين من العلماء العرب للسودان وأول من عادت هذه البعثات وأخذت قسطا من العلم بالازهر والحجاز هو الشيخ محمود راجل القصير العركى الذى أسس مدرسته جنوب الخرطوم .

منطقة التعلم الاولى بأرض الجزيرة :

نستطيع أن نؤرخ لبداية الحركة العلمية والثقافية العربية والاسلام حسب

ماجاء فى المخطوطات والمراجع وأفضلها مخطوطة وضيف الله إن الحياة العلمية بدأها الشيخ محمود العركى راجل القصير ، الذى ولد بالنيل الابيض وسافر إلى مصر طالبا العلم والمعرفة وكان ذلك فى نهاية النصف الاول للقرن السادس عشر الميلادى.

ودهب الشيخ محمود العركى إلى مصر وهى مازالت تحتفظ شعاع المعرفة السابقة ولم تمتد لها يد الاتراك لتوقف تطور العلم والمعرفة وتقاطع الاعانات والرعاية التى كان يتلقاها الجامع الأزهر وجامع الفسطاط والجوامع الأخرى التى كانت بمثابة الجامعة الاسلامية وتمثل منهج التعليم والبحث والفكر فى ذلك العصر خلال حكم الفاطميين والماليك البحرية والماليك الشراكسة فى القرن العاشر الميلادى إلى بداية القرن السادس عشر الميلادى حيث بدأ الحكم التركى لمصر من عام (١٥١٧ م ١٧٩٨ م)

أستفاد طلبة السودان من الأزهر رغم ظروف الكبت التى عاشتها مصر خلال الحكم التركى وتدهور حال التدريس وأختفاء بعض العلوم العقلية من الازهر كالرياضيات والفلسفة .

وأنحصرت الدراسات فقط فى علوم اللغة العربية والتوحيد والفقه والتفسير ويعزى أستمرار هذا النشاط إلى مجموعة من المفكرين والعلماء العرب وأصرارهم على مواصلة الرسالة على جهودهم الخاص وقد كان لسمعتهم الأدبية والعلمية أثر كبير فى رحلة الطلاب والعلماء إليهم من جميع البلدان العربية والفارسية والتركية ، ومن هؤلاء العلماء الذين عاصروا السلطنة السنارية أى فى بداية القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر ، وتتلمذ عليهم معظم علماء السودان

واستفادوا من مؤلفاتهم وأخبارهم العلمية ، حيث كانت الدراسة تدور فى أروقة الأزهر على قرار الدراسة فى أكاديمية أفلاطون وجماعته ، إذا كانت الدروس عبارة عن مناظرة يشترك فيها الاساتذة والطلاب وقد خصص لكل أستاذ مكان معين يلقى فيه دروسه فى شتى العلوم كالبيان والنحو والتفسير والفقه وقد كانت هذه الحلقات الحرة ونظام التدريب فيها فتح أذهان الطلاب لعالم رحب من التفكير مما ساعد على التأليف والكتابة رغم قلة العلوم العقلية التى كانت تدرس .

ومن الاساتذة الذين واظبوا على رسالة الأزهر العلمية رغم قلة الامكانيات المادية وخوف الدولة التركية من نشاط الازهر ومحاولتها للتقليل من نشاط دون الاستحكام به حتى نجحت فى كسب بعض شيوخه وجعلته تابعاً للامبراطورية التركيه ، وشارك فى التدريس بـ نور الدين على البحيرى المتوفى عام (٩٤٤ هـ ١٥٣٦ م) والعلامة شهاب الدين أبن . . عبد الحق السنباطى المتوفى (عام ٩٥٠ هـ ١٥٤٠ م) وعبد الرحمن المناوى المتوفى (عام ٩٥٠ هـ) وشمس الدين الظاهر الشافعى والامام شمس الدين ابو عبد الله العلقمى المتوفى عام (٩٦٢ هـ ١٥٦٣ م) والأمام الصفوى المقدس الشافعى المتوفى حوالى عام ١٥٨١ م

وقد ضم القرن السابع عشر الميلادى العديد من العلماء بالازهر وحج اليه الكثير من العلماء من المغرب وشمال الجزيرة العربية ومن علماء القرن السابع عشر الميلادى كشمس الدين العنانى وعبد الباقى بن يوسف الزرقانى المالكى والعلامة شاهين بن منصور عاس الارمنارى المتوفى عام (١٦٩٠ م) وكان يلقى

محاضراته بالأزهر في شتى العلوم والفنون والشيخ محمد الاخرس المالكي شيخ الجامع الأزهر المتوفى عام ١٦٩٠ م) والشيخ حسن بن علي بن محمد الجبرتي والد الجبرتي المؤرخ العربي الكبير وقد توفى عام ١٧٠٤ م . وقد كان بارعا في العلوم الهندسية وقد زار الأزهر هذا القرن العلامة شهاب الدين المقري في عام ١٦١٨ وأقام بمصر للتدريس بالازهر لاعوام طويلة حتى وفاته عام ١٦٣٢م وكذا زار الازهر العلامة الصوفي الشهير عبد الغني النابلسي عام ١٦٩٤ م .

ويذكر الجبرتي أخبار علماء مصر ويورد لنا الكثير من اسمائهم وتخصصهم منهم العلامة اللغوي حسن البدري الحجازي المتوفى حوالي عام ١٧١٨م والعلامة عبد الرؤوف بن عبد اللطيف البشبيشي المتوفى عام ١٧٣٠ م وكان استاذاً في النحو والمعاني والشيخ أحمد بن عيسى العماري المالكي من علماء الحديث وغيرهم ..

وفي الكتب التي كانت تدرس بالازهر في القرن الثامن عشر الميلادي والتي بموجبها يمكن لنا أدراك سير العلوم والمواضع التي كانت تدرس والتي سيرت حركة المعرفة والفكر العربي خلال العصور المظلمة ومنها الاشموني وأبن عقيل والشيخ خالد وشروحه والازهرية وشروحها والشذور وكتب التوحيد كالجوهره والهدهدي وشروح السنوسيه الكبرى والصغرى وبعض كتب المنطق والأستعارات والمعاني والبيان بجانب كتب الحديث والتفسير وهي تدور جميعا في علوم اللغة العربية والصوفية والحديث وعلوم الدين وقد أختفت منها العلوم الحديثة كالرياضيات والمنطق والفلسفة والفلك ، من هذا الفيض الفكري المحدود كان يتلقى طلبة العلم من السودانيين الوافدين على الازهر .

كان الازهر هو الجامعة الاسلامية والعربية خلال الفترة فى القرن الثانى عشر إلى الثامن عشر الميلادى وقد كان تقدمه فى العلوم ينعكس على سير العلوم فى بقية البلدان العربيه وخاصة التى تقع فى أفريقيا حيث القاهرة ملتقى قوافل الحج السائرة إلى بيت الله وقد كان أى تدهور فى حالة الأزهر العلمية والإقتصادية لها أثرها المباشر على بقية الدول حيث كان الوافد العظيم لكل طلاب المعرفة وعلماء البلدان الأخرى . . . وإذا أردنا أن نقيس مستوى المعرفه والعلوم فى عصر السلطنه السنارية يجب أن نقيسها بمستوى العلوم بالأزهر بمصر حيث كانت الرافد العظيم لطلاب المعرفة فى السودان والذى نستطيع أن نقوله عن طلاب تلك الفترة وماتركوه من أثر على تقدم العلوم فى السودان هى نشر اللغة العربية وعلومها والحديث والتفسير والعلوم الصوفية ولكنهم لم يتركوا أثر خارج حدود السودان فلم نسمع عن واحد منهم حاضر بالأزهر أو الحجاز ولم يتركوا فى المخطوطات والمولفات ما أثر فى تطور العلوم العربية والدينية خلال تلك الفترة رغم ما تخلفه بعضها من مخطوطات فى التوحيد والصوفية والتفسير حيث كانت الدراسة تختلف ظروفها عن ظروف الأزهر ، فالأزهر أنشأ ليقوم بمهمة الجامعه الاسلامية ووجد الرعاية من الدولة والعلماء ، أما فى السودان فى عصر الدولة السنارية فلم تنشأ مثل هذه الجامعة إنما قام العلم بعيداً عن سنار فى اربجى والجزيرة والحلفاية وشندى وبربر وأرض الشايقية وكردفان ثم الدامر حيث قام حمد المجذوب فى القرن الثامن عشر الميلادى ، وفى الروايات أقام الشيخ أحمد الطيب شيخ الطريقه السمانية

نحن نبنى قياسنا للعلوم فى تلك العصور على مفهومنا للعلوم فى العصر الحاضر حيث كثرت فروع المعرفة وتوسعت المعارف فى الفلسفة والكيمياء وعلوم النباتات والطبيعيات والهندسة والنقد التى لم تتوفر لعلماء تلك الحقبة .

نقيس مستوى هذا العصر فى التقدم فى ظل هذه العلوم ونقيس مستوى ذلك العصر فى ظل تلك العلوم . . وهى علوم الدين واللغة حيث خلى من العلوم العقلية كالهندسة والرياضيات والفلك والفلسفة والطب الأمر الذى جعل العلم فى السودان خلال الفترة من القرن السادس عشر إلى التاسع عشر الميلادى لا يستطيع أن يقصر الظواهر الاجتماعية ويدرك التاريخ ويؤدى رسالته على خير وجه فى ازالة بقايا الوثنية الفرعونية والديانة المسيحية وهذا مانراه حتى اليوم فى عادات الأفراح كالزواج والختان فى أغانى الديرة وذهاب العريس إلى البحر والكثير من العادات خلال فترة الزواج أو العادات التى تسير خلال فترة الحداد على المتوفى . وكثير من التقاليد الاجتماعيه تبرز فيها هذه الرواسب القديمه فى أفريقيه وفرعونيه ومسيحيه وهى موجودة حتى الآن فى تقاليد الزرع والبناء والأفراح والاحزان .

أما التجمع العلمى الذى حدث فى السودان كما ذكرنا سابقا قام بعيداً عن العاصمة سنار رغم زيارة العلماء لها وأقامة بعضهم بها كالعلامة الكبير عمار بن الخطيب الذى اشتهر بالعلم والمعرفة وهو من أشهر علماء سنار ثم منطقة أربجى التى ساعد ثراء حجازى بن معين على نشر العلوم بها . اقامة المساجد وهى قرب وفاته ثم منطقة الحسانية بالنيل الأبيض التى قامت بها سبعة عشر مدرسة ودمرتها قبائل الشلك التى كانت تقيم فى ذلك الوقت فى منطقة النيل الأبيض ثم منطقة قرش عاصمة العبدلاب وما جاورها كالحلفاية وجزيرة توتى وشندى

وبربر وهؤلاء لموقعها التجارى فى طرق القوافل التجارية الآتية من سنار وغربه السودان ومن سواكن ومصر .

وكذلك منطقة الشايقية التى أحيا بها العلوم أولاد جابر وأرض .... الدناقلة التى استفادت من علم الشايقية ثم بعد ذلك الدامر حيث نشر الصوفية حمد المجذوب ومنطقة السروريات حيث نشر السمانية الشيخ أحمد الطيب فى القرن الثامن عشر الذى كان عصر المجاذيب والسمانية .

. . .

الحركة الثقافيه قبل وبعد السلطنة السناريه

إذا أردنا البحث عن حال الثقافة العربية والاسلامية قبل وبعد السلطنة السناوية أي حتى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلادي فسوف نجد الجواب في مخطوطه ودضيف الله في حديثه عن تاريخ أربجي وسنار إذ يقول خطت مدينة سنار عام (٩١٠ ه) خطاها الملكى عمارة ونقش وقد خطت مدينة أربجى (على الشاطىء الايسر للنيل الأزرق) قبلها بثلاثين عاما إى عام ٨٨٠ ه . خطاها حجازى بن يعين ويقول ولم تشتهر فى تلك البلاد مدرسة علم ولا قرآن ، يقال إن الرجل يطلق المرأه ويتزوجها غيره فى نهاره من غير عده حتى قدم الشيخ محمود العولاد راجل القصير العركى فى مصر وعلم الناس العدة وسكن البحر الأبيض وبنى له قصرا يعرف الآن بقصر محمود .

هذا يؤكد ما سقناه أولا أن حياة الترحال والبداوة والبعد عن المدينة وعن مصادر الدعوة والثقافة فى الجزيرة العربية عن هؤلاء العرب المسلمين أفقدتهم الكثير من تعاليم دينهم إذ لم تتهيأ لهم حتى ذلك الحين الظروف ... المستقرة لتطوير معارفهم وطلب المزيد مما عندهم بل كانت حياة التنقل والجفاف والمشاكل الكثيرة التي تعيش فيها القبيلة كفيله بمحو تلك التعاليم وتقليل تلك الروح الاسلامية التى إبتعدت عن أرض المسلمين ، وكانت كفيلة أيضا بمرور الأيام والسنين من ضياع كل ماحفظه الأوائل المهاجرون إلى السودان . إذ فقدوا أدوات التسجيل والكتابة وأبتعدوا عن موطن المدنية والحضارة وعادوا بحياتهم إلى الخلف أكثر مما وصلوا إليه . فخلال الستة أو الخمسة قرون من بداية دخول العرب السودان إلى أراضى جديدة وظروف غير مطمئنة قلت إهتمامهم بالتعاليم والاساليب الحضارية التى وجدوها حين خرجوا

من الجزيرة العربية فى العواصم العربيـــة الـكبيرة وعلى المدن الـكثيرة على النيـل .

كانت هذه الخمسة قرون خلال التجوال فى الصحارى والوديان وضفاف الانهار بحثاً عن مأوى أو مرعى كفيلة باذابة كثير من خصائص هؤلاء العرب الرحل ومحاولتهم المستمرة للتأقلم على البيئه الجديدة ومحاولة التوفيق بين تعاليمهم وتقاليدهم وتعاليم وتقاليد الأرض الجديدة . وحتى وصلوا إلى درجة من الافلاس والتهاون بالتعاليم الدينية التى ابتعدوا عن مراكز اشعاعها أن يطلقوا المرأة ويزوجوها فى نفس اليوم .

كانت تلك القرون الخمسة سنين تصفية لكل الأشياء الطبيعية التى أتى بها العرب وتركوها على ضفاف الوديان ورمال الصحارى وضفاف الأنهار ومعارك القبـائل والجموعات الكثيره وما بقى لهم من التعاليم الاسلامية والثقافيـة العربية أصبح يسير وتبتخر معظمه عندما جاء القرن السادس عشر كانوا أبعد الناس عن صورة المهاجرين الاوائل الذين لاقوا الـكثير حتى استقروا ويفتحوا الطريق للمهاجرين القادمين خلفهم .

والشيء الذى احتفظوا به هو روح الاسلام والايمان بالله : ولم يتهاونوا فى الايمـان بالله والاشراك به رغم انهم كانوا فقراء فى تعاليمهم الدينيـة وما أستطاعوا أن يضيفوه للحياة السودانية خلال هذه الخمسة قرون هو الايمان بالله وبعض الفرائض الاسلامية ونشروا ذلك فى الأرض المسيحية والوثنية .

كانت الظروف الطبيعية هى التى حكمت على تعاليم العرب وحضارتهم بهذا

الانحدار فى بداية دخولهم إلى السودان فقد كانوا فى حياة معيشية أحسن بكثير من التى وجدوا نفسهم فيها وكانوا وسط حضارة مدنية ووجدوا نفسهم فى حياة شبه بدائية وعليهم أن يبدأوا من أول السلم للبحث عن مأوى والتفكير فى أساليب العيش فى هذه الأراضى الجديدة وتعلم أسرارها وقوانينها . فقد كانوا فى حياة شبه مدنية وعادوا متخلفة فى أول سلم الحياة البدوية والفارق كبير بين مقومات تلك المدنية وأساليبها وبين الحياه البدوية شبه البدائية التى وجدوا أنفسهم فيها فهذا التخلف الذى انحدروا اليه كان لابد أن تكون له عوامل إيجابية لامتصاص أكثر مقومات الحياه المدنية القديمة حتى يتطبعوا على الحياة البدائية الجديدة .

ونحن لانلوم العرب ولانلوم التاريخ إنما قضت الظروف الاقتصادية لتلك المجموعات أن تنحدر إلى الخلف بتخلف الأساليب الاقتصادية والمعيشيه .

هنالك عامل آخر يجب أن نضيفه إلى هذه العوامل وهو طبيعة الجماعات البدوية . . . فرغم محاولتها للاستقرار لكنها لاتستطيع أن تنشد ذلك الاستقرار وتتمتع به . . . فقد تطبعت القبائل على المشاحنات والقتال وهى فى بحثها عن الاستقرار كانت تخلق عدم الاستقرار لمجموعات أخرى فهى لكى تستقر كان عليها أن تبعد مجموعة أو مجموعات من المكان الذى تود أن تستقر فيه . . . ولو استطاعت ذلك لظهرت مجموعة أقوى لابعادها عن هذا المكان . . . وهى فى طبيعتها لاتقتنع بالهزيمة ولاتنسى ، ولذلك تسبب القلق لمن خلق لها القلق وعدم الاستقرار .

وعندما جاء القرن الخامس عشر الميلادى كانت قد تكونت مجموعتين

كبيرتين خطرتين فى أخصب مناطق السودان . . هى منطقة النيـل الأزرق . وشمال ملتقى النيلين . . . . . سكنت هاتين المنطقتين بجموعتين عرفناهما فيما بعد بمجموعة العبدلاب نسبة لعبد الله جماع رئيس هذه المجموعة فى نهاية القرن الخامس عشر والمجموعة الأخرى بجموعة الفونج ورئيسها عمارة دونقس احتلت الاولى منطقة ملتقى النيلين وشماله وجز من النيل الازرق واحتلت المجموعة الثانيـة الجزء الشرقى للنيل الازرق وروافده .

كانت منطقة النيل الازرق والجزيرة وشمال ملتقى النيلين من أخصب المناطق السودانية . . . واتاحت بمساحاتها الشاسعة الغنية الفرص لهذه المجموعات المتنقلة المتنافرة أن تستريح . . وكانت هذه الراحة بداية الحياة الجديـدة وتاريخ المجتمع السودانى اذ هيأت لهذه المجموعات ان تتكاثر وان تنمو وان تتحد وان تشارك فى الحياة وبناءها وكان من الطبيعى ان تظهر زعامات لهذه المجموعات التى سكنت الاراضى الخصبة الغنية . . . وعرفنا من المخطوطات عبد الله جماع زعيم العبدلاب وعمارة دونفس زعيم الفونج .

للحياة المستقرة فوائدها وخيراتهـا وللجماعات المستقرة نشاطاتهـا وإهتمامها وما أن أستقرت القبائل واطمأنت لما حولها إلا وبدات تبحث وتنشط . . . . وكان هنالك طريق يغرى للنشاط والحركة . . وهو طريق القوافل التجارية بين مصر وغرب السودان والبحر الاحمر . . .

إستقرت هذه المجموعات وكثرت خيراتها ومواردها وبدأت تبحث عن أساليب المدنية . فالتجارة أحد الطرق لاستجلاب مظاهر المدنية مادام يتيسر

الحال وأرتاحت القبائل وزاد دخل الفرد وكثرت ماشيته وزرعه وكان أكثر الناس إستعدادا لهذه المهمة هم رؤساء القبائل لما عرفوا به من أنهم أغنى مجموعاتهم فى أغلب الاحيان .

وشارك زعماء المجموعتين فى تيسير هذه التجارة مع البحر الاحمـــر ومصر وغرب السودان يقايضون بمحصولاتهم وماشيتهم على منتجات مصر والبلدان الاخرى .

أغرى هذا النشاط زعماء المجموعتين للاتحاد وفرض سيطرتهم على كل المجموعات التى تسكن النيلين والسهول والوديان حتى يضمنوا خضوع تلك المجموعات التى تمر قوافلهم التجارية بهـا . وحتى يكونوا هم حراسا لهذه القوافل ومسئولين عن سلامتها داخل أراضيهم ...

وجاء عام ٩١٠ هـ معلناً بداية حياة جديدة فى حيـاة الجمـاعات التى تسكن السودان باتحاد العبد لاب وتـكوين السلطنـة السنارية وأعطـاء الملك لعمارة دونقس وأمارة الشمال لعبـد الله جمـاع الذى جعـل عاصمته مدينـة قرى شمال الحلفـاية .

وإذا نحن حاولنا أن نعـرف شيئاً عن تاريخ هـذه السلطنة فى المـؤلفـات التاريخية العديدة التى كتبت فسوف تدور فى حلقة مفرغة كما يقولون ورغم المجهودات المشكورة التى قام بها بعض الاشخاص الجادين على كشف تاريخ السودان فقد كانت كل محاور منهم هى فى الحقيقة فتـح باب جديد للخـلاف والشك وأدخال القارىء أو الباحث فى شبكة من المغالطات حتى بات كتاب

تاريخ هذه الحقبة معتلة أمام كل باحث ومؤرخ لكثرة الروايات وأختلافها ونقصانها وعدم وجود مصادر كاملة حقيقية فكل الروايات المنقولة بواسطة المخطوطات السودانية أو بواسطة الرحالة إلا جانب الذين زاروا السودان فى القرن السابع عشر والثامن عشر لا توافق أى منها الأخرى فكل مخطوطه أو رواية منقولة بواسطة الرحالة إلاجانب تختلف عن الآخرى.

ولو إلقينا نظرة فاحصة على جدول تاريخ ملوك هذه السلطنة الذى جمعه الأستاذ شاطر البعيلى عن مؤلفات بروس وكايو وكانب الشوقة وبربمو ونعوم شقير وفات على الاستاذ شاطر البعيلى أن يستفيد من تاريخ إبراهيم الصديق الذى أثبته فى هامش مخطوطه ودضيف الله لو إلقينا نظرة على هذا الكشف لما وجدنا أى أتفاق بين الخمسة المؤرخين حتى فى سنين حكم السلاطين ماعدا أثنين هما أسماعيل ولانفى فانظر التاريخ سلطنة بها ثلاثون ملكا لم نستطيع حتى الآن أن

نقنعا الكتابات التى وصلت إلينا عنهم على الاتفاق على نصف الحقيقة أو بعضها ولكن للأسف كلما وصلنا مع أحدهم يبتعد عن الاخر مسافة بعيدة ويترك حيرة وتعبأ للباحث والمحقق حتى بات أهل التاريخ ينتظرون معجزة من السماء لتكمل لهم هذا اللغز أو أن تخرج لهم الارض بعض المخطوطات المدفونة ولكننا نستطيع إن نصحهم بأنهم لن يجدوا شيئا من ذلك لو أطلعوا على مقدمة ودضيف حيث يقول (فقد سألنى جماعة من الاخوان أفاض الله علينا وعليهم سحايب الاحسان وأسكننا وأياهم أعلى الفراديس الجنان بحرمة سيد ولد عدنان أن أؤرخ لهم ملك السودان واذكر فيه من الاعيان فاجبت سؤالهم بعد الاستخارة الواردة فى السنة وبعد الالهام مع أنه لم يكن لأسلافنا وأسلافهم وضع فى هذا الشأن إلا أن أخبارهم متوافرة عن الخاص والعام منها مابلغ حد التواتر عندهم فأجبت

أن أذكر ماتواتر وأشتهر من تلك الاخبار وذلك وأن الخبر المتواتر عن الاصوليين من الاقسام اليقينيه التى تفيد العلم بالشيء وتنفى عنه الشك والظن والوهم .

فاذا اطعوا على هذا الجزء لاقتنعوا وبحثوا فى توسيع الخلاف لأن عملية التقارب أصبحت شبه مستحيلة إلا إذا تخاصوا على مخطوطات جديدة وهذه المخطوطات الجديدة لن تكون قبل مخطوطه ودضيف الله إذ أثبت اننا دون أن يفيض فى الحديث عن نفسه ومؤلفة عن حالة الدراسات فى القرن الثامن عشر والسابع عشر والسادس عشر . . وهذا موضوع آخر سنأتى إليه عن تطور الحركة الثقافية خلال الحكم السنارى ولكنه قد رحم إعصاب الباحثين عن الكشف عن البحث عن مخطوطات قديمة قبل مخطوطته هذا الموضوع .

أما فيما يختص بهذه الدراسات وإلى أى جانب ننحاز فأننا نحاز إلى محمد ابراهيم الصديق الذى لم يطلع عليه كتاب هذا التاريخ وهو التاريخ الذى أثبته على هامش مخطوطه ودضيف الله والذى ظنوه ضمن الحوادث التى تملأ الكتاب وقد إعتمدنا على تاريخ هذه المخطوطة لاعتبارات كثيره ليس أحدها زيادة فى الباحثين والذين سبقوا وكتبوا تاريخ هذه السلطنه او لتوسيع الشقة الواسعة من قبل (وزيادة الطين بلة) كما يقولون وإنما لأن هذا التاريخ حسب وجهة نظرنا أكثر التواريخ تحقيقاً وإعتماداً على المصادر المحلية والمخطوطات العديدة التى تيسرت لابراهيم الصديق لا الاطلاع عليها ولم يتيسر للشاطرى .

فاذا تابعنا مقدمة إبراهيم الصديق ومجهوده الذى بذلها لتحقيق هذه المخطوطة وإطلاعه على عدة مخطوطات محلية منها المخطوطة الموجودة عن

الشيخ خوجل الخليفة محى الدين بن الخليفة الأمين ونسخة الشيخ أحمد البدوى محمد الدولاب الكردفانى ونسخته الخليفة حسب الرسول ونسخة المستر هللسون مدير التاريخ سابقا بكلية غردون ونسخة عمدة توتى الشيخ أحمد إبراهيم عاير ونسخة الشيخ أحمد عيسى وداد من أهالى بلدة مدنى .

هذا المجهود والاعتماد على مصادر محلية عديدة ورغبة المحقق فى إخراج هذا العمل كاملاً يجعلنا نحترم مجهوده ونقدره ونقف بجانب مجهوداته التى لم يقف عندها جميع المؤرخين .

• •••• •

الصوفيه والديانيات الافريقيه

لاتنفصل الصوفيه الحقه عن الحركة العلميه بين المجموعات التى تنتشر بينهم فأذا إستطعنا أن نقتنع بأن الصوفيه هى حركة علميه فى بدايتها لتطوير علم التوحيد لاستطعنا أن ندرك أتجاهات أى حركة صوفيه ظهرت فى البلدان العربيه بعد معرفة نهضتها العلميه والثقافيه .

وأول سؤال نستطيع أن نسأله عن الحركة الصوفيه فى السودان ، علينا أن نسأل عن الحركة العلمية والثقافيه فى السودان وهل كان فى إمكانها إحتضان هذه الحركة الصوفيه العلميه الاحتضان السليم والسير بها نحو الكمال أم إن الظروف العلميه والثقافيه كانت فى مستوى أدنى من إحتضان هذه الحركة مما مهد للانحراف فيها

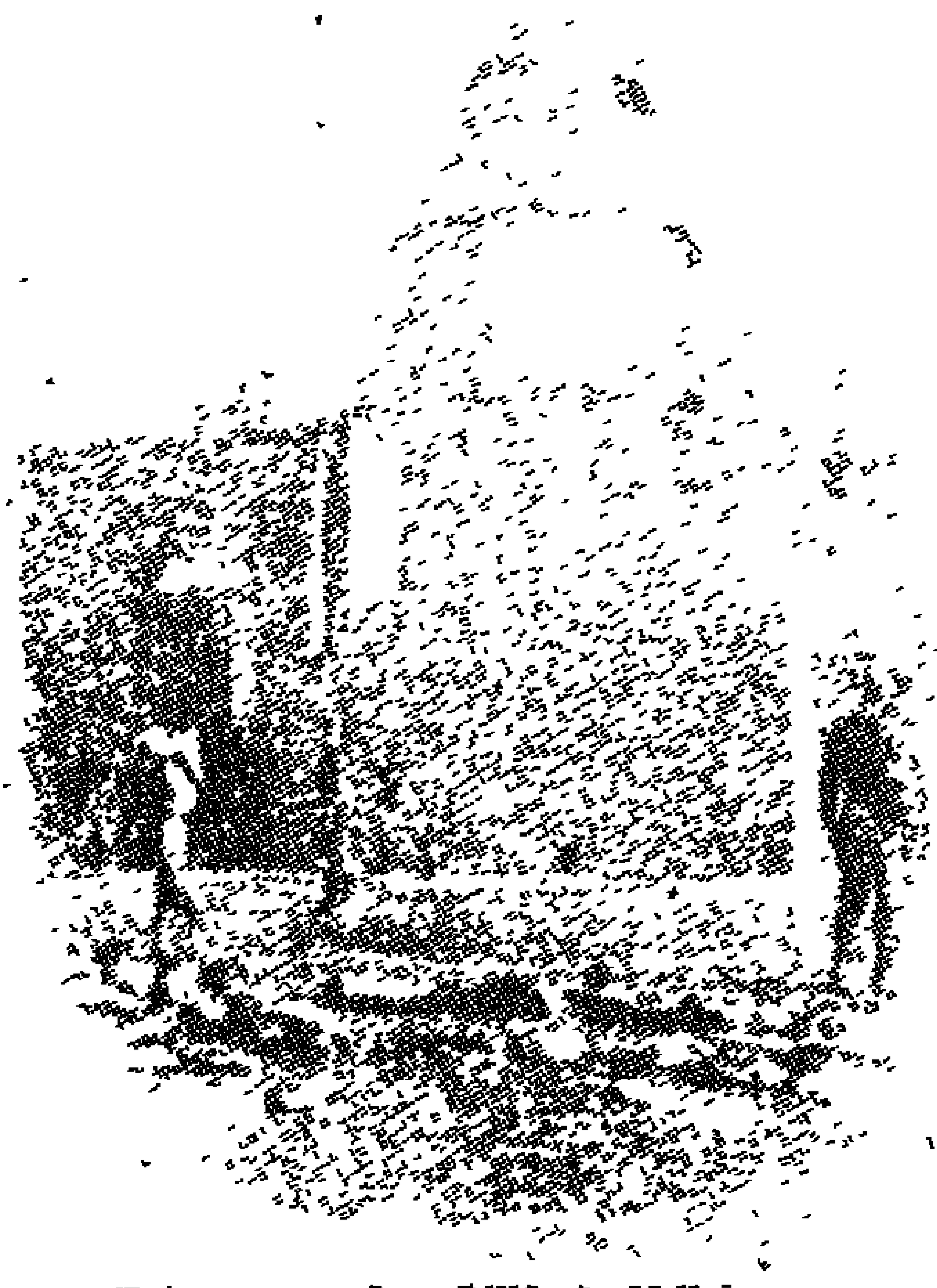
يجب علينا أن نقيم الحركة الصوفيه فى السودان التقييم العلمى الصحيح لأن هذه الحركة دخلت السودان منذ القرن السادس عشر والسابع عشر الميلادى وأنتشرت فى السودان بشكل ملحوظ وكان لها أثر كبير على الجماعات والافراد ومازالت توجه حتى اليوم الكثير من افكارنا وثقافتنا ولها أثر كبير فى معتقداتنا وأخلاقنا وطبائعنا وتطلعاتنا . فأذا إستطعنا أن نقيم المجتمع السودانى حين دخول الصوفيه وخط سير هذه الصوفيه بالنسبه لظروف المجتمع التى وجدت نفسها فيه نستطيع أن نتتبع بأرتياح مسيره هذه الصوفيه ان كان نحو الكمال أو نحو الانحراف .

وإذا أردنا أن نبحث عن الظروف العلميه والنهضة الفكريه التى تستطيع

أن تحفظ هذه الحركة من الانتكاسة والاتجاه بها أتجاهات غريبه . فالجواب لايحتاج إلى أدله كثيره .. فيكفى أنه حتى نهاية القرن الخامس عشر لم تكن بالسودان مدرسة قرآن واحده ، حيث وقف لنشر التعاليم الاسلاميه حتى أفلست الجماعات المسلمه من أدراك تعاليم الدين ولا نود أن نستشهد بادله أستشهدنا بها فى مكان آخر ، وما نستطيع أن نقوله أن حركة العلم حتى نهاية القرن التاسع عشر لم تكن فى المستوى الذى يستطيع أن يناقش ويهضم ويتطور علم التوحيد الذى هو أساس الصوفيه (حديث أبو القاسم الجنيد صفحة ٢٢٢ يشير الى هذا المعنى)

فاذا إردنا أن نمسح الحركة العلمية فى السودان فلن تجد غير بعض الكتاتيب (الحلاوى) التى أنشأت بمجهودات فردية على يد الشيخ إبراهيم البولاد المصرى بدار الشايقيه ثم الشيخ محمود راجل القصير بالنيل الأبيض والمعلم الأول الشيخ تاج الدين البهارى البغدادى الذى دخلت الصوفيه للسودان على يديه فى القرن السادس عشر ميلاديه تاريخ مملكة سنار (النصف الثانى من القرن العاشر) الهجرى كما جاء فى تاريخ حياته فى عهد الشيخ عجيب الذى تتلمذ على يديه وحجازى بن معين من أربجى .

فقد ارتبط إسم تاج الدين البهارى بأسم الشيخ حجازى بن معين الذى خط مدينة أربجى عام ٨٨٠ ﻫ ونلجأ إلى افتراض واحد وهو أن الشيخ حجازى بن معين كان من المعمرين لان حضور الشيخ تاج الدين البهارى البغدادى كان بعد عام ٩٦٠ ﻫ أى حضر بعد ثمانين عاما ويعنى ذلك أن بناء حجازى بن معين لمدينة أربجى كان بعد ثمانين عاما ويعنى ذلك أيضا أنه شيد أربجى وعمره لا يقل عن الثلاثين عاما وحين تتلمذ على يد تاج الدين البهارى كان عمره فوق المائه ثم شيد مسجد أربجى بعد ذلك فى أول النصف الثانى من القرن السادس عشر الميلادى .



قبة المهدى . . . صباح اليوم
الثانى من معركة يوم ١٨٩٨/٩/٢
قصد بتهديمها لادخال الرعب فى
قلوب الدراويش

الصورة تحكى أثر الروح الصوفية
ومقاومة العلم لتلك الروح التى
وحدت نصار المهدى خلفه



العرب فى كردفان بعد
سلطنة دار فور وتأثرهم بسكان
وسط أفريقيا



نهاية الثورة المهديه التى قاومت الأسلحة الحديثة بالإيمان والتضحية بالروح •
مخلفة أبلغ صور البطولة الصوفية .



صوره من صور الاستشهاد الروحى ومقاومة الاستعما وا مكانيات العلم الحديث .

فى سعادة وطمأنينه رقد جسد البطل الامير أحمد فضيل .



موقعه ام دبيكرات، أخر مواقع الثورة المهدية حيث رقد جسد خليفة المهدى مستشهداً بين جنوده

هذا يكشف لنا أن الشيخ حجازى بن معين حين خط مدينة أربجى كان من اغنى رجال مجموعته الأمر الذى مكنه من أنشاء هذه المدينه ويؤكد لنا ذلك دعوة الشيخ تاج الدين البهارى له بالغنى لذريته من بعده وهى ذريه كبيره لاشك وقد عرف الغنى أكثر ماعرف عنه رجل دين وأن كان قد بنا أول جامع وهو جامع اربجى فلايعنى ذلك أنه كان أكثر الناس صلاحا وورعا . . . فقد كان مركزه المالى والاجتماعى يفرض عليه أن يقوم بمثل هذا العمل الاجتماعى . .

من ماتقدم يثبت لنا أن العلم والصوفيه دخلوا سويا للسودان فى القرن السادس عشر الميلادى على يد الشيخ تاج الدين البهارى الذى حين جاء لم يجد كتاتيب أو خلاوى إننا وجد الأستعداد الكبير للمعرفة وفى فترة وجوده بالسودان علم الدين من الشيوخ الذى أنتشروا فى أراضى السودان وقاموا برسالته .

وإذا أردنا أن نجد صورة الصوفى الذى نشأ فى السودان فان نجد تلك الصورة وذلك الصوفى الأول الذى عاش فى بغداد وسط الحضارة العربيه والعلوم وكرس حياته للعلوم والمناقشات العلميه والفلسفيه ومسائل الوجود والعدم والقدم والحدث وأنما سنجد صوره قاضى العداله والصراع بين رجل العلم والشريعه وبين الصورة الجديدة التى ظهرت فى السودان لرجل الصوفيه فى شخصيه الشيخ الهميم .

وتحكى القصه أن دشين قاضى العداله المولود بأربجى أحد الاربعه قضاة الذين ولاهم الشيخ عجيب تلميذ الشيخ تاج الدين البهارى بأمر الملك دكين حين قدومه من المشرق ويبدو أنه يعنى بالمشرق الحجاز وما رآه فى المجتمع الأسلامى فى

الجزيرة العربيه ووجوب قيام مثل هذه الوظائف ليحكم فى الناس بالشريعه وهم أول قضاه فى السودان .

ولى الشيخ دشين قاضيا على أربجى والشاوعية عموماً . ومارس هذا العمل حسب الشريعه وقد إستعظم فى أثناء حكمه شخصية من الشخصيات الصوفية الغريبه التى ظهرت فى السودان . وهى شخصية الشيخ الهميم الذى يقال أنه فى حالة انجزاب تزوج أكثر مما سمح به الشرع أى زاد على أربعة نساء فى وقت واحد (والقصة فى جانب تكشف بأن الذين رضوا أن يزوجوه من نساءهم بعد الأربعه كانوا ولا يفقهون شيئاً فى دينهم ، ولم يقف المجتمع ضد هذه العمليه المنافيه للدين . . وبجانب فقد تزوج أختين من بنات أبو تدوده من رفاعه مخالفاً بذلك الشريعه فى نكاح الأختين فى آن واحد ، كما جمع بين بنات الشيخ بأن النقا الضرير كلتوم وخادم الله . وبأن النقا رجل أخذ الصوفيه على يد تاج الدين البهارى وأخوه سندال العاج كبير الفونج ورغم ذلك زوج الشيخ محمد الهميم أخواته الاثنين فى آن واحد .

وتبدأ القصه حين قدم الشيخ محمد الهميم إلى أربجى يوم الجمعه وحضر الصلاه بالجامع . وعند انتهاء الصلاه خرج دشين قاضى العداله وصادف محمد الهميم وقبض على لجام فرسه وقال له خمست وسدست وسبعت ماكفاك حتى تجمع بين الأختين فقال له الهميم ماذا تريد . فرد عليه دشين أريد أن افسخ نكاحك لأنك خالفت كتاب الله ورسوله وسنه الرسول صلى الله عليه وسلم وقال له الرسول اذن لى والشيخ ادريس ليعلم . . وكان الشيخ أدريس حاضرا فقال لدشين اترك امره وخله ما بينه وبين ربه فقال دشين مايهمل أمره وقد فسخت نكاحه فما كان من الشيخ محمد الهميم إلا أن دعى على دشين وقال له فسخ الله جلدك .

ويقال أن دشين مرض بعد ذلك وعللها البعض انها دعوه الشيخ محمد الهميم إلا أنه لم يؤد الا إيمانا ويقينا بعدالة الشرع حتى جاء فرح ولد تكتوك وقال فيه .

وبن دشين قاضى العداله　　　　الما بيعمل للضلاله

نسله نعـــم السلاله　　　　الا وقدوا نار الرساله

هذه صوره رجل أدعى انه صوفى وصالح وخرج على تعاليم الدين ولم يستطيع إى شخص ان يقف امامه وذلك لان الصوفيه ادخلت فى عقول الناس أنهم أولياء الله وانهم يستطيعون أن يضروا البشر وما يقولونه من دعوات نافذ فى البشر . وانطبعت صورتهم فى ذهن الناس بأنه صاحب العقاب الرادع وكاشف الاسرار مع أن الصوفيه الأوائل لم تظهر عليهم هذه العلامات وهذا الاتجاه نحو مضره الآخرين والانتقام منهم والدعاء عليهم بالمصير السيء . . . وهذا الاعتقاد له مبرراته إذا إستطعنا أن نجد دور الشخصيات الدينيه فى السودان قبل ظهور الاسلام والعرب وإنتقال إمكانيات تلك الشخصيات إلى شخصيات جديده فى ثوب جديد .

وجد تاج الدين البهارى بين قـومه السودان بعد أن ترك بغداد حاجاً . وربما حضوره للسودان كان بناء على دعوة إحد رجال السودان الميسورين وطلبه منهم أن يخدم الاسلام بنشر العـــلوم الاسلاميه بين إولئك المتعطشين لهذه العلوم . . . . . ولقى الشيخ تاج الدين البهارى كل ترحيب وتقدير لما للشخصيه الدينيه من مكانه عند هؤلاء الرجال ، كما كان يمثـل هذا العـالم من معارف وما يحفظه من علوم لم تصل لسكان السودان فى تلك الحقبه فكانت بمثـل هـذه

الشخصية وما لها من علم تلفت الأنظار وتبهر العقول إذا من صفات العلم والمعرفة أن تخلق الاندهاش عند الجاهل إذ يعطيه العلم بعض الحقائق البسيطة القريبة منه ولا يستطيع أن يتوصل اليها ويعطيه الحلول للأشياء التى تورق العقل الانسانى إذ من صفات العقل أن لا يكف عن التساؤل والبحث . والخيال المجرد يضع العقل فى حيره والمعرفة تريح العقل من هذه الحيرة والقلق .

جاء تاج الدين البهارى وبذر بذرتين . أحدهما تشجيع القراءة ونشر العلوم الدينيه وحفظ القرآن والاخرى نشر فكرة الصوفيه . وقد وجد الشيخ تاج الدين البهارى أرضاً غير صالحه لدعوته الصوفيه الأمر الذى جعل دعوته الصوفيه لا تقوم على أسس علميه سليمه بل أخذت من ملامح الشخصيات الدينيه القديمة التى سنتحدث عنها فيما بعد وهى الديانات الأفريقية وخاصة الشخصيات الدينيه فى غرب أفريقيا والعبادات الفرعونية والرهبان . إذ كانت كل هذه الشخصيات غامضة تحيط بها هاله من الغموض والاسرار بعيده عن إدراك عامة الناس الأمر الذى وضع بقية الناس ينظرون اليها نظرة غريبة فيها كثير من الحيرة والدهشة فشخصية الكاهن الفرعونى كانت غامضة بالنسبه لبقية الناس وقد سلموا له عقولهم وآمنوا بكل حركاته وتصرفاته ثم شخصية الكاهن وصورته المتواضعه الجديدة وحضور الناس اليه وتقديم الاعترافات له .

لم تجد صوفية تاج الدين البهارى وبقية المدارس التى دخلت لم تجد العلم الكافى للوقوف ضد الانحرافات بالدين بل أننا نجد فى كثير من تصرفات رجال الصوفية من يدعى المعجزات التى هى خاصة بالانبياء وحدهم . . . — وأننا نجد مثل الكاتب ودصيف الله لا يفتكر لمثل هذا الانحرافات بل يثبت لنا فى مخطوطته مثل هذه المعجزات دون ان يعلق عليها ولا يستطيع ويفرق بين ما هو مساير للشرع ومخالف له .

لايمكن لنا بأى حال من الأحوال إذا إردنا أن ندرس الشخصيات الدينيه الاسلاميه بعد دخول العرب ودخول الثقافة العربيه والاسلامية وبدايه دخول العلوم العربيه فى أوائل القرن السادس عشر علينا أن نتتبع الشخصيات الدينيه القديمة التى عاشت فى النيل وفى إفريقيا ونحن نرى حتى اليوم شيء فى أثار تلك الشخصيات الدينيه القديمه فى إعمال السحر والشعوذه وإعتقاد الناس فى بعض الشخصيات فى شفاء الناس عن طريق التعاون القديمة وإيمان الناس فى قدرة بعض جذوع الأشجار عن شفاء بعض الأمراض وقدره بعضها على الحاق كثير من الأذى وقدرة الناس على التشكل بأشكال الحيوانات وكل هذه المعتقدات التى مازال يعيش بعضها فى بعض القرى هى بقايا من تلك العادات الدينيه القديمه التى عاشت على النيل وعند قبائل الداجو وقبائل اعالى النيل وكماهو واقع لم تحدث عمليه تصفيه حتى الآن للعادات والمعتقدات الدينيه القديمه والصور الدينيه التى عاشت فى أفريقيا . إنما حدثت عمليه مصالحه وأمتزاج بين العادات والتقاليد والمعتقدات الدينيه الوثنيه العادات المسيحية والاسلاميه لان العرب المسلمين الذين دخلوا السودان لم يدخلوا فاتحين أقوياء يفرضون سيطرتهم ومعتقداتهم على السكان إنما كانوا طالبين ملجأ ومأوى لذا لم يكونوا فى مركز يسمح لهم بمحاربه معتقدات الأهالى إنما حدث التوافق بين الأثنين قبل هؤلاء من السكان بعض العادات التى لاتمس رجولتهم وعاداتهم العربية وقبل السكان من العرب التقاليد والعادات التى لا تقسو على ماضيهم الدينى وقد كانت عمليه فيها شيء من اللين والمصالحه لخلق بيئه جديدة ترغب فى العيش فى سلام ... ويبدوا أن تعدد المعتقدات الدينيه فى السودان من وثنيه إفريقيه وفرعونيه ومسيحيه جعل إضافه معتقدات دينية جديده من المجموعات جديده أمر مقبول إذ لم تحدث عملية نوعية لمحاربة المعتقدات القديمة أو صراع حاد والتقدم الدينى الذى حدث، حدث تدريجياً وبطيئاً ..

وإذا حاولنا أن نبحث عن بعض الشخصيات الدينيه اليوم التى تمارس بعض الأعمال القديمه التى كان يقوم بها رجال الدين عن قبائل الداجو سكان وسط إفريقيا منها شخصيه (الكجود) التى تدعى اليوم أنها تمارس هذه الأعمال من وحى التعاليم الاسلاميه ومما أضافته للشخصيه القديمه بعض إمكانيات الدين فالكجود ماذال يستعمل الوسائل الدينيه القديمه لعلاج بعض الامراض وماذال الناس يعتقدون فى بعض هذه الأعمال ومما شاهدته من إعمال هذه الشخصيه حين مرضت إمرأه أحضر لها هذا الكجور وأحضر معه مقشه (وبخسه) وكوكابيه وحربه وقال للمريضة أن هنالك عملا سحريا قد عمل لها وأن بجسمها بعض العروق السامه التى غرست فى جسمها وأجلس المريضه بعد أن كشف عن جسمها الأعلى وصار يضرب بالمقشه على جسمها وظهرها وتساقطت قطع صغيره من عروق الشجر ثم صار يمص على مواضع معينه فى جسمها ويخرج من فمه بعض العروق الرطبه موهماً المريضه أن هذه العروق كانت بجسمها . وفى أثناء ذلك كان يستعمل بعض التعاويذ الافريقية القديمه وبعض الآيات القرآنيه . ثم عمد على البخسه ووضع الحربة والكوكاب على جسم المريضه وصار يقوم ببعض الحركات وترتيل التعاويذ القديمه ثم بعد برهه فتح البخسه وأخرج منها بعض العظام القديمه وبعض الشعر وبعض الاسلاك وبعد ذلك شعرت المريضه بالراحه والقوه وكل هذه الاشياء التى قال إنها كانت فى جسم المريضه هى نفس الأشياء التى كان يعتقد فيها سكان إفريقيا ويقدم بها رجال الدين وسحره إفريقيا ولو راجعنا كتاب « هو بيرديشان » عن الديانات فى أفريقيا السوداء رغم مافيه من الأخطاء الكثيره وبعد الكاتب عن حياه أفريقيا وعدم إستطاعته لالمام بخفايا حياه الشعوب الافريقيه إلا أنه يعطينا صوره

طيه للمعتقدات القديمه عند قبائل الداجو وأعالي النيل والكيكويو بكينيا والسواحيلي بتانجانيقا والباكنجو والباسوتو والسوازى بجنوب إفريقيا والهوتنتوت والدمارا بجنوب غرب إفريقيا والبوشمان بهضه أفريقيا واللوندا بالانغو والبالاى بنهر الكنغو وكذلك الأزنده والمادا والمانجا إلا فيموندو بجنوب غرب أفريقيا والكانورى والهوزا والباونشي واليوربا ولا يانجى والشارى البابمنيكه بوسط أفريقيـــا والاشانتى ويدجون والتوجو والفتى والخاجوا والديدا والمندى والمندانج والتوكلير والألوف والباوله والسو منهارى بغرب حوض النيجر .

إنتشرت الديانات الافريقية القديمة والسحريه بين كل هذه القبائل وخاصه فى وسط إفريقيا وعرفها سكان السودان قبل الحضاره الاسلامية والمسيحية وتمشت تلك الديانات مع الوثنيه الفرعونيـــه فانتشرت فى ربوع السودان ولازمت الـــ الحضارة الفرعونيه إلا أن مركزها الأصلى كان جنوب أرض الجزيره بين قبائل الشكل وأعالى النيل وغرب السودان وقبائل الداجو والتنجور والكنجاره والبراجو .

وقد بدأت الديانات الوثنية وتصاحبها فكرة السحر لحاجة الانسان لفهم الطبيعه وفهم غرائبها .. وقد إستغل بعض الافراد الموهوبين أو الذين اعطتهم الطبيعة بعد القدرات الخارقه للاحساس بخفايا النفوس ويتولوا تفسير تساؤلات الناس عن الطبيعة وعن الجهاد والأمراض .... وقد اختص بعض الملوك ببعض هذه الصفات وجند بعضهم بعض الموهوبين للقيام بهذا الدور فى معرفة إمراض الناس وخفايا تفكرهم ونفوسهم وقد إستطاعوا بأعتقاد الناس لقدراتهم أن ينجحوا لحد بعيد فى تهدئه كثير من الحالات أن كان بالتأثير النفسى أو الخداع أو العقاقير

المستخرجه من النباتات أو إستعمال التعاويذ وقد ساعد على إنتشار هذه العادات أستعداد الناس لتقبلها وخوفهم من معارضتها أو الوقوف أمام السحره اذ اهو العين وقد أثبتت الدراسات أن الديانات الافريقية الأولى لاتختلف كثيراً عن ديانه الفراعنه أو الإغريق فكثير من الرموز متقاربه حيث تتشابه الحياه الزراعيه والرعويه فى كل من النيل واليونان وعند القبائل الافريقيه ولذلك كان وجه الشبه بين هذه الديانات أمراً طبيعياً لتشابه الظروف الطبيعيه والمعيشيه . إلا أن القبائل الافريقيه أختصت بتعدد الآله والعبادات وذلك لتعدد القبائل وعدم خضوع هذه القبائل لسلطان واحد تعطيه كل السلطات الدينية والاجتماعية، كما كان عند الفراعنه كما أعطى هذا التعدد للأفراد الافريقيين كثيراً من الحريه وكان بأستطاعتهم التقدم والتطور أكثر من الشعوب الأخرى التى صنعت حضاره النيل والاغريق والرمان إلا إلا النظام الاجتماعى والاقتصادى الفردى حد فى توحيد إقتصاد القبائل الافريقية فى حين سخر الامكانيات الاقتصادية فى النظام الملكى الفرعونى أوالنظام الاجتماعى الاغريقى والرومانى إلى احترام الدوله والرؤساء والأبطال إلى تجنيد كل إمكانيات تلك الشعوب لصالح تلك الحضارات التى تمت على شمال وشرق وجنوب والبحر الابيض المتوسط .

ونحن لانستطيع أن نفصل الديانات التى قامت فى السودان عن الديانات الوثنيه إذلم تقم أى منها حتى الآن بحمله منظمه لطرد بقايا تلك الأديان الوثنيه القديمة التى إشتركت فى عبادات جماعيه للطبيعه وتقديس للحيوان والاعتراف بسلطان بعض الافراد على فهم أسرار الطبيعه والقيام بدور الراهب. والساحر ونحن نرى ذلك واضحاً فى الصوفيه وطقوسها التى لاتختلف كثيراً عن الطقوس الأفريقية القديمه كما أخذ بعض منهم فكرة التسلط والحاق الأذى بالغير وأستعمال التعاويذ لعلاج الامراض أو إلحاق الضرر بالغير إذا علمنا إن هؤلاء

الأشخـاص إن كانوا من الـكهنه أو السحره الأفريقيين أو رجال الصوفيـه الذين قلدوا شخصياتهم وادركوا الضعف الاجتماعى العام للتصدى لهم . ونحن لانستطيع حتى الان أن يجعل بعضهم يعترف بسر مهنة سر هذه الثقـه وهذه المقدره للنجاح فى بعض الامور وهى لاشك اتت عن طريق رياضه روحيه قاسيه وتعاليم معقده وقراءات سريه خاصه تعتقد بآله للشر وآله للخير وأن هنا لك أسرارآ يستطعون بها التوصل إلى آله الشر واله الخير. وقد إحتلت عبادة الحيوانات جزاء بير فى ع : [illegible] تمساح والثعبان كما كان يعبد الفراعنه القطه والنسر والبقره وأنواع عديده من الحيوانات .

نشأة الصوفية فى الاســـلام

الصوفية هى مذهب المجتهدين من العلماء المسلمين فى حقائق الكون وارجاع كل شىء إلى خالق واحد هو الله سبحانه وتعالى مالك الملك . مذهب الصوفية هو علم للتوحيد .. وعلم التوحيد لا يقوم على الرؤيا الجاهلة أو الوهم إنما يقوم على الحقائق وكشف أسرار الوجود وربط كل شىء بخالقه .

هذا هو مذهب الصوفية الأوائل الاجتهاد فى علم التوحيد ، . . . . التزود بالعلم والمعرفة بحقائق الحياة ، وامتحان كل حقائق الوجود ، ولا يقوم هذا الامتحان وهذا الكشف بمجرد الرؤيا ، أو الوهم ، وإنما يقوم على الدراسة ، الدراسة التى تشبه التحاليلات المعملية لاثبات صحة الحقائق واستخلاص النتائج السليمة وهو أعلى مستوى من العلوم الاسلامية إذ يتطلب من طالب علم التوحيد ، أن يكون ملما بكل معارف الوجود بالفلسفة والطب وعلم الفلك والرياضيات وسائر العلوم الأولية حتى يستطيع أن يرد على كل سائل وعلى كل صاحب رأى مخالف بالاقناع ، والمنطق والحجة . . .

كان هذا حال العلماء المسلمون فى عصر النهضة الفكرية العربية وازدهار العلوم والمعارف ولا يمكن أن يتطور علم مثل علم التوحيد الأوسط تطور كافة العلوم ولابد من وجود الامكانيات العلمية لتفسير كل الظواهر الطبيعية .

لم تظهر الصوفية فى عصر تدهور الفكر العربى كما يتصور البعض ولكن تدهورت الصوفية بتدهور الفكر العربى وخمود المعارف وقلة الاجتهاد واندثار

العلوم حينما بات علماء التوحيد وأهل الصوفية يستعملون أدوات غير تلك التى كان يستعملها رجال العلم من الصوفية الأوائل . . . . . فى حين كان العلم هو السلاح الوحيد للصوفية أصبح الوهم والرؤيا وخطرقها والأحلام وتجريداتها هى أداة رجال الصوفية فى مجال علم التوحيد واثبات وحدانية الله .

يقول الامام العالم أبا القاسم عبد الكريم هوازن القشيرى فى اعتقاد الصوفية فى مسائل الاصول « اعلموا أن شيوخ هذه الطائفة بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة فى التوحيد صانوا بها عقائدهم من البدع ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة فى توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل وعرفوا ماهو حق القوم وتحققوا ماهو نعت الموجود من العدم » .

وقد أخذ بعض الصوفية مثل هذه العبادات دون اجتهاد وعلم وظنوا أن التوحيد يأتى من الاطمئنان لصفاء السريرة وبدون صفاء العقل الذى لايكون صفاؤه الا بالعلم . . لان اثبات وجود الله درجات أعلاهم درجة ذلك العالم المؤمن الذى عرف حقائق الكون وتجرد من كل شىء بمعرفة كل الحقائق فآمن بعقله وقلبه . . وهذا هو مذهب التوحيد الذى اجتهد رجال الصوفية الاوائل فيه بالعلم ، ووقفوا عند كل شىء بالدراسة والتحليل والتعليل يضمنوا المعانى أشياء خفية وانما جعلوا لكل شىء معنى واضح ثم أتى بعدهم طائفة من المريدين وقف علمهم عن أدراك معانى هؤلاء العلماء فتوهموا معانيها وساروا بها دون علم عن طريق البصيره وظنوا أن الرؤيا والوهم هما السبيل الصحيح للكشف عن خفايا هذه المعانى والكلمات ليفهما قلة من الناس من صفى إيمانهم ولكنهم لم يدركوا أنهم وضعوها ان كثر علمه وصفا إيمانه حتى لايقع فى حبال الشرك والأوهام .

ولو وقفنا الآن عند التعريف البسيط للصوفية القائل الصوفى هو من الذى صفا عن الأخلاق المذمومة وتخلق بالاخلاق المحمودة حتى أحبه الله وحفظه فى جميع حركاته وسكناته . . .

ولقد كان لمثل هذه المعانى المختصرة ولكثير من كلمات رجال الصوفية الاوائل التى قالوها للخاصة فانتشرت عند العامة كل أسباب تدهور الفكر الصوفى فظن البعض أن الصوفية هو صفاء السريرة ولكن كيف يتحقق هذا الصفاء وقد ظن البعض أن مجرد أداء الفرائض العادية للمؤمن يكفى لجلب هذا الصفاء وفات عليهم أن تحقيق هذا الصفاء لا يكون لا بتصفية حقائق الوجود ودراستها والتأكد من كل خاطر واثباته علميا ولكن البعض ظن الرؤيا أو الوهم هما مايعنيه علماء الصوفية بالصفاء وان الاحساس له يكفى للكشف أشياء كثيرة لصاحبه .

وباتت الصوفية عند المريدين هو استجلاء كلمات رجال الصوفية وظنوا أن فيها شيئا لايدركه إلا أهل البواطن ولايدرك معانى كلماتهم الا من توفرت لهم أسباب كشف الغيب ولم يدركوا أن الصوفية هى تطور لعلم التوحيد بالعلم والمعرفه وليس الوقوف عند كلمات رجال هذا العلم والظن بأن لكلماتهم معانى خافية لايتوصل إليها إلا القلة وهو وهم كاذب فعلم التوحيد لايقوم على هذا الظن وكل صوفى لايلم يعلم التوحيد ويضيف إليه شيئاً من عنده لايعد صوفيا . . .

قال زعيم الصوفية الأول الامام أبو القاسم الجنيد وهو ببغداد فى أوج ازدهارها فى عصر الخليفة العباس فى تفسيره للتوحيد . التوحيد هو أفراد

القـدم من الحـدث واحكموا أصول العقـائد بواضح الدلائل ولائح الشواهد . .

هـذه دعوة علمية لاثبات وجود الله بالحقـائق والشواهد . . . . . .
قال سمعت أبا حاتم الصوفى يقول سمعت أبا نصر الطوسى يقول سئل رويم عن أول فرض افترضه الله عز وجل على خلقه ماهو فقـال المعرفة لقوله جل ذكره وما خلقت الجن والانس ألا ليعبدون قال إبن عبـاس الا ليعرفون . ونحن نرى هنـا أن عبـاس يفسر كلمة يعبـدون بيعرفون وذلك لأن العبـادة الصحية لا تأتى إلا بالمعرفة إنما الإيمان بدون علم ومعرفة إيمان لايقوم على المعرفة والعلم . ويقول الامام أبو القاسم الجنيد أن أول مايحتاج إليه العبـد من عقد الحكمة معرفة المصنوع صانعه والمحدث كيف كان أحداثه فيعرف من صفـة الخالق من المخلوق وصفة القـديم من المحدث ويذل لدعوته ويعترف بوجوب طاعته فإن لم يعرف مالـكه لم يعترف بالملك لمن استوجبه ويقول الجنيد كذلك فى معنى التوحيد قال أفراد الموحد بتحقيق وجدانيته بكمال أحديته أنه الواحـد الذى لم يلد ولم يولد بنفى الاضـداد والانداد والاشبـاه بلا تشبيه ولا تـكييف ولا تصور ولا تمثيل . وهذه دعوة لاثبات وجود الله عز وجل عن طريق إمتحان الحقائق العلمية .

وماقاد لانحراف البعض فى تفسير معانى رجال الصوفية الأوائل انهم أهتموا بمسائل فلسفية تهم الخاصة من رجال العلم وذلك حين تعرضوا لمسائل ماوراء الطبيعة مثل الحدث والقدم .

وخرجت كلماتهم ومعانيهم هـذه إلى المريدين غـير المطلق على العلوم

الفلسفية فقصر علمهم من عندلوها وفهم معناها وظنوا أن فى العلم باطن وظاهر أحدهما بالاجتهاد وآخر بدون اجتهاد ووقفوا عند المعانى الفلسفية وظنوها كلمات روحانية نزلت على مؤلفيها من الائمة فى ساعة تجلى كشفت لهم عن خبايا الوجود واسرار الحياة ولم يدركوا أنها فلسفة ما وراء الطبيعة وانها علم يقوم على الاقناع العلمى .

يحكى عن يوسف بن الحسن قال : « قام رجل بين يدى ذى النون المصرى » فقال « أخبرنى عن التوحيد . ماهو » فقال « هو أن تعلم أن قدرة الله تعالى فى الاشياء بلا مزاج وصنعه للاشياء بلا علاج ، وعلة كل شيء صنعه ولا علة لصنعه ، وليس فى السموات العلا ولا فى الأرض السفلى مدبر غير الله وكل ماتصور فى وهمك فالله بخلاف ذلك » ..

ويحكى كذلك ما وصل إليه حال الصوفية من بعضهم له علم الغيب حتى إنتشرت هذه الفكرة بين المريدين وغير المريدين وكان لها خطرها الكبير فى هدم أساس هذا المذهب وادخال الدجل عليه وإعطاء قوة لم يؤمنوا بها ولم يدعوا إليها . . . قال جاء رجل إلى ذا النون المصرى وقال له أدع لله لى فقال ان كنت قد أيدت فى علم الغيب بصدق التوحيد فكم من دعوة مجابة قد سبق لك وإلا فأن النداء لاينقذ الغرق وقال الواسطى ادعى فرعون الروبيقوبية على الكشف وادعت المعتزلة له الستر تقول ماشئت فعلت . . .

وإذا تصورنا تطور الفلسفة اليوم والامكانيات العلمية الكثيرة التى

تستغلها لكشف الحقائق وما كانت عليه فى القرن الثالث والرابع الهجرى عند العرب لوجدنا الفارق العلمى الكبير بين الفلسفة اليوم والفلسفة بالامس فقد اختفت آراء رجال الفكر الاوائل وسقط الكثير منها أمام تقدم الفكر اليوم وهذا لايسىء الأقدمية بشىء وانما يثبت ان العلم فى الفكر فى تطور مستمر وكلما تقدم التعليم كلما تقدم الفكر وذلك كيلا نسلم بآراء المجتهدين من علماء الصوفية الاوائل لان العلم لاحدود له .

....

الصوفية الأوائل

أبو اسحق بن ابراهيم بن أدهم بن منصور

أول من ورد ذكرهم من الصوفية ، هو أبو اسحق بن ابراهيم بن أدهم بن منصور . كان من أبناء الملوك ، وأول من ترك حياة الغنى ، وأعطى ما كان معه لراعيه ، ولبس جبة الراعى المصنوعة من الصوف ، مما جعل البعض يعتقد أن كلمة الصوفية مشتقة من لبس الصوف الدال على الزهد فى الدنيا ومعنى الصوفية غير ذلك كما جاء على لسان أئمة الصوفية وهو الذى صفا عن الاخلاق المذمومة وتخلق بالأخلاق المحمودة ولايشترط أن يلبس الصوف لأن أئمة رجال الصوفيين من علماء بغداد والذين عاشوا بها لم يلبسوا هذا الصوف .

ومن أخبار أبو اسحق وأثاره أنه قال لرجل وهو بالطواف علم أنك لاتنال درجة الصالحين حتى تجوز ست عقبات ، أولاها تغلق باب النعمة وتفتح باب الشدة ، والثانية تغلق باب العز وتفتح باب الذل ، والثالثة تغلق باب الراحة وتفتح باب الجهد ، والرابعة تغلق باب النوم وتفتح باب السهر والخامسة تغلق باب الغنى وتفتح باب الفقر والسادسة تغلق باب الامل وتفتح باب الاستعداد للموت » . . .

هذا طرف من فلسفة الصوفية الاوائل الذين كانوا ينظرون للدنيا نظرة أقرب لنظرة الرهبان اليها وذلك عند بداية الحركة الصوفية الا أن هذا لم يكن يشمل فلسفة الصوفية فى الوجود والتوحيد وانما كان هذا رأى فرد منهم فى

حياة الفرد وقد جاءت أخباره أيضا أنه كان يحرس كرما فمر به جندى فقال « أعطنا من هذا العنب » فقــال « ما أمرنى به صاحبه » فاخذ يضربه بسوطه فطأطأ رأسه وقال « اضرب رأسا طالما عصى الله » فاعجز الرجل ومضى . . . .

أبو الفيض ذو النون المصرى :

اسمه ثوبان بن ابراهيم وقيـــل الفيض ابراهيم وأبوه كان نوبيا توفى سنة خمسة وأربعين ومائتين هجرية من أئمة الصوفيه ، وواحد وقته ، علما ، وورعا ، ومالا وأدبا — قيل سعوا به إلى المتوكل فاستحضره من مصر ، فلما دخل عليه وعظه فبكى المتوكل ، ورده إلى مصر مكرماً . وكان المتوكل اذا ذكر بين يديه أبو الفيض يبكى .

كان رجلا نحيفا تعلوه حمرة ، ليس بأبيض اللحية ومن أمثاله قوله « مدار الـكلام أربع ، حب الجليل ، وبغض القليل ، واتبــاع التنزيل ، وخوف التحويل »

أبو القاسم الجنيد بن محمد :

« سيد هذه الطائفة وأمامهم أصلة من نهاوند ومنشؤه ومولده بالعراق وأبوه كان يبيع الزجاج فذلك يقال له القواريرى وكان فقيها على مذهب أبى ثور فكان يفتى فى حلقته بحضرته وهو ابن عشرين سنة صحب خاله السرى والحرث المحاسبي ومحمد بن على القصاب مات سنة سبع وتسعين ومائتين .

ومن أقواله « ما أخذنا التصوف عن القيل والقال ، لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات وقال أيضا « من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولا يقتدى به فى هذا الامر ليس منا لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة »

الامام عبد القادر الجيلانى

هو القطب الكبير المؤسس الاول للطريقـــة القادرية . . كان اماما عالما تقيا ورعا . . . كان له اتباع ورواد لحلقته بمسجده الكبير ببغداد حيث يقوم بتدريس علوم التفسير والحديث والفقه الشافعى والحنبلى وعلوم الأصول واللغة .

وكان يقول لاتباعه « ان الله لا ينظر إلى وجوه الناس واحسابهم وانما ينظر إلى قلوبهم وأعمالهم ، وان المراد بالعلم ، هو العمل به فالفقيه هو من عمل فقهه والمحدث لا يكون محدثا إلا إذا طبق الحديث على نفسه واعد قلبه ليكون على قلب صاحب الحديث صلوات الله وسلامه عليه » . . .

الامام أحمد الرفاعى

هو القطب المربى الامام السيد احمد الرفاعى مؤسسة الطريقة الرفاعيه التى انتشرت فى العراق والشام ومصر وشمال أفريقية

من أقواله : « انفع الناس إلى الله انفعهم لعباده . . . . ومن أقواله أيضا (طريق دين بلا بدعة وهمة بلا كسل وعمل بلا رياء ونفس بلا شهوة وقلب عامر بالمحبة)

وكان مجلسه مدرسة للعلماء ومأوى للفقراء . . .

الأمام السيد أحمد البدوى

هو القطب السيد أحمد البدوى وفد إلى مصر من العراق بعد أن طاف بربوع الحجاز . . . واستقر بمدينة طنطا وأخذ يؤسس مدرسته الكبرى باسم (الطريقة الأحمدية) حضر عصر الظاهر بيبرس وكان يحله ويعظمه .

ومن أقواله (ليس التصوف الزهد أولبس الصوف انما التصوف أعمال ومجاهدة وأخلاق والاخذ بأيدى الناس إلى خير الدنيا والاخرة »

الأمام السيد إبراهيم الدسوقى :

صاحب الطريقة البرهامية توفى سنة ستة وأربعين وستمائة عالما ورعا تقيا من أقواله (من لم يكن متشرعا ، متحققا ، نظيفا ، عفيفا ، شريفا ، فليس من أولادى ، ولو كان ابنى لصلبي ومن كان من المريدين ملازما للشريعة والحقيقة) . . . .

هؤلاء بعض أئمة الصوفية الكبار وإذا أردنا أحصاءهم فعددهم لا يحصيه

هذا الكتاب ونكتفى بالاشارة إلى بعضهم . . . ومايهمنا ماذا استفاد السودان ؟ من الصوفية . . . . وماذا استفادت الصوفية من السودان . . . فهل أعادها إلى طبيعتها العلمية الأولى أم انحدروا بها بعد أن انحدرت هى نسبة لركود الفكر العربى عامة وتدهور الحياة الثقافية والاجتماعية بتدهور الحياة السياسية وتفتيت وحدة الأمة الاسلامية والعربية الذى ابتدأ بظهور الدولة العباسية فى الجزيرة العربية وشمال أفريقيا وانزواء الدولة الأموية فى الأندلس ثم بذوغ الدولة الفاطمية فى شمال افريقيا محتلة أراضى الدولة العباسية ثم جرت التقسيمات العديدة التى هدت بوحدة الامة الاسلامية وقادت لتدهورها .

. . . .

وجه التشابه بين الصوفيه والرهبانيه

لما كانت المسيحية دين سماوى أنزله الله على الناس ليؤمنوا به وكلف به سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام ليقوم بنشر هذه الرسالة قابلت دعوة عيسى من اليهود والوثنية الكثير من التعسف ولقى المؤمنين بها شتى أنواع العذاب وقد سلك المؤمنون بالمسيحية طرقا شتى فى عباداتهم وسلوكهم الدينى ومن هؤلاء كان الرهبان الذين انتشروا فى مصر فى وديانها وجبالها وصحاريها بعيداً عن لهو الدنيا وهروبا من بطش الرومانيين .

ولما بعث الله عز وجل سيدنا محمدا هاديا مبشرا بالاسلام منذرا بالعقاب ثائرا على عبادة الاوثان وقفت قريش ضده ولقى من العذاب الكثير ولقى المؤمنين الكثير من الاضطهاد ...

ظهر الاسلام فى النصف الأول من القرن السابع لظهور المسيحية وقد انتشرت المسيحية بين كثير من الشعوب فى شمال الجزيرة العربية وفى مصر وشمال البحر الابيض المتوسط .. وقد سلك المسيحيين مسلكا جديداً فى العبادة وهم الرهبان فى انقطاعهم عن ملذات الدنيا وخلودهم للعبادة وذكر الله وقد ظهر هذا المسلك عند بعض الصوفيين الاوائل ونحن نورد هنا بعض الامثلة ونقارن بين حياة القديس انطونيوس من أبناء مصر الاغنياء وبين حياة الصوفى الاول أبو اسحق إبراهيم بن أدهم بن منصور ...

فقد نشأ القديس انطونيوس المولود عام ٢٥١ م ببلدة (كوفا) بمصر

مركز الواسطى من أبوين غنيين وعند بلوغه سن الثامن عشر توفى والديه فى عام واحد وتركاه وأخته بعد أن تركا لهما ثروة طائلة وحدث أن ذهب انطونيوس للكنيسة فسمع الكاهن يقول ان « أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع كل مالك واعط الفقراء وتعال اتبعنى فيكون لك كنز فى السماء » وقد اعتبر الشاب انطونيوس هذه الفقرة وكأنها موجهة اليه لانطباقها على حاله فخرج من الكنيسة وذهب إلى ممتلكاته وأرضه ووزعها على الفقراء محتفظا ببعض المال لاخته لتربيتها ولكنه عاد مرة أخرى للكنيسة وسمع الكاهن يقول (لا تهتموا للغد) فخرج من الكنيسة عاقدا العزم على أن يسلك مسلكا جديداً فأرسل أخته إلى بيت للعذارى ثم خرج من القرية عام ٢٧٠ م إلى مكان قريب من قريته حيث أقام فى كوخ صغير إلى جوار شاطىء النيل يدرب نفسه على حياة النسك كما فعل المسيحيون السابقون .

ولما كان قليل الخبرة بحياة النسك وتعاليمها اتصل بكبار النساك وشيوخهم المجاورين له للاستفادة منه . . ثم رأى فى اقامته فى ذلك المكان خطر على حياته الروحية بسبب رؤيته لبعض النساء اللائى كن ينزلن إلى النهر للاستحمام فارتحل إلى المقابر القريبة من القرية ، ولكنه لم يطل الاقامة بها إذ هداه تفكيره ، إلى عبور النهر إلى المناطق الجبلية حيث أقام فى حصن مهجور فى منطقة « بسبير » على الضفة الشرقية على النيل . . وعاش هناك لايتصل بأحد إلا ثلاثة مرات فى السنة حين يحضر اليه المعجبين بة الخبز الجاف دون أن يراهم . . .

هذه حياة شاب مسيحى سلك فى حياته الدينية مسلكا جديداً بخلاف ما كان شائعاً عن المسيحيين ثم تأتى بعد ذلك حياة أبواسحق ابراهيم بن أدهم بن منصور تحكى قصة حياته أنه كان من أبناء الملوك خرج يوما للصيد فأثار ثعلبا أو أرنبا . . وصار يطارده وأثناء مطاردته له هتف به هاتف يا ابراهيم الهذا خلقت أم

بهذا أمرت ثم هتف به أيضا من فريوس سرجه والله مالهذا خلقت ولا بهذا أمرت فنزل عن دابته وصادق راعيا لأبيه فأخذ جبة الراعى من صوف ولبسها وأعطاه فرسه وما معه ثم أنه دخل البادية ثم دخل مكة وصحب بها سفيان والثورى والفضيل بن عياض ودخل الشام ومات بها ، وكان يأكل من عمل يده مثل الحصاد وحفظ البساتين وغير ذلك وأنه رأى فى البادية ، علمه اسمه الله الأعظم ، قد عاد بعده فرأى الخضر عليه السلام وقال وإنما علمك أخى داود اسم الله الأعظم .

وقد شابهت حياة أبو اسحق المعيشية فى كثير حياة رهبان وادى النطرون والاودية الأخرى وتكسبهم من الزراعة واعتمادهم على عملهم وحياة التقشف .

هذا التشابه فى حياة الرهبان الأوائل الذين عاشوا على النيل وفى السودان كان من العوامل المساعدة لانتشار الصوفيه فى السودان وظهور مريديها بتلك الصوره لما وجدوه من روايات قديمة عاش أصحابها على النيل أحيوها من قديم الزمان وما جاء فى ذكر الرواد الأوائل من الصوفية مثل ابو اسحق بن إبراهيم بن أدهم وما كانت ترويه الروايات عن حياة الرهبان فى وادى النيل وسوبه .

. . .

(١)

الشعر

ما نعرفه عن الشعر :

الشعر ذلك النور الانسانى الذى يضىء النفس ...

الشعر تلك الروح التى تبسط الأرواح المتعبه ...

الشعر تلك الروح التى تنهض بالعقول المرهقة ...

الشعر ذلك القبس الذى يلج النفوس المتعبه فيملأها سعاعاً وحياه ...

الشعر رسول انسان طاهر يبحث عن الحياة والخلود ..

الشعر شعاع يضىء كل الأفاق ..

أيتها الشمس أغربى

ودعينى استلقى على الطريق

على أرى خلف الحجب

حتى أرى مالا تراه العيون

الشعر ذلك السراج الذى وقوده أنا وزيته هذه الحياة التى فى العروق ...

وموسيقاه هذه النغمات التى تخلق الحياه وتحيل الانسان إمكانيات لاتحد .

الشعر ذلك القبس الانسانى الداخلى لينير طريق الأبدية

الشعر رحلة بين النفس والذات

الشعر حركة الروح وإنطلاقه العقل

تاريخ الشعر العربى فى السودان

لم تظهر حتى الآن دراسة دقيقة لتاريخ الشعر العربى فى السودان غير بعض الدراسات التى إهتمت بتاريخ الشعر فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين للأستاذ عبده بدوى والشعر الحديث للدكتور الشوشى الأستاذ بجامعة الخرطوم وبعض الدراسات العربية التى ألقت بعض الضوء على تاريخ الثقافة العربية فى السودان بداها الاستاذ محمد عبدالرحيم فى مؤلفاته « نفثات اليراع » « والعربية فى السودان » ثم الاستاذ عبد المجيد عابدين « تاريخ الثقافة العربية فى السودان » وكل هذه الدراسات لم تكشف لنا بوجه قاطع عن تاريخ الشعر العربى فى السودان . ولم تدلنا على مسيرة الشعر العربى فى السودان وهى فى مجملها تابعت دخول العرب للسودان ، ولم تحاول أن تجد رافداً آخر غير تتبع رحلة العرب داخل السودان .

كما قدم الأستاذ الطاهر محمد على آخر رسالته لنيل الماجستير من جامعة القاهرة عن « النزعه الصوفيه فى شعر المهانية » وكنا نأمل أن يكشف لنا هذا التاريخ إلا أنه وقف مع شعر الصوفية فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميلادى مضيفاً غموضاً على تاريخ الشعر العربى فى السودان حتى أصبح نبت بلا جذور ولا بدايه له ، ولم نعرف روافده الاول حتى الآن .

ومن أجل هذا حاولنا فى هذه الدراسة البسيطه أن نجد البداية لتاريخ الشعر العربى فى السودان مستشهدين بالوثائق والأمثله التى إستطعنا أن نعثر عليها .

قسم الدكتور عبد المجيد عابدين فى كتابه تاريخ الثقافة العربية فى السودان الشعر إلى عامى وعامى فصيح وفصيح وهو بذلك قدم الشعر العامى على الشعر العربى الفصيح وقد استند الدكتور عبد المجيـــد عابدين فى تبويبه للشعر فى السودان على هذه الأبواب على ماوصل إليه من شعر القرن الثامن عشر والتاسع عشر وبداية القرن العشرين معتمداً فى نفس الوقت على أن الثقافه العربية دخلت السودان بدخول العرب إليه ولكننا لو تابعنا رحلة العرب داخل السودان مبتعدين عن الالتحام بالناس طالبين المأوى والأماكن الامنة خوفاً من دخولهم فى مشاكل مع أهل السودان حتى يضطروا إلى أن يجدوا نفسهم فى موقف حرج، نخافهم دولة العباسيين فى مصر التى دفعت بأول فوج من العرب الأمويين للسودان . . وحرصا على النجاة من عداوه العباسيين رضوا بالغيافى والسهول الخالية من الناس قدر الأمكان حتى لايدخلوا فى عراك أو عداوة ليست فى مصلحتهم ، ولم يقف تدفق العرب على السودان بهروب الأمويين أمام العباسيين إلى داخل أفريقيا او إلى السودان فى القرن الثامن الميلادى .

أول طلائع عربية مسلمه وصلت السودان عام ٦٤١ م — حين أرسل عمر بن العاص بعد فتحه لمصر قائده عبيد الله بن السرح إلى حدود مصر الجنوبيه لضم دولة دنقلة المسيحيه إلى فتوحات الاسلام ، إلا أن دنقلة قاومت الجيش الأسلامى فى بداية الأمر حتى إضطر الجيش الاسلامى إلى ضربهـــا بالمجنيق . فأستسلم حاكم دنقله و قد صلحاً مع القائد العربى على إحترام المسلمين مارين بدياره أو مقيمين أو مؤدين لشعائرهم الدينية ، والحفاظ على مساجدهم على أن يدفع مسيحيو دنقله جزيه سنوية لحاكم إسوان نيابه عن والى مصر ولكن سكان هذه المنطقة لم ينقطعوا عن العصيان والتحرر من هذا الاتفاق فترات عديده مما قاد لأعادة الهجوم عليهم المره بعد المره .

هذا كان أول لقاء بين العرب المسلمين وسكان شمال السودان المسيحيين والوثنيين الذين كان بعضهم يخضع للديانات الفرعونية فى المناطق النائية عن يد السلطة والكنيسة .

وإذا أردنا أن نتتبع الهجرة العربية فانها لم تسلك هذا الطريق الوعر الذى تقطنه القبائل المسيحيـة عنـد بداية هروب العرب الأمويين أمام العباسيين أو هروب العباسيين أمام الفاطميين فى القرن الثامن الميلادى والقرن العاشر الميلادى داخل أراضى السودان سالكين أرض المعدن مبتعدين عن النيل متوغلين داخل أراضى البطانة .

وأذا أردنا أن نعرف أثر هذه الهجرة العربية منـذ القرن الثامن والعاشر الميلادى على الثقافة السودانية فلن نجد لها أثر لان العـرب فى هـذه الفترة لم يكونوا فى إستعداد لادخال التأثير وفرض ثقافتهم ودياناتهم ، إنما كانت هجرتهم تطلب منهم المصالحة والمساومة والتقـرب إلى عادات أهل البـلد دون إرهاقهم بفرض عادات وثقافة العرب .

وما حدث أن أخذ العرب الاوائل من حياة سكان السودان الـكثير ، بعد أن أخذ منهم الترحال والتجوال والبحث عن مأوى ومكان للاستقرار الـكثير من ثقافتهم وحضارتهم التى أبتعدوا عن مناخها إلى ظروف معيشية اقتبس بكثير عما كانوا عليه فى حياتهم داخل النهضة العربية الاسلامية التى أعطتهم الـكثير من الثقافة والحضارة والمدنية التى لم تتوفر مقوماتها على هذه السهول والقيافى والوديان طلبا للمرعى والرزق والظل .

أنشغل العرب الاوائل بالبحث عن مكان للاستقرار وعن إسلوب للتفاهم به مع سكان السودان وحاولوما أستطاعوا التقرب إلى عادات أهل البلد وتنازلوا عن الكثير من مقومات حياتهم الحضارية حتى إستطاعوا أن يمتزجوا بسكان السودان على ضفاف النيل والوديان والسهول .

وخلال أربعة قرون فقد العرب خلالها إتصالهم بمراكز الثقافه العربية والاسلامية حتى تجردوا فى كل مقومات تلك الحضارة والنهضة . ويأتى القرن الخامس عشر ، وقد حدث الامتزاج الكامل بين العرب والسكان المحليين وأصبحوا عنصرا واحدا ، نجد الحاله الثقافية والدينية فى حاله من الفقر والجهل بتعاليم الاسلام تذكرها لنا المخطوطات القديمة . حيث لم يعد لهم من الثقافة الاسلامية الا أداء فريضة الصلاه اما تعاليم الاسلام الاخرى فقد تبخرت عبر السنين على السهول والوديان وضفاف الانهار حتى ظهر شكل المجموعات الشياليه التى كونت الحلف السنارى مع نهاية القرن الخامس عشر و بداية القرن السادس عشر الميلادى وإن الامتزاج لم يحدث فى عهد الاجيال الاول أنما حدث بعد الاستقرار فى عهد أجيال جديده شبت على تربه السودان ومناخة .

لقد حاول بعض المؤرخين والباحثين جعل الفترة السابقه لقيام الحلف السنارى بين عبد الله جماع زعيم العبدلاب وعماره دونقس زعيم الفونج عام ١٥٠٥ م فترة إنتشار الثقافه العربية . ولم يستطيعوا أن يؤرخوا غير الفترة مابين القرن الثامن عشر الميلادى وبداية القرن العشرين ولم يحاولوا أن يعطونا صورة واضحة من حال الثقافة العربية قبل الحلف السنارى وبعد قيام السلطنه السناريه .... كما أن زعمهم على إنتشار الثقافه العربية بدخول الحرب

السودان . وأن كان للعرب أثر ثقافى قبل القرن الخامس عشر فى مجال الثقافة العربية والاسلامية فهو أثر ضئيل لأن عملية الرحله داخل السودان كانت بالنسبه للعرب أنفسهم بمثابه إمتصاص لثقافتهم ومدينتهم التى وصلوا اليهــا بظهور الاسلام وفتوحاته وأتصالهم بالحضارات الأخرى . . وكل ما خلفه العرب خلال تلك الفترة فى السودان هو نشر التقاليد العربية . . وعلينا أن نفرق بين تقاليد العرب وبين الثقافة العربية الاسلامية التى قامت عليها النهضة العلمية للعرب المسلمين .

بدأت النهضة العلمية والثقافة العربية بظهور السلطنة السنارية ببداية القرن السادس عشر وسيطرة هذا الحلف على جميع القبائل وحفاظه على الأمن وطرق التجاره وإشتراك وزراء وملوك هذه السلطنه فى التجارة بين مصر والبحر الأحمر وتشجيعهم للحج وحراسة قوافله الامر الذى فتح البــاب للناس للخروج من السودان فى آمان على إرواحهم وإموالهم من قطاع الطرق التجارية وعودتهم سالمين من شر قراصنة القوافل التجارية الذين إحترفوا هذه المهنه .

وأذا أردنا أن نبحث عن حال الثقافة العربية والأسلامية بعد قيام السلطنة السنارية فسنجد جهل عام بالتعاليم الأسلامية . . فقد إنتشر الجهل بالتعاليم الأسلامية قبل قيام هذه السلطنة وحتى بعد قيام هذه السلطنة . فسنجد إستمراراً لبعض العادات القديمة التى تنافى مع تعاليم الأسلام فيما يختص بالزواج على الخصوص . فنجد الرجل يطلق المرأة ثم يتزوجها غيره فى نفس اليوم وقد جاء فى مخطوطه « ودضيف الله » المكتوبة عام ١٧٥٢ م عن حال الثقافه العربية

والاسلامية عند قيام هذه السلطنة الان حيث يقول (لم تشتهر فى تلك البلاد مدرسة علم ولا قرآن . يقال إن الرجل يطلق المرأة ويتزوجها غيره فى نهاره من غير عده) وأستمرت هذه الحالة حتى بقيام السلطنه السنارية حتى حضر محمود راجل القصير العركى من مصر وعلم الناس العده فى النصف الثانى من القرن السادس عشر الميلادى وقد وجد رجال العلم والدين الذين تلقوا العلم بعد قيام السلطنه مشقة كبيرة فى تطبيق التعاليم الاسلامية على الناس وحتى على الذين تلقوا دراسات دينية . ومنهم الشيخ محمد الهميم وزواجه بأكثر من إربعة نساء وجمعه بين الاخوات ، وورقرق دشين قاضى العدالة ضد هذا السلوك وإصرار الشيخ محمد الهميم على إستمراره فى الجمع بين الاختين وتحليله لأكثر من اربعة نساء فى آن واحد لكشف جهل الشيوخ فى تلك الفتره وذلك يرجع لا شك لفتره الخلوه التى تلقوا العلم بها . وهذا أمر يبدوا كان شائعا وذلك لابتعاد العرب فترة طويله عن حياة المدينه قبل أن يحدث الزواج والامتزاج بالاستقرار . وساعد على هذا الجهل إبتعاد العرب عن المدنية العربية ومحاولتهم الهروب قدر الأمكان عن أى طريق يقرب من يد السلطه العربيـــة الحاكمة إن كان ذلك فى عهد العباسيين او الفاطميين . حتى فقدوا كل مقومات تلك الثقافة التى جاءت مع الرحالة الآوائل الذين عملوا كجند للدولة الامويه أو الدولة العباسيـة .

ثم جاءت الدوله السنارية فخلقت الأمن والأستقرار وبدأت عمليـــة الهجرة للسودان عن طريق الحج أو عن طريق مصر . وأول من وصل السودان فى عهد الدولة السنارية محمود العركى راجل القصير الذى نزل بالنيـل الأبيض بقرية اليس ونشر التعاليم الاسلامية ويقول الشيخ خوجل ادريس الارباب كانت بين الخرطوم واليس سبع عشر مدرسة خربتها قبائل الشكل ولم تحم

فقد كانت قبائل الشلك تمتد أراضيها حتى أراضى الجزيرة ويعزى اليها البعض تخريب مدينة سوبة ومملكتها .

خط الشيخ محمود العركى أول مدرسة لتعليم اللغه العربية وحفظ القرآن ونشر التعاليم الاسلامية وضمت مدرسته تلاميذاً من مختلف الاقاليم الذى قاموا بدورهم فى نشر تلك المعرفه فى أقاليمهم .

ثم بعد محمود القصير عاد طالب سودانى بعد أن رافق قوافل الحج التى كانت تذهب عن طريق مصر ، من دار الشايقيه وهو ابراهيم البولاد بعد أن أقام بالأزهر والحجاز وألم بعلوم الدين والعربية ودرس بأرض الشايقيه خليلا والرسالة ويقال انه أول من درس خليلا ببلاد الفونج وقد خرج الشيخ إبراهيم أبن جابر ابن عون بن سليم أئمة رجال الصوفية والعلم بأرض الجزيرة وسنار والحلماية وشمال السودان .

وقد كان لأولاد جابر الأربعة وعائلتهم أثر كبير فى نشر تعاليم اللغة العربية فى أرض الشايقية وشمال السودان وقد كان يحج إليهم العديد من الطلاب من شتى الأقاليم لتلقى العلم عليهم وهم إبراهيم البولاد وسمى البولاد لان رجلا حلف إن يدخل بيته جميع ما خلقه الله فافتاه إبراهيم بوضع المصحف على سريره واستدل بقوله تعالى وما فرطنا فى الكتاب من شىء فقال له شيخه أنت بولاد البربر . وأخوانه هم عبد الرحمن وعرف بالصلاح واسماعيل وعرف بالورع وعبد الرحيم وعرف بالعباده واختهم فاطمه ام الشيخ صغيرون وكانت عالمه فى العلم والدين .

اما فى منطقة سنار ورفاعه فقد كان للشيخ تاج الدين البهارى الفضل الكبير

فى نشر العلم والصوفيه وقد تخرج على يده آئمة كبار من رجال الصوفية والعلماء.
وإذا أردنا أن نؤرخ للشعر العربى فى السودان فسوف نؤرخ له بمدرسة تاج الدين البهارى البغدادى الذى وصل السودان بعد أن أدى فريضة الحج حوالى عام ١٥٥٥ — ١٥٦٠ م أول حكم عماره أبو سكيكين وقد نقل الشيخ تاج البهارى للسودان الصوفية الراقية ونقل منها أحلى انتاجها وهو الشعر، وقد كان الشعر الصوفى عربى فصيح حفظه الناس وساروا على منواله فى الكتابه والذكر.
ومن آثار الصوفية الكبار أبو القاسم الجنيد الذى تسمى باسمه (أبو القاسم الجنيد السودانى). وقد كان الشعر الصوفى هو أكثر الشعر الذى تداوله الرواة الاوائل فى الخلاوى (الكتاتيب) والزوايات.

وصل الشعر العربى الصوفى أعلى مراتب الشعر الذاتى وأحلاه، حتى صار على كل لسان. وهو قد جمع بين محبة الله والخوف وقد شبه فيه بعض الشعراء هذا الحب بالحب العاطفى الشارف حتى بات هذا الشعر الصوفى على كل لسان عاشق وحبيب وكل محب للجمال والشعر الجميل وفى ذلك قولهم فى الصمت.

أفكر ما أقول إذا افترقنا وأحكم دائما حجج المقال
فأنساها إذا نحن التقينا فأنطق حين أنطق بالمحال

وكذلك

رأيت الكلام يزين الفتى والصمت خير لمن قد صمت
فكم من حروف تجر الحتوف ومن ناطق ود أن لو سكت

• • •

وقولهم فى الخوف

أحسنت ظنك بالأيام إذا أحسنت ولم تخف سوء ما يأتى به القدر
وسالمتك الليالى فاغتررت بها وعندصفو الليالى يحدث الكدر

وكذلك :

لو أن ما بى على صخر لأنحله فكيف يحمله خلقاً من الطين

وكذلك فى باب التوكل لأبى الحمزة الخراسانى .

أهابك أن أبدى اليك الذى أخفى وسرى يبدى مايقول له طرفى
نهانى حيائى منك أن أكتم الهوى وأغنيتنى بالفهم منك عن الكشف
تلطفت فى أمرى فأبديت شاهدى إلى غائبى واللطف يدرك باللطف
تراءيت لى بالغيب حتى كأنما تبشر منى بالغيب إنك فى الكف
أراك وبى من هيبتى لك وحشة فتؤنسنى باللطف منك وبالعطف
وتحى محباً أنت فى الحب حتفه وذا عجب كون الحياة مع الحتف

وكذلك يقول صديقه المرغشى :

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر أنا جائع أنا نائع أنا عارى
هى ستة وأنت الضمين لنصفها فكن الضمين لنصفها ياباری

مدحى لغيرك لهب نار خضتها فأجر عبيدك من دخول النار
والنار عندى كالسؤال فهل ترى أن لا تكلفنى دخول النار

وقولهم فى باب الشكر.

ومن الرزية أن شكرى صامت عما فعلت وأن برك ناطق
وأرى الصنيعة منك ثم أسرها إنى أذن ليد الكريم لسارق

وفى باب اليقين

ياعين سحى أبداً، يانفس موتى كمدا ولا تحبى أحداً، إلا الجليل الصمدا

أما فى باب الصبر فلهم أحلى الشعر كقولهم :

الصبر يجمل فى المواضع كلها إلا عليك فأنه لا يجمل

وكذلك :

سأصبر كى ترضى وأتلف حسرة وحسبى أن ترضى ويتلفنى صبرى

وأيضا ..

صبرت ولم أطلع هواك على صبرى وأخفيت مابى منك فى موضع الصبر
مخافة أن يشكوا ضميرى صبابتى إلى دمعتى سراً فتجرى ولا أدرى

وكذلك :

والصبر عنك فمذموم عواقبه　　والصبر فى سائر الأشياء محمود

وايضا ..

وكيف الصبر عمن حل منى　　بمنزله اليمين من الشمال

إذا لعب الرجال بكل شيء　　رأيت الحب يلعب بالرجال

وكذلك :

صابر الصبر فاستغاث به الصـ　　ـبر فصاح المحب بالصبر صبرا

وايضا ..

تبين يوم البين أن إعتزامه　　على الصبر من إحدى الظنون الكواذب

وقولهم فى باب الذكر :

ذكرتك لا ، إنى نسيتك لمحة　　وأيسر مافى الذكر ذكر لسانى

وكدت بلاوجد أموت من الهوى　　وهام على القلب بالخفقان

فلما أرانى الوجد إنك حاضرى　　شهدتك موجوداً بكل مكان

فخاطبت موجوداً بغير تكلم　　ولاحظت معلوماً بغير عيان

وقولهم فى الغيره :

أغاضب لمن هويت ولكن　　ما احتيالى بسوء راى الموالى

همت بأتياننا حتى إذا نظرت   إلى المرآة نهاها وجهها الحسن

وقولهم فى باب الفقر .

قالوا غداً العيد ماذا أنت لابسه   فقلت خلعة ساق حبه جرعا

فقر وصبر هما ثوباى تحتهما   قلب يرى إلفه الأعياد والجمعا

أحرى الملابس أن تلقى الحبيب به   يوم التزاور فى الثوب الذى خلعا

الدهر لى مأتم إن غبت يا أملى   والعيد ما كنت لى مرأى ومستمعا

وفى باب السفر قالوا :

إذا استجدوا لم يسألونى من دعاهم   لأية حرب أم لأى مكان

وفى باب التوحيد .

وغنى لى من قلبى وغنيت كما غنى   وكنا حيثما كانوا وكانوا حيثما كنا

وفى باب أحوالهم فى الخروج من الدنيا .

كل بيت أنت ساكنه   غير محتاج إلى السرج

وجهك المأمول حجتنا   يوم يأتى الناس بالحجج

وكذلك قولهم :

حنين قلوب العارفين إلى الذكر   وتذكارهم وقت المفاجأة للسر

أديرت كئوس المنايا عليهم ... فاغفوا عن الدنيا كأغفاء ذى السكر
همومهم جواله بمعسكر ... به أهل ودلله كالأنجم الزهر
فأجسامهم فى الأرض قتلى بحبه ... وأرواحهم فى الحجب نحو العلا تسرى
فما عرسوا إلا بقرب حبيبهم ... وما عرجوا عن مس بؤس ولا ضر

وقيل للشبلى عند وفاته قل لا آله إلا الله فقال :

قال سلطان حين أنا لا أقبل الرشا ... فسلوه بحقه لما بقلبى تحرشا

وكذلك على إبن على الروذبارى حين وافته المنية قال وهو فى حجر أخته .

لا نظرت إلى سواك ... بعين موده حتى أراك
أراك معذب بفتور لحظ ... وبالخد المورد من جناك

وفى باب المعرفه بالله قالوا :

نطقت بلا نطق هو النطق أنه ... لك النطق لفظاً أو يبين عن النطق
ترأيت كى أخفى وقد كنت خافيا ... وألمعت لى برقاً فأنطقت بالبرق

وفى باب المحبه قولهم :

ولما إدعيت الحب قال كذبتنى ... فمالى أرى الاعضاء منك كواسيا
فما الحب حتى يلصق القلب بالحشى ... وتذبل حتى لاتجيب المناديا
وتنحل حتى لايبقى لك الهوى ... سوى مقله تبكى بها وتناجيا

وكذلك قولهم :

عجبت لمن يقول ذكرت الفي وهى أنسى فأذكر مانسيت

أموت إذا ذكرتك ثم أحيا ولولا حسن ظنى ماحييت

فأحيا بالمنى وأموت شوقا فكم أحيا عليك وكم أموت

شربت الحب كأسا بعد كأس فما نفد الشراب وما رويت

وقوله :

لى سكرتان وللندمان واحده شيء خصصت به من بينهم وحدى

• • •

هذا الشعر الوجدانى الرقيق السامى هو الذى وصل إلى اسماع عشاق الصوفية والمعرفة من تلاميذ تاج الدين البهارى فحفظوه لسهولته وجماله . وحاولوا الكتابه على منواله بعد أن توسعت مداركهم فى اللغة والادب وبدأوا كتابة الشعر على هذا المبدأ ولكن الحال بالصوفية لم يسر على ماقدر له إن يسير فألتفت الصوفية إلى دنيا أخرى غير دنيا الأطلاع والمعرفه وسبحوا فى عالم روحانى بعيد عن حياة الناس وانكبوا فى العبادة طلباً لمحبة الله ليعطيهم كراماته وقدرته وقد كان لبعضهم ما أراد ولذلك إنشغلوا بحب الله عن الاشتغال بالمعرفة وبالأطلاع غير نفر يسير كالشيخ خوجلى بن إدريس الأرباب أما معظمهم فقد إكتفى بسنين الدراسة عند شيخة وحفظ القرآن وسماع ـــ الرسالة والخليل ووقفت معارفهم اللغوية وقل اجتهادهم فيها وقد كان لهم وجدان كيفية الناس ولهم شوق للتعبير عما فى نفسوهم ، ولكن لم تكتمل لهم المعارف

اللغوية والعروضية لاجادة التعبير ، وساروا على قول الشعر على طريق السجع مستعملين كلمات محليه وبعض الالفاظ الغريبه التى لها موسيقية خاصة وليس لها معنى ، وهم فى ذلك يظنون انهم يدركون معانىهذه الكلمات لادراكهم لشعورهم حين قول القصيده ، فتخونهم ذخيرتهم اللغويه عن الافصاح عما فى نفوسهم ، ولكن لتمكنهم بأحساسهم حالة نظم أو ارتجال القصيده جعلهم يصرون على كلماتهما ، ويجعلونها سرا من إسرارهم وحدهم فى حين أنهم عجزوا ساعه النظم أو الارتجال عن إيجاد كلمات مناسبه لذلك الاحساس .

ولما كانوا أبعد عن قول الشعر والعارفين لفنونه فلم يرضوا أن يعودا لتلك القصائد لتصحيحها وتعديلها بما يناسب الموسيقى والمعنى ووضع الكلمات الجديده مكان الكلمات الغريبه وذلك لجهلهم بفنون الشعر وانما كانوا نظمهم تعبيرا لفظيا على أحساس موسيقى وعن إيقاع داخلى ظنوه سرا من إسرار الشعر وما عرفوا أن الشعر علم وفن له أصوله وقواعده وأدواته .

ولو أطلعنا على قصيدة الشيخ محمد الهمم وهو من الاولياء الصالحين المتجذبين ردا على فسخ دشين قاصى العداله لزواجه من إكثر من اربعة نساء وجمعه بين الاختين .

تكشف لنا القصيدة بأن لرجال الصوفيه عالم لايدركه الا أصحابه واعتقادهم أن حال رجال عالم الوحده الصوفيه . والغموض الذى يغلف معانيهم وأفعالهم هو سر معرفتهم للكون والحياة والخالق عز وجل وهى دنيا خاصة بهم وهى دنيا ليست من إختصاص العلماء ورجال الفكر وأن العلم قاصر على ارتياد هذا العالم . . حين يقول . .

فان كنت يا قاضى قرأت مذاهباً فلم تدر يا قاضى زمور مذاهبنا
فمذهبكم نصلح به بعض ديننا ومذهبنا يهجم عليكم إذا قلنا
قطعنا البحار الزاخرات وراءنا فلم يدر الفقهاء أين توجهنا
حللنا بواد عندنا أسمه الفضا فضاق بنا الوادى ونحن ماصقنا
حللنا بقرب الغاب روحاً من الدنيا عرجنا شموساً أحجلت شمس نورنا
الحقنا الى العرش على الكرسى المعلى ولوحها لبسنا ثياب النور بحسن جمالنا

هذا تلميذ من تلاميذ الشيخ تاج الدين البهارى رضى الله عنه . أخذ عنه الصوفية ولم يأخذ منه العلم حتى اباح لنفسه الخروج على تعاليم الاسلام والدين وجعل نفسه فوق القوانين والشرائع وأنه من طبيعة أخرى وأن له غرما للبشر مما جعل القاضى دشين قاضى العدالة يستنضم منه بعد أن شكت اليه الناس فى اريجى قرب وفاته وخروجه على المألوف من عادات الناس وتعاليم الاسلام .

هذا الشعر الذى قاله الشيخ محمد الهميم رغم أنه لم يكمل معارفه اللغوية والعروضية مع الشيخ تاج الدين البهارى إلا أن ملازمته له وسماعه للشعر الصوفى الصافى الموزون الفصيح جعله يقول هذا الشعر وإذا قرنا كلمات هذا الشعر الصوفى بالشعر الذى أتى بعد ذلك لتلاميذ رجال الصوفية على شيوخ الصوفية وأنهماكهم فى المعرفة الربانية دون الاهتمام بالعلوم واللغة جعلهم ينظمون الشعر باللغة العامية والفصحى ولذلك لاجتهادهم فى العبادات وقلة إطلاعهم فى علوم الفلسفة واللغة والفقه الأمر الذى اتحدد بتفكيرهم وأصبحت أحكامهم عبارة عن

تصورات لاتقوم على منطق أو دليل وكذلك جاء شعرهم بعيداً عن الفن وقواعده وهم ضد القواعد والأصول .

ومثال ذلك قال الشيخ الصالح بأنقا الضرير من الأولياء الصالحين ومن الصوفية الكبار فى مدحه للشيخ محمد الهميم .

هــذا المربى الـكرام سادات　　سلطان زمانه فأطلبوا دعوات
الشيخ محمد يوم لـقى المرضـات　　هو يشفع لى يوم تكشف العدرات
لا النار يخاف منهـا ولا الجنـان　　يشتـاق لهـا نظير الآلة حاجات
المـولى مقصـوره أعطـاه　　تـاج الدين أبوه وأمه حالات
مـروى عـن سـد السادات　　بيت الآلة فيـه يصـلى أوقات

وهنا نلحظ الفرق الكبير بين شعر الشيخ محمد بانقا والشيخ محمد الهميم فالثانى لازم تاج الدين البهارى وجعله خلفاً له فقال شعرا شبه فصيح ولم يكن من تلاميذ الصوفية المجهدين ثم جاء الجيل الذى تتلمذ على الرعيل الأول الذى عادى المعرفة والمنطق ولذا لم يستفد الشيخ باتقان علوم اللغة العربية وأنما كان إهتمامه بأمور الصوفية أكبر لذا لم يتوسع فى معرفة اللغوية والعروضية وجاء شعره عاميا متأثراً بموقف شيوخه .

كان تلاميذ الشيخ تاج الدين البهارى أكثر فصاحة فى شعرهم كجيل وائد وكلما سار الزمن وتتلمذ التلاميذ على شيوخ الصوفية الذين اهتموا بالمسائل الروحية وأهملوا المسائل العقلية رأينا الشعر ينحدر إلى العامية للفصحى ومن ذلك قول تلميذ الشيخ محمد الهميم الشيخ سليمان الطوالى الرغرات حين قال فى عروسة التى تزوجها فوق أختها حين رفضت الدخول عليه .

يادى العـروس البـكاية　　غاروا عليك أهـل الراية

جعلوك قصبة وشاية

وقد شاركت النساء فى قول الشعر الصوفى ومنهن أمرأه من نساء قرى بلد العبد لاب حين مدحت الشيخ شرف الدين عبدالله الوكى

شرف الدين أنا بالله وبيك　　بالماسكى الشباك بأيديك

من خلانى نعلا تأفى رجليك　　كل يوم لتبركى بيـــك

ياشجره وقت الله أداك　　لانيلا سقاك لامطراً جاك

ولد عركى كل يوم يغشاك　　سوالكى ورقـاً يمشاك

ومن الصوفية الذين ألقوا الشعر الولى أسماعيل صاحب الربابه ابن الشيخ المكى الدقلاشى ومن أخباره أنه حين تأتيه الحاله يمشى فى حوش منزله ويحضر البنات والعرايس والعرسان للرقيص ويضرب الربابه كل ضربه لها نغمه يفيق منها المجنون وتذهل منها العقول وتطرب لها الحيوانات والجمادات حتّى أن الربابه يضعونها فى الشمس أول ماتسمع صوته تضرب من غير أن يقير بها أحد ومن أشعار فى الحرب وفرسه .

بنت بكر المرداويوادبوا　　سلطيه العرضه ديودبوا

وفى غزله فى الجعليه الكرتانيه

جره الفونيج مرق طالب الدبيبه　　قيصه لا كاب حاقب له عينيه

خشم تجه شبيه لين الكنيبه　　كفل من تورتوافى ولد دليبه

وكذلك

صاح مطر الصعيد وصاح المقرر　　خفيف الغاب من الكمكاع مرد
خشم تهجه عن الكذب مجرد　　مريسته فوترينه وورذا متـرد

وقال كذلك

صب مطر الصعيد وعاش بالبت عايد　　فوق خشم البيوت جروا الكسايد
النسوان بلا هيبة ام قلايـد　　لحم سوق رفيعى مشير بحدايد
صب مطر الصعيد وطلق علينا برده　　خشم هيبه يشبه طيات البحر دوا
تعجبك فى الرقيص حين ماتهرده　　ياهنيه من هواها وقضى غرضة

ولما سمع زوجها بذلك رحل بها إلى تعلى فسمع الشيخ بذلك فقال

نسل السيف تلوح فوق أم قبـاله　　تكرب الز م مكان أسمع مقاله
وجـه من قطع فـوق الصناقـله　　نخـلات عروسك ديك بطـاله
نسل السيف تلوح فوق أم عوايد　　تطلب المنكشو ام طبعـاً موافق
وجـة من شافت الجـل تلأفق　　نخـلات عروسك ديك مايتوافـق
نشيـل نحتفـل فـوق أثرهـا　　نشق ام رنزت البهنف مطرهـا
مهره الصنئلاوى المكنوز طهرها　　تعافى المورود الداخل كيرهـا

إدا أودنا أن نقيم هذا الشعر لاشك فسوف تضعه مع شعر الصعاليق شعر المتمردين على القوانين الاجتماعية كما كان يفعل معظم شعراء العرب فى مطارده

نساء وخليلات الرجال واستباحوا لنفسهم هذا الحق .

فطباع الشاعر العرب ماذالت فى دماء هؤلاء العرب الذين استوطنوا السودان ولاشك أنهم أدخلوا نماذج كثيره لم تحفظها لنا المخطوطات

إنتشر الشعر الصوفى الفصيح فى النصف الأول من القرن السادس عشر وصار يتدرج فى بيوت الصوفية الذين لم يهتموا بقواعد اللغه وفنون الشعر إذ كان اهتمامهم التوصل إلى أرضاء الله عز وجل وظهور الكرامات عليهم جزاءا لحبهم لله وصار الشعر ينتقل من فصيح إلى فصيح وعامى وعامى حين جاء القرن السابع عشر فانتشر الشعر العامى بين الصوفية وابتعدوا عن شعر الوجدان والحب

وذلك لقله إهتمامهم بالاطلاع على كتب الصوفية الأوائل ومناقشتها واكتفوا بما ظهر لهم من كرامات عند بعض شيوخهم عما شغلهم عن العالم الخارجى وصاروا يتناقشون على الايثان بمثل هذه الكرامات والخوارق ، وأهتموا بمايوصلهم إلى هذا المستوى وقل اهتمامهم بآداب الصوفية الأوائل واجتهادهم فى علم التوحيد والعلوم العقلية . وأستمرت هذه الحاله بعدم الاهتمام بالعلوم العقليـة خلال القرن السابع عشر والثامن عشر حتى عصر الشيخ أحمد الطيب شيخ الطريقة السمانية الذى إستفاد من تجواله فى البلاد العربية الحجاز ومصر وبيت المقدس وأحضر معه من الكتب والمخطوطات ماجعله يرتفع بمستواه العلمى فى حاله الشرود والهيام إلى عالم العلم والحقيقة وكان محمد احمد آلدنقلاوى الذى لقب فيما بعد المهدى خير شاهد على مكتبة هذا الشيخ العالم التى استفاد منها المهدى خلال عشرين عاماً حتى استطاع أن يتمرد على سلوك شيوخه من الصوفيه لما رآه من تعالم التى تعارض ماقرأ وما أدرك من عالم الدين والحقيقة .

بدأ الشعر العربى فى السودان بعد قيام دوله سنار فى بداية القرن السادس عشر وليس بدخول العرب السودان لأن رحله الاستقرار الطويلة غير عشرات السنين التى استهلكت فيها الاجيال الاولى حياتها عبر الوديان والسهول والحياه المتخلفه للبحث عن مصدر عيشى ومأوى نخرت من عقول الأجيـال الاولى والاجيال التى تلتها كل مقومات الثقافة والحضارة داخل هذه الحياه البدائية حتى تأقلموا على الحياه الجديده يتفاهموا ويعاشروا أهل السودان .

بدأ الشعر العـــربي صوفي بعد رحله الاستقرار التى كان نتيجتها الحلف السنارس شعر وجدانى رقيق بسيط الـكلمات رقيقهـا حبيب إلى النفس وذهب حيث ذهب الصوفية وحيث ذهبت الرسالة والخليـل ومريديه فى ذلك قول الأوائل فى الصوفية. وكان هذا الشعر أجـل شيء يبقى فى النفس دون إرهاق للعقل والوجدان ، إلا إن الصوفية أوقفت تطورها الثقافى لقله الاجتهاد فى كثير من الأحيان ولم ينتجوا لنا غير بعض المخطوطـات لقله من المجتهدين مثل كتاب فى الطريق وآداب الذكر للشيخ إسماعيل صاحب الربابه وكثير من المخطوطات فى تفسير الرسالة والخليل وبعض الدراسات فى التوحيد والصوفيه ولم تصل لنا من تلك المخطوطات إلا إخبارها حتى نستطيع أن نقيم مادتها وسعة إطلاع أصحابها وعمق فكرهم إلا إن هناك ظاهرة يجب الوقوف عليها ، وهى تلك الزيارات التى كانت بين رجال الصوفية لشيوخهم وتدارسهم فى بعض الأمور ومحاولة الاستفاده من شيوخهم المشهود لهم بالعلم كما كان يفعل تلاميـذ الشيخ خوجـلى بن إدريس الارباب وكـذلك تلاميـذ الشيخ الزين بن صغيرون ببلاد الشايقة حيث كانت حلقة علمه أكـبر حلقه علم عرفها العصر وتخرج على يديه العديد من الشيوخ والفقهاء والقضاة . وقد توفى فى النصف الثانى من القرن السابع عشر عام ١٦٧٥ م بالقوز بالقرب من مدينة شندى .

وقد رثاه الشيخ محمد ولد الهدى بشعر ركيك بمقاييس هذا الآن .أما بمقاييس ذلك العصر فيعد محاولة جاده لـكتابه الشعر العامى الفصيح بقوله :ـ

فـكم من رجال لهم شأن ومعرفه	بسبب علمه سموا كالانجم الزهرا
إلى الغروب جرى الاسلام علمك ذا	بـلاد البرادى ومافى الارض فقرا
نشرت علمـاً على الافاق تغرقة	كل النواحى وأهل البحر والحضر

يامين أبـكى على الاستاذ لاترخى   وقبض دمعاً غزيراً جاركا المطرا
من اذا يكون بعدك للطلاب بأهلهم   بأنطلاق وفرحات بلا كشرا ؟ ؟

ومن شعرهم العامى قول الشيخ فرح ودتكتوت فى رثاءه للشيخ أبو بكر ولد قدير ومايحكى عن مستوى العلم فى ذلك العصر ، قصة الشيخ ابو بـكر ولد قديره يحكى أن درس مختصر الخليل على شبخة الذين مره واحده وأذن له بالتدريس ، وكان هذا مستوى إساتذه العلم وقد اشتهر الشيخ ابو بكر بالعالم الجليل وتخرج على يديه علماء وشيوخ وهذا يكشف لنا مستوى التعليم العلمى فى عصرهم قليل فى المعرفة بعد علما وبسط الجماهير الجاهله ويسمى صاحب هذه المعرفة اليسيره بحر العلوم كما قال فيه فرح ودتكتوك .

اين ابـو بـكر المـدرس   فى النصوص بجمـع يـكرس
فـوق مطـايـا العـزمـدرس   حـتى يصبح الحاق مـكرس

ومن شعرهم العامى مدحهم أيضاً هذا الاستاذ من تلاميذه

جبل الهايعة البقيت لهـا ركازة   فى غرب دار صليح الى شرف بلود البارة
ذهب التاجـر لمـا قلبة العطـار   مثل الشمس خفيت الجبة مـع العكار

وقال آخر .

بالـكاف كفاية الهايـع الجيعان   فى الفونج والعرب ماله نظير ولا اوزان
رحمة من بوادى الخلقة الرحمان   أم الجابتو فاقت على النسوان
بالام فى سراياقوم الهميم ملم   دود الـكرده البيكرف نقطة دم

الجود والعباده غيرهما ماهم   مكة بجاسه وقت الرجل تنضم

ومن شعرائهم أيضاً الشاعر أبوجروس شاعر الشيخ إدريس الأرباب قال فى إبنه حمد على قلة عطاءة للشعراء خلاف ما كان يفعل أبيـــه من تكريمهم وعطاءهم .

الشعبة الـكانت تاتيـه   إنكسرت وأدتنا الـهيه

تركت حـــد القلبية   لا من جات قال ادوها الهيبة

وقال فى مدحة على كثرة الكسرة والذبح

ولد عشوم معاكم سلم على حمدن   دار أبوه بويت هنوت من اللقين

ولد القرشى صفاته ماية وألفين   هيلك هيل إبوك ياجامع الشرقين

وفى الشعر الصوفى شعر الشاعر القرشى شاعر الشيخ أحمد ود الدريفى .

وهذا مثال لشعر المدح والذم ، فقد تعود الشعراء على عطاء الاغنياء فيغنون لهم كما فعل شعراء العربية ، وهذا خير مثال لغضب الشعراء على ابن الشيخ أدريس حين أوقف العطاء وأكثر فى الطعام واشار الشاعر بأن هذا الخير خير والده وليس ملـكه .

شوت عود وشود أبو نخيره   وبرت الفرس هاريحومها الخيرة

شعرت ديمو وشعرت العبد سعيد   ياحاحا أبو بوك سواها بأيدو

حـرم شرف نـار البريده   ياسليمان بيكى محنا ونلمنا

بطنك من أكل الحرام بدينة　　جزم ما تكرع الشينة

وقال فيه شاعر :

عبد الملك بحلف طارد الصقلوم　　طاردناس ابوحمد صقرا الخلا الملقوم

داري تحت صفه لصق مسموم　　ورقدها جهينة ونوم الخرطوم

من سنار مرق ولد التيامى حباك　　يجى فى الرقيق والخلوق تمباك

ابوى ببد المليحه المسكت الشباك　　صقع العبد بعصا وفقه حاشاك

ومن شعر الشيخ أحمد ولد الطريفى الصوفى :

أدانى الله أدانى　　زهدنى فى كل فانى

عشق به اضنانى　　فى ذاته أفنانى

أيضا به أبقانى　　يجرى كما طوفان

خلى من غرقانى　　اضحى من الفرسان

وهذا من شعر المجاذيب الذى يأتيهم ساعة الغيبوبة غير محكوم بمقاييس العلم ولا المنطق ومن الغريب أنهم لايتعمدون هذا الشعر الذى لايدرك معناه غيرهم لانه كلام أتى فى ساعه غير طبيعية ومعانى غير معروفة وكلمات غير مطروقة حتى جعلوا معنى هذا الشعر سرا من أسرارهم مع أنه خال من المعنى والمنطق ، وقد حاول بعض النقاد البحث عن معانى كلمات شعراء الصوفية التى ليس لها معنى وحاولوا أن يجدوا لها دلاله منطقية إلا إنهم عجزوا ومنهم من سماها مصطلحات

صوفيه متعارفه عند الصوفيه ـ كمثل هذا الكلمات : كو . كو ، سكم، بكم . . بكم ألخ على هذا الوزن وفات عليهم حالة الأنطلاق الشعوريه ، وعدم التقيد بمنطق وواقع ساعه التدفق الصوفى : والشعر الذى قالوه فى تلك اللحظات ليس شعرا له معنى ودلاله ، إنما هو نوع من الموسيقى اللفظيه الموجوده فى الكلمات والحروف العربية يستعيض بها الصوفى ساعه غيبوبته فى ضربات النوبه والطار وموسيقى الذكر الصاخبه وكل الفاظ أشعارهم ماهى إلا البحث عن موسيقى صوتية تساير حالتهم المضطربه القلقه الباحثه عن شيء ساعة الانجذاب . إلا أنهم رغم ذلك اعطونا صوره متعدده لهذه الشخصية فهى مرة شخصيه عالم ومره فارس ومرة رجل خوارق ومرة شخصية لرجل ورع صالح وتارة شخصيه لانعرفها ولانعرف ملامحها حيث لانعرف كلماتهم .

إحتلت الشخصية الصوفية ذات الكرامات والخوارق مكانه كبيره فى المجتمع السودانى . أولا لأهتمام رجال الصوفيه بهذه الخوارق وهذه الأفعال الغريبه على الانسان وتفسيرهم لهذه العدات تفسيرات تختلف عما إعتاده كبار الصوفية فى العصر العباسى والفاطمى . فقد فسر الصوفية الأوائل بأن المعجزات فى صفات الانبياء وليست لسواهم من البشر وما يظهر على البشر من بقية المسلمين من كرامات ماهى إلا أكرام لمحمد فى عبادة المسلمين وهى امتداد لاكرام الله لنبيه.. ولكن رجال الصوفيه فى السودان انفردوا بتفسير غريب لهذه الكلمات وذهبوا فيها مذاهب شتى وجعلوا أنفسهم موضع الأهتمام والتنافس حتى شغلوا الناس عن عظمة الخالق ونبيه وانشغل الناس بالحديث عنهم وطلب المغفرة والرحمه والشفاعه منهم أكثر من توجيه عقول الناس إلى أنهم لا يسوا وشيئا بالنسبة للخالق العظيم ونبيه خاتم المرسلين وقل حديث الناس عن عظمة الخالق ومعجزات أنبيائه ورسله .

ونرى ذلك فى شعرهم وهو أكثر الشعر الصوفى الذى قبل فى القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ولم يتطور للشعر الصوفى الأول إلا فى القرن التاسع عشر والعشرين ، مثال ذلك قول الشيخ طه الحاج لقانى فى شيخه حسن ولد حسونه :

سلام الله ربى ذى الجلال — على شيخ الطريقة والوصال
سلام فى طاء وهاء — على الشيخ المكمل بالخصال
والحقه التحيه الف مره — والف سلام خير نوال
جميع الخلق قد جزمت عليه — بحسن الحسن فى حسن الفعال
تحيته تغلب كل خير — وتبعد عن كل ذى شر وبال
ونرجوا أن نفوذ به جميعا — بدنيانا وأخرى بالمعالى
ويسعدنا الآله بجاه من — حماك الله يا بن خال من دك الخلال
وانى فى حماه وجميع أهلى — وما أرجوه من كل الامال
بفضل الله تم رضاه على — أروم بحبه نيل النوالى
فما أنسا كموا فى كل وقت — بليل أو بصبح والزوال
فلا تنسانى وفى اللحظات أنى — غريق الذنب فى بحر الخيال
فذاك حفاء فى بعادى — ولكنى أخاف من الكلال
قال زرنا إتينا باجتهاد — وأنى عدنا لقصدك واشتغال

وهذا الشعر إذا قيس بالشعر الصوفى لا يبتعد عنه وتذكر له وفيه لرفعة الإنسان ووصفه بالكمال الذى لا يتصف به الا عز وجل والقصيدة بعيدة كل البعد عن الشعر الصوفى وهى تمجيد للفرد وعبادته وتشبيهه بالأنبياء واعطائه من صفات الخالق عز وجل . .

كما أهتموا بحالات رجال الصوفيه ومتابعتها وتسجيلها لتنشر بين الناس ويتناقلها جميع الناس مثل ذلك قول الشاعر ى عيسى ولد كنذ :

ولد كنـد لما جاتـتـه الحاله　　دقو له الزردات بالسنداله

المولى سبحانه وتعـالى　　خـل النـار له شلاله

هذا هو الموضوع الذى شغل الشعراء وجمعت الصوفيه الكثيرين من المنجذبين غير المتعلمين والمهتمين بعلوم اللغة والدين وكما أسلفنا قل الاطلاع عند الكثيرين من الصوفيه وا كتفوا بالكرامات والخوارق مما عاد بالشعر من الفصحى إلى العاميه والفصحى إلى الخاسيه إلى ثم لغة غير مفهومه غريبة على الفصحى والعاميه ، وسنتابع رحلة الشعر فى القرن التاسع عشر فى حديث عن الثقافة فى ذلك القرن .

حيث بدأت مرحلة جديده فى حياة السودان والثقافة العربية ببداية القرن التاسع عشر الميلادى وعاد الشعر إلى أصله العربى واخرج طلاب المعرفه من عالم الكتاتيب (الخلاوى) الى عالم الازهر وأروقته وأخذوا من معارف العرب وتراثهم .

• • • • • •

وقفة مع الثقافة فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميلادى

لمعرفة الحياة الثقافية والعلمية فى القرن التاسع عشر الميلادى لابد لنا من معرفة الحياة العلمية فى القرن الثامن عشر الذى أشتهر بمنطقتين رئستين كان لهما الأثر المباشر فى حياة الثقافة والفكر خلال القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين . وقد نبع هذا النشاط من منطقتين هما الدامر حيث أقام حمد المجذوب وأرض السروراب حيث أقام أحمد الطيب شيخ الطريقة السمانية التى غابت كل الطرق الصوفية فى السودان وعلتهم مكانه وخرجت الكثيرين من رجال الصوفية والعلوم الدينية ومنهم الشيخ نور الدائم وتلميذه محمد أحمد الدنقلاوى صاحب الثورة الثقافية والدينية على المعتقدات القديمة والجهل بالشريعة وعلوم الدين وعلى أخراف الصوفية .

فقد خرجت مدرسة السمانية ثلاثة رجال كان لهم أثر فى الثقافة والفكر فى السودان أولهم الشيخ أحمد الطيب ونور الدايم والشريف محمد نور الدايم والعلامة محمد أحمد الدنقلاوى تلميذه وزعيم الثورة المهدية .

الشيخ أحمد الطيب صاحب الطريقة السمانية إصله من قبيلة المجموعة ولد فى منتصف القرن الثانى عشر الهجرى أى فى النصف الأول فى القرن الثامن عشر الميلادى وتوفى عام ١٨٢٤ م . حفظ القرآن وعمره خمسة عشر عاما وسافر إلى مكة حيث واصل دراسته على يد القطب الكبير محمد السمان الذى لقنه العلوم الصوفية وأخذ منه الشيخ أحمد الطيب الطريقة السمانية . ولما عاد السودان نشر الطريقة السمانيه التى فاتت جمع الطرق الصوفية . واكتسب الشيخ أحمد الطيب

أحترام ملوك السلطنة السنارية وشيوخ العين لاب ومنحوه الأراضي الواسعة التي وهبها بدوره للآخرين .

ومما يدعو للوقوف ماجاء في مقال الشيخ عبد الله الطيب نور الدائم في جريدة السودان العدد المنشر بتاريخ ١٩٠٣/٩/١٧ .. وحكى أن جده أحمد الطيب قد يئس من حكومة السلطنة السنارية والفوضى التي كانت تعيش فيها وقارن تأخر بلاده بالبلاد العربية التي كان يزورها فدعى سلطات الحكومات العربيه لدخول السودان وتعميره وتطويره في الادارة والثقافة . وقد كان نظرة الأستاذ أحمد الطيب نظرة حضارية وذلك لاتاحة الفرصة للسودان ليتصل بالامم المتقدمة ويدور في فلكها لتحرر من التخلف والجهل وذلك للاستفادة من خبرة تلك البلاد ولكن دعوته هذه لم تلق إستجابة عند الاتراك وذلك لجهلهم بخبرات السودان وظنهم إن السودان بلد متوحش أهله من ازنوج وليسوا من المسلمين وماسمعوه من الروايات الخرافية الكثيرة التي كانت تقال عن سكان إفريقيا . . .

وقد قال الشيخ عبدالله الطيب نور الدائم شيخ الطريقة السمانية بمصر بعد أن هرب من يد الخليفة عبدالله ، قال لما عاد سيدي الشيخ أحمد الطيب من الاراضي المقدسة وزار مصر وبيت المقدس والعراق وأكثر البلاد الاسلامية ورأى مافيها من التقدم والعمران بالنسبة لحالة السودان أحب ان تصير بلاده مثلها فكان لاينفك عن دعوة الاهلين إلى السعى إلى ضم السودان إلى حكومة مصر والقضاء على دولة الهمج التي لايرجى منها أن تسير بالبلاد في الطريق الذي سارت فيه مصر والشام .

وقد كان أخوته وبنو عمومته القابضين على خطط هذه الدولة لهم منها وظائف الوزارة وقيادة الجنود ومراتب القضاء والكتابة وسائر خطط الدولة . . .

أشار على الدولة بإصلاحات كثيرة وبث الرغبة فى افئدة الكثيرين من طلاب العلم ليغادروا ديارهم لطالب العلم حتى لو بالصين فعادت مساعية بالنجاح وأنتشر علم الدين فى الافاق بعد أن كان الناس يسافرون الأيام والليالى ليصلوا إلى بيت عالم يفتيهم أو يعقد لهم نكحه .

حديث الشيخ عبدالله الطيب عن جده أحمد الطيب يكشف لنا عن مركز ثقافى هام أنشأه الشيخ أحمد الطيب بالقرب الخرطوم وقد نتج هذا الاهتمام بنشر الثقافة والعلم من الخبرة والضرورة التى يراها الشيخ أحمد الطيب فى البلادالعربية التى كانت تعيش فى اسوأ حالتها ولكنها رغم ذلك رأى فيها من مظاهر التطور والعمران إذا قيس بحال السودان المتخلف تحت ظل السلطنة السنارية ، كما يكشف لنا تأثير مدرسة الشيخ أحمد الطيب فى تخريج القضاة والمعلمين والمستشارين لحكومة السلطنة السنارية فى عهد الهمج وذلك فى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى وبداية القرن التاسع عشر . .

مدرسة المجاذيب :

احتلت الدامر مكانة كبيرة فى العصر الثامن عشر والعصور التى تلت ذلك بفضل شيخها أحمد المجذوب ، حفظ القرآن على الفقيه عبد الماجد تفقه فى خليل والرسالة على الفقيه مدنى بن محمد وعلى الغزاوى وعلم الكلام عن الحاج سعد وحج إلى بيت الله الحرام وأخذ الطريقة الصوفية الشاذلية على يد الشيخ على الدراوى . .

وأنتعشت الدامر بحياته فقد قام للتدريب بها فى شتى العلوم والفنون والأحكام وهو من جمع بين العلم والعمل .. وقد كانت تخاف منه الأعراب وقطاع الطرق وقد جاء فى كتاب بوكهارت فى رحلاته فى بلاد النوبة وصف مدينة الدامر له فى ١٠ أبريل سنه ١٨١٤م .

يقول الدامر قرية أو بلدة كبيرة قوامها خمسمائة بيت وهى نظيفة تفضل فى شكلها بربر لما فيها من المبانى الجديدة ولخلوها من الخرائب فى بيوتها شيء من التنسيق وشوارعها منتظمة وتنمو فى كثير من أرجائها الأشجار الوارفة الظلال ويسكنها عرب من عشيرة آل المجذوب ويردون أصلها إلى جزيرة العرب وجلهم من رجال الدين أو الفقراء وليس لهم شيخ يتزعمهم بل فقيه يسمونه الفقى الكبير وهو الرئيس الفعلى والقاضى الذى يفصل فى خصوماتهم ويشتهر آل المجذوب الذين أصبح هذا المنصب وقفا عليهم من قديم بما تنجب عشيرتهم من سحرة وعرافين مهرة لا يحجب عنهم غيب ولا تقاوم لهم تميمة . .

ويخيل إلى أن وظيفة الفقى الكبير وراثية ولابد أن يتوافر فيمن يليها بطبيعة الحال الذكاة . ورجاحة العقل والفقه فى الشريعة لأن هذه كلها من مقومات وظيفته على أن الفقية الكبير ليس ساحرهم الأوحد فغيره من الفقهاء الأقل شهرة كثيرون ممن يؤمن الناس بهم على قدر تقواهم وعلمهم وهكذا اكتسبت بلدة الدامر بأسرها صيتاً ذائعاً وفى البلدة يمارس الناس التعلم فى مدارس عدة يؤمها الطلاب من دارفور وسنار وكردفان وغيرها من إنحاء البلاد ليدرسوا الفقه دراسة تتيح لهم أن يكونوا فى بلادهم فقهاء كباراً .. ويقتنى فقهاء الدامر من الكتب الشيء الكثير ولاكنها لا تتناول من المواضيع غير الدين والشريعة

ورأيت فيما رأيت نسخة من القرآن لا تقل ثمنها عن أربعمائة قرش ونسخة كاملة من تفسير البخارى تساوى ضعف هذا المبلغ فى مكتبات القاهرة وقد جلب هذه الكتب من القاهرة الشباب من فقهاء الدامر أنفسهم فكثير منهم يجاور الأزهر الشريف أو فى المسجد الحرام بمكة ويظلون سنوات ثلاث يعيشون على الصدقات والجرايات . فاذا عادوا إلى الدامر علموا الطلبة تلاوة القرآن وأعطوهم دروسا فى التفسير والتوحيد ولهم جامع كبير حسن البناء ولكنه بلا مئذنة وتسنده عقود من الاجر وأرضه مفروشة بالرمل الناعم وجو الجامع ألطف أجواء المدينة وأرطبها وإليه يأوى الغرباء للتقيل بعد صلاة العصر ويلحق بالجامع مكان مكشوف تحيط به حجرات للدرس . . ولكثير من الفقهاء زوايا صغيرة إلى جنب بيوتهم ولكنهم لا يصلون فريضة الجمعة إلا فى الجامع الكبير ويحيط كبار الفقهاء أنفسهم بمظاهر الورع والتقوى ويعيش الفقى الكبير عيشة العابد المتقشف فهو يسكن بناء صغير يقوم وسط ميدان كبير من ميادين البلدة . وقسم من البناء مصلى والقسم الآخر حجرة مساحتها نحو أثنى عشر قدما يقيم فيها ليل نهار لا يبرحها ، بعيداً عن أسرته وحيداً لا خدم معه ولا أتباع وهو يعيش على ما يرسله له أصدقاؤه أو أتباعه من فطور وعشاء وإذا كانت الساعة الثالثة عصراً بارح حجرته بعد إعتكافه سحابة نهاره للقراءة والدرس ثم أتخذ مجلسه على مصطبة من الحجر أمام داره وألم به اخوانه وأتباعه فجعل يصرف أعماله حتى الغروب . . . وذهبت مرة لاقبل يده فراعنى منه محيا وقور وطلعة جليلة وكان يلتف بعباءة بيضاء تغطيه كله .. وكان يجلس بجواره شيخ مغربى مكناسى قدم من مكة يشتغل عنده كاتباً ويصرف له كل أعماله الرسمية وذكروا لى أن هذا المغربى أستطاع أن يجمع من وظيفته مالا طائلا .

ويلوح لى ان شئون هذه الدولة الدينية الصغيرة تصرف بمنتهى الحكمة والعقل وجيرانها يكنون للفقهاء أعظم الاحترام والاجلال . ألقوا الرهبة فى قلوب البشارين الغادرين فلم يسمع أحد . انهم اعتدوا على دامرى يعبر الجبال من بلده إلى سواكن : وأخوف ما يخافه البشاريون أن يقطع الفقهاء عنهم المطر بسحرهم فتهلك أغنامهم ومواشيهم .

أما الزينه والفنون فيقول بوكهارت عن أهل الدامر (ويزين نساء الدامر غرف جلوسهن بعدد كبير من الصحون الخشبية الواسعة يعلقنها على الجدران فيبدوا وكأنها الصور الكثيرة . أما الأرض فيغطيها بالحصر الجميلة مختلفة الرسوم والألوان ولاغرو فالقوم خبيرون بصنع خوص الدوم وكذلك رأيت بيض نعام وريش نعام أسود معلق على الحائط فوق الباب للزينه) .

مع الفن :

إذا وقفنا مع الفن فى هذه المنطقة حتى شمالها وجنوبها إلى منطقة أبو حمد والخرطوم نجد تشابه الحياه الطبيعية على النيل بالنسبة لشمال الدامر وبالنسبة لجنوبها وتكاد الدامر أو نهر عطبره بداية لوجود تربة جديدة جنوبه وتمتد حيث تختلف النباتات الطبيعية بعض الشيء وتظهر أشجار الدوم والنخيل وفى الجنوب تبدأ الاراضى الواسعة على الشاطيء الصالحة للزراعة مثل زراعة القطن بكميات بسيطة بجانب الخضروات والذره وتقوم على الشاطيء أشجار (السنط العربى)

وإذا أردنا أن نتتبع الفن فى هذه المنطقة فسوف نجد الامكانيات الطبيعية

هى التى تشكل الفن وهى الدوم والنخيل والتربة الصلصالية عند الجزائر والشواطىء الرملية بعيداً عن الشاطىء وبعض الاحجار والحصى . والمواشى وجلودها وزعفها وقد استغلت هذه الامكانيات أستغلالا مختلفا عبر العصور وقد أستعملها الفراعنة للعبادات وتجميل المعابد وزينة النساء وأستخدمها المسيحيون إستخداماً جديداً فى التعبير عن البساطة وحياة المسيح والعذراء وأستخدمها سكان النيل بعد دخول العرب والاسلام زينة للمنازل وللنساء وحياة المنزل وهو أستخدام يتطور بتطور الفكر الدينى وليس الفكر الجمالى ، فالجمالية قد أختفت فى العصور الوسطى بعد دخول العرب وأصبح الاهتمام بالاشكال الجميلة نوع من الترف والأنحراف الدينى وأصبح الجمال هو جمال الروح وأجتهدوا لتعويض هذا النقص فى مظاهر الجمال الصناعى بخلق جمـــال معنوى نابع من الاخلاق والعادات والتقاليد ...

وقد ظهر نوع من الزخرفة فى ملابس الدروايش والصوفية فى العصور الوسطى أمتد حتى القرن العشرين كان فى مجموعه تعبير عن عدم الانسجام وتنافر الالوان وكأنهم أرادوا خلق انطباعات مختلفة بأختيار الوان صارخة متنافرة لا تدل على الانسجام والصداقة ،

أما الموسيقى والرقص فقد أخذت نفس الطابع سائرة مع اشكال التطور المختلفة ، فقد استخدمت الموسيقى والرقص فى تأدية الشعارات الدينية فى العصور الفرعونية حين إنتقلت الحضارة الفرعونية إلى منطقة مروى أما فيما سبق هذا العصر فقد كانت الايقاعات تعبر عن الفرح والسرور والحزن والخوف والاستعداد والرقصات نفسها كانت رقصات ايقاعية وكانت الموسيقى هى الضرب على الايدى والأرجل وآلات النفخ البسيطة من النباتات ثم تطورت الموسيقى والرقص المصاحب لها تعبيراً عن المشاعر الدينية فى فترة الوثنية الفرعونية وذلك أثناء

طقوس المعابد واحتفالات النيل والزرع والحصاد والموت والزواج والختان ..

وإذا تابعنا عطاء هاتين المنطقتين الدامر وشمال الخرطوم حيث أقام السمانية والمجاذيب نجد تجمعا كبيراً من طلاب القراءة وحفظة القرآن والطالبين للالمام ببعض أمور دينهم وقد كان لعلم هؤلاء الصوفية بين تلك المجموعات الجاهلة أثر كبير بجانب التقدير الصوفى الذى احاط بهم وأعطاهم مكانة أجتماعية جعلت قبول تعاليمهم وأرشاداتهم الدينية مقبولة ومحترمه أكثر من رجال العلم الذين فقدوا هذه الميزة الصوفية .

حمل تلاميذ هاتين المنطقتين رسالة العلم رغم بساطة المعرفة التى كانت تعطى لهم إلا انها كانت برعماً تنتصر اللقاح الطيب فى القرن التاسع عشر على يد الفتح التركى وحضور الوفود العلمية مع الفتح التركى من قضاة ومعلمين وخروج الطلاب إلى اروقه الأزهر والاقامه به على نفقة محمد على باشا ليعودوا عمالا فى دولته الجديدة .

....

رفاعة رافع الطهطاوي فى السودان

إذا تتبعنا آثار النهضه الثقافيه فى العالم العربى فى بداية القرن التاسع عشر بعد حملة نابليون نجد أن روادها الأوائل اتجهوا جميعهم إلى الثورة الفرنسية .. ففرنسا بعد ثورتها واعلان الجمهورية . . . . وخلق طبقة وسطى قوية أصبحت حلم كل مثقف ومتطلع إلى عالم الحرية والعلم والفكر .

فقد انجبت الثوره الفرنسيه رجال من المفكرين مثل جان جاك روسو وكما انجبت الثورة الفرنسية رجالا مفكرين خدموا الفكر الانسانى والثقافة الانسانية . . وقد حلت الثورة الفرنسية الفوارق الطبقية وجمعت بين أنصار الفكر والحرية فى مشارق الأرض ومغاربها .

ومن هؤلاء الرواد الاوائل كاتب ومجاهد مصرى كان له الفضل الكبير فى بعث النهضة التعليمية والثقافية وحمل لوائها فى صدق واخلاص واجتهاد وهو رفاعة رافع الطهطاوى المولود ببلدة طهطا . حيث حفظ بها القرآن وأجاده كبقية أبناء تلك الفترة ثم أرسله والده للأزهر الشريف ليتزود من علم الازهر وليتخصص فى علومه .

وقد كان الطالب رفاعه رافع الطهطاوى طالب مجتهداً لفت نظر معلميه لاهتمامه بعلومه ونبوغه وقد تعهد تعليمة بالازهر رجال أفاضل منهم الشيخ الفضال والشيخ العطار وقد اهله نجاحه للتدريس بالازهر لمدة عامين .

وقد عرف عن محمد على باهتمامه لانشاء دولة مصرية قوية لتقف قوية منيعه

إمام أطماع الاستعمار ولتمكن فى مناعة ترهب المتطاعين إليها . ولذلك أدرك أن نهضة مصر وقوتها تكمن فى أبنائها فخطط لذلك بالاعتماد على أبناء مصر فى إدارة شئونها فأخذ يبعث بالبعث التعليميه فى كافة العلوم إلى فرنسا وقد استفادت مصر والنهضة العربية من أولئك الرواد الأوائل ومنهم شيخنا رفاعه رافع الطهطاوى . .

وحين أرسل محمد على بعثة من أبناء كبار موظفى دولته سأل الشيخ العطار أن ينتخب لهذه البعثة اماما من علماء الازهر فوفق الشيخ العطار فى اختيار رفاعه رافع الطهطاوى لهذه البعثة.

وقد كان الشيخ طموحا للعلم ما أن خط رجله على الباخرة الراحلة إلى أوروبا وإلا بدأ فى تعلم اللغة الفرنسية ... وهناك فى ثورة تفتحت عقلية الشاب الازهرى المتطلع للعلوم ووجد المجال مفتوحا لكل راغب ومجتهد . واجاد اللغة الفرنسية خير اجادة حتى أصبح من خيرة مترجمى العلوم الغربية إلى العربية وقد ساعده على طموحه العلمى العالم الشهير موسيو جومار ثم العالم البارون دساس فكانا خير عون له ليفتحا ذهنه على كنوز المعرفة والعلم .

ثم عاد الشيخ الازهرى إلى مصر بعد أن تمكن من اجادة اللغة الفرنسية والاطلاع على العلوم الحديثة فى أوروبا .

عاد رفاعه ثائرا متشبعا بالروح الفرنسية وثورة الطبقه الوسطى .

عاد عالما ومفكرا ووطنيا مخلصا فاوكل إليه إنشاء مدرسة الألسن بالقاهرة

لتخريج طلبة ليعملوا فى الدواوين وليجيدوا اللغة الفرنسية. ثم مالبث أن اختلف مع محمد على وأساتذته فقرر نقله للسودان .

وكان السودان بالنسبة لاى مواطن ذلك الوقت كالمنفى بل هو منفى حقيقى بما عرف عنه أخبار وأن أهله يعيشون فى حالة بدائية وراحت مثل هذه الاخبار ولذلك كان يتخوف منه كل من يرسل إليه .

وفى الخرطوم عاصمة السودان حط الشيخ رفاعه رافع الطهطاوى رحاله وأنشأ فرع لمدرسة الالسن انضم إليها أبناء كبار الاعيان لتخريج الكتبة الذين يعملون فى دواوين الحكومة .

وقد استفاد السودان من هذا الشيخ كل فائدة فى وطنه بعد رائد من رواد الثقافة والفكر فى مصر .

إلا أن المدرسة لم تستمر حيث كانت حرارة الخرطوم وسوء المعامله التى لقيها الشيخ وزملائه مما قضى بوقف المدرسه بعد إن توفيا بالخرطوم زملاء الشيخ رفاعه حيث رأى فى حياه الخرطوم فى ذلك العهد منفى حقيقى ، فهى بالنسبة للمدن السودانيه الأخرى مدينه جديده ليس بها أى شىء غير المرتزقه وحياه السخف ، ولم تسعد الخرطوم الشيخ فصار يرسل التوسل تلو التوسل لرؤساءه يستعطفهم العفو عنهم واعادته إلى السودان وقد سجل لنا فى لبق كتبه شيئا عن السودان بما فى ذلك قصيده هجا فيها الخرطوم وحياتها القاسيه التى اذا قورنت بما رأى من حال المدينه والحضارة فى فرنسا تعد أكثر من بدائيه إذا أمكن هذا الوصف وهذا ماتكشفه لنا قصيدته .

ولقد رأيت فى طريقى ببلاد الشاقية بمديرية دنقلة حرم سنجق يدعى الملك الازيرق تسمى السيدة آمونة تقرأ القرآن الشريف ومؤسسة مكتبين أحدهما للغلمان والآخر للبنات كل منها لقراءة القرآن وحفظ المتون تنفق على المكتبين من كسبها بزراعة القطن وحليجه وغزله وتشغيله ولا ترضى أن يشوبه شيء من مال زوجها وبجانب المكتبين خلوات لمن يختلى من العباد والزهاد الحاضرين من أقصى البلاد لأداء فريضة الحج الشريف ومنزلها كالتكية للفقراء وأبناء السبيل والقاصدين بيت الله الحرام وأمثال ذلك كثير هناك فى ظل الحكومة المصرية

ومما يدل على حسن مقاصد المرحوم محمد على أنه فى عودته من البلاد السودانية استصحب معه عدة غلمان من أبناء وجوه السودان إلى مصر وألحقهم بالمدارس المصرية ليتعلموا مبادىء العلوم ثم نقلهم الى مكتب الزراعة ثم إلى مدرسة الألسن وكان القصد من ذلك أن يتذوقوا طعم المعارف التمدنية لينشروها فى بلادهم وقد شاهدت بعضهم مستخدما بمديرية الخرطوم بوظيفة كاتب وبعلمى عنه أنه بواسطة تنظيمات سعادة شاهين باشا الاخيرة المؤسسة على حب تقدم الخدمة المدنية وهمة سعادة جعفر باشا صاحب الأنظار التمدنية تمكن إيصال التقدم المصرية بعناية الحكومة فى أطراف وأكناف تلك البلاد التى هى أمكن لها تحصيل قراها عن نوع التقدم فى الحضارة مع مسابقة الوارد والمتردد إليهم بقصد التأهل لقصد الزيارة أو التجارة فإنها أقرب للتمدن من اقليم أمريكا بكثير وجميع أهلها ما عدا بعض الجبال لسانهم عربى فصيح حيث أن جلهم من نسل العرب المتحدة القبائل قديما يحفظون أحسابهم وأنسابهم وفيهم كمال الاستعداد او ذكاء الفطنة وإنما يحتاجون فى حصول المطلوب إلى اطمئنان النفوس وتأليف القلوب من حكامه

ارباب صداقة وعفاف وعدل وانصاف لاتحملهم المطامع الدنيوية على حض الالتفات إلى الامور الدينيه بل توجـــد القبليه أيضا عنـد الأهـالى المتأصلين .

ويدل على هذا ماحكى عن الخليفه أبى جعفر المنصور عما جرى بين عبد الله بن مروان بن محمد وبين ملك النوبه مما ذكره المؤرخون فى حق الملك المذكور مع أنه كان من ملوك السودان المتأصلين إذ لم تـكن القبــائل العربيـــة انتجعت إلى السودان ولا تسلط على هذه الاقاليم ملك من أهل الاسلام ولامن العربان وهو أن أبا جعفر المنصور حضره ليلة عبد الله على وصالح بن على فى نفر معهم فقال عبد الله بن على يا أمير المؤمنين ان عبد الله بن مروان بن محمد لما هرب إلى بلاد النوبة جرى بينه وبين ملكها كلام فيه أعجوبة سقط عنى معظمه فأن رأى أمير المؤمنين ان يرسل اليه لحضرنا ويسأله عما ذهب عنا وكان فى المجلس فارسل اليه أبو جعفر فلما دخل قال له : يا عبد الله — قال لبيك يا أمير المؤمنين قال أخبرنى بحديثك وحديث ملك النوبه قال يا امير المؤمنين هربت بمن تبعنى بأثاث سلم لى إلى بلاد النوبة فلما دخلت بلادهم فرشت ذلك الاثاث فجاء أهل النوبة متعجبين حتى أبلغ ملك النوبة حضورى فجاء معه ثلاثة نفرلة فاذا رجل طويل آدم أغبر مستوى الوجه أملسة فلما قرب منى قعد على الأرض وترك البساط قلت ما يمنعك ان تجلس على اثاثنا هذا قال إنى ملك وحق لكل ملك أن يتواضع لعظمة الله أذا رفعة الله قال ثم نظر إلى فقال لم تشربون الخمروهى محرمة عليكم فقلت عبيدنا أتباعنا يفعلون ذلك بالجهل منهم قال فلم تلبسون الديباج والحرير وتتحلون بالذهب وهو محرم عليكم فقلت زال عنا الملك وأنقطعت المادة واستنصرنا بقوم من الأعاجم كان هذا زيهم فكرهنا الخلاف عليهم فاطرق يقلب يده ويقول عبيدنا واتباعنا وأعاجم دخلوا فى ديننا يكرر الكلام على نفسه

ثم نظر إلى وقال ليس ذلك كما تقول ولكنكم قوم ملكتم فظلمتم وتركتم ما به امرتم وركنتم إلى ما عنه نهيتم فسلبكم الله العز والبسكم الذل بذنوبكم والله فيكم نعمة لم تبلغ غايتها بعد وانا اخاف ان تنزل بكم النقمة وانتم ببلدى فتصيبنى معك وارتحلوا عن جوارى انتهى . فقام ابو جعفر وقيدا من كلامه فدخل حجره وقال الله تعالى واذا أردنا أن نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا قال المفسرون فى الاية حذف دل عليه باقيها اى امرنا مترفيها اى منعميها بالطاعة فخالفوا ففسقوا فدمرناها تدميرا انتهى — فيالها موعظة بيضاء من ملك أسود ولعل ملوكهم فى الازمان القديمة كانوا كصلحائهم الآن على قدم عظيم من الاستقامة وطريقة قويمة واما مرضع معرض الذم فى حق اهل السودان فهو متوجه عام جمهور أهل البلاد وهم العبيد والمولدون ومن نحا نحوهم من رعاع اهالى تلك البلاد ارباب الدنائة والخسة .

وفى سنة سبع وستين ومائتين والف كنت مسافرت إلى السودان بسعى بعض الامراء بتعمير مستقر بوسيلة نظارة مدرسته بالخرطوم فلبثت نحو الاربع سنين بلا طائل وتوفى نصف من مصيقى من الموجهات المصريين فعملت هذه القصيدة برسم المرحوم حسن باشا كتخدا مصر رجاء انشلى من اوحال تلك الاحوال فلم يتيسر ارسالهم ثم اسعد الحال بتبديلك من الذى باخذ الذى هو حال وذلك عقب تخميس لقصيدة نبوية برعية متوسلا فيه بشفاعة شفيع البرية وها هى القصيدة الأولى : —

ألا فادع الذى ترجو ونادى ... يجبك أن تكون فى أى نادى
فمن غرس الرجا فى قلب ... أصاب جنى التحاشى الحصاد
ومن حسن الخلائق سلة صنعا ... جميلا فهو اوفى بالوداد

وحدث عن وفاخل وفى — بموسل حية فى القلب بادى
ورب أخ تلاهى عنك يوم — قرب وداده أند ودادى . . .
بنو الاداب آخوان جميعا — واخوان بمختلف البلادى
خلائق عنصر كل تغذى — باثراء العلا دون اقتصاد
وآداب الغنى تعلية يوما — إلى الانجاد من بعد الوهاد
وآدابى تسامى بى الدرارى — على شنى وتبلغنى مرادى
ومالى لا آتيه بها دلالا — وقد دلت على نهج الرشاد
إلى سبل الفخار تقود حزمى — وفى ميلانه عزم انقيادى
عصامى طريق المجد سعيا — عظامى شريف بالتلاد
سوى نسب العلوم إلى انتساب — إلى خير الحواضر والبوادى
حجى السلالة فاسمى — بطهطا معشرى وبها مهادى
لسان العرب ينسب لى غارا — ويد بقى إلى مس الايادى
وحسبى انى ابرزت كتبا — تلبيد كتابنا يوم الطرادى
فمنها منبع العرفان يجرى — وكم طرس تجمر بالمدادى
على عدد التواتر معرباتى — تفى بفنون سلم أو جهاد
وملطرون يسهر وهو عدل — وتمسكوا بقراه بلا تمادى
ومقترفو فراح قات درسى — وقد اقترحو سقاية كل حادى
ولاح لسان باريس كشمس — بقاهرة المعز على عمادى
ومحيى مصر احيا كان قدرى — وكافأنى على قدر اجتهادى
سأشكر فضله مادمت حيا — وماشكرى لدى تلك الايادى
سقى الحنان عهد زمان مصر — وامطر ربعها صوب العهاد

وصلت بصفقة العنون عنها — رفعلى فى سواها فى المزاد
ما السودان قط مقام مثلى — ولاسلماوى فيه ولاسعادى
بها ريح السموم يشم منه — زميز لظى فلا يطفيه وادى
عواطفها صباحا ومساء — دواما فى اضطراب واطراد
فلا تعجب اذا طبخوا خليطا — بمخ العظام مع صافى الرماد
وطبخ الدهن فى بدن وشعر — كدهن الابل من جرب القراد
ويضرب بالسياط الزوج حتى — يقال أخو بنات فى الجلاد
ويرتق ما يزوجنه زمانا — ويصعب فتق هذا الانسداد
واكراه الفتاة على بغاء — مع البهى ارتضوه باتحاد
فايحجنه المولد وهو غال — بدرغبات دوما باحتشاد
لهم شغف بتمايم الجوارى — على شبق بجاذبة السفاد
وشرح الحال منه يضيق صدرى — ولا يحصيه طرسى أو مدادى
وضبط القول فالاخيار تزر — وشر الناس منتشر الجراد
ولولا البيض من عرب لكانوا — سوادا فى سواد فى سواد
وحسبى قلبها بنصيب صحبى — كان وظيفتى عبسى الحداد
وقد فارقت اطفالا صغارا — بطهطا دون عودى واعتيادى
افكر فيهم سرا وجهرا — ولا سمرى يطيب ولا رقادى
وعادت بهجتى بالنأى عنهم — بلوعة مهجة ذات اتقاد
اريد وصالهم والدهر يأبى — مواصلتى ويطمع فى عنادى
وطالت مدة التقريب عنهم — ولاغنم لدى سوى الكساد
وماخلت العزيز يريد ذلى — ولا يصغى لاخصام لداد
لديه سعوا بلذية حداد — فكيف صغى لالسنة حداد
هازيل الفضائل خادعونى — وهل فى حربهم يكبو اجوادى
وزخرف قولهم إذ موهوه — على تزيينه نادى المنادى

فهل من صبر في المعنى بصير صحيح الانتقاء والانتقادى
قياس مدارس قالوا غنهم بمصر فما النتيجة فى بعادى
وكان البحر منهج سفن غرضى فكدت الان اعرف فى التماد
ثلاث سنين بالخرطوم مرت بدون مدارس طبق المراد
وكيف مدارس الخرطوم ترجى هنالك ودونها خرط القتاد
نعم ترجى المصانع وهى أحرى لتأييد المقاصد بالمبادىء
علوم الشرع قائمة لديهم لمرغوب المعاش أو المعاد
خدمت بموطنى زمنا طويلا ولى وصف الوفاء والاعتياد
فكنت بمنحة الاكرام اولى بعقد للتعيش مستفاد
وغاية مطلبى عودى لاهلى ولو من دون راحلة وزاد ..
وصبرى ضاع منذ اشتد خطبى وهون الخطب عند الاشتداد
وكم حسنا دعوت لحين حالى وكم نادى فؤادى يا فؤادى
وارجو صدر مصر لشرح صدرى وجهد الطول فى طول النجاد
وكم بشرت ان عزيز مصر تفدوه بالفكاك ولم يفاد
وحاشا ان اقول مقال غيرى وذلك ضد سرى واعتقادى
لقد اسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادى
وفى دار العزازة لى عياذ يقينى نشب اظفار العوادى
أمير كبار أرباب المعالى فتى فى سرعة العرفان هادى
عروف المعنى لايبارك بمضمار العلا طلق الجياد
بواخر فضله الركبان سارت وغنى باسمه حاد وشاد
وقال فى معارفه فريد فقلت وفى الرياسة وفى انفراد
وفى الاحكام قالوا لايضاهى فقلت وذو تحرر واجتهاد
وقالوا وفى الذكاء ذكا فقلنا وراقت ذهنه وارى الزناد
وقالوا وافق الحسن المثنى فقلت وكم حدا بالوصف نقاد
وبحر حجاه يبدو منه در لغواص العلوم بلا نفاد

فيا حسن العقال اغث اسيرا بسجن ازنبح يحى ذا القياد
عليه دوائر الاسوار دارت وطالت وفق اهواء الاعادى
وقد فوضت للمولى أمورى وزاعين الاصابة والسداد
عسى للمولى يقول امضوا بعبدى فيقضى لى بتقريب ابتعادى
ومانظم القريض برأس مالى ولاسترى اراه ولا سنادى
ووافر بحره ان جاد يوما فممدوحى له وصف الجواد
وليس لبكر فكرى من صداق سوى تلطيف عودى بلابلادى
فما يسمى ذراها من بيوت وزان فى حماستها شداد
ومسك ختامها صلوات ربى قام طه المشفع فى المعاد
وآل والصحابة كل وقت مواصلة إلى يوم التناد

هذه شكوى رجل كان يعد نفسه من رجال الفكر ، هيء نفسه لخدمة مصر فاذا به يقذف بعيداً عنها لايستطيع ان يعطى معرفته وعلمه حيث كان عليه ان يبدأ مع كليته فى أول سنين الدراسة ، وهو الذى عاد من فرنسا ليجاهد فى الفكر ويفتح العقول المستعده بالعلم لتقبل فكره وعلمه لاتعليم الطلبه الكتابة والقراءة .

. . . . . .

القرن التاسع عشر

تأثير حملة نابليون عام ١٧٩٨ م على مصر لم يكن فاتحة خير لبعثة الحركة الثقافية والعلمية فى مصر وحدها بل كان فاتحة خير للسودان ولبقية الدول العربية وعلى الثقافة العربية .

لقد ظل شمال النيل مرتبطا بجنوبه كل ماينعكس عليه يصل تياره إلى الجنوب والى سكان السودان حتى لو بعد حين . فقد كانت حملة نابليون رغم الخسائر المادية والبشرية التى تعرضت لها مصر والقاهرة خاصة إلا أن القليل الذى خلفته هذه الحملة كان شعلة جديدة وقبساً طيبا لذلك السراج العربى القديم الذى خبت ذبالته لعده قرون منذ ذهاب الدولة الفاطمية وتدهور الحياة السياسية والفكرية واضطراب الامور ليس فى مصر وحدها بل فى جميع بلدان الشرق الأوسط . ومما زاد ركود الحياة عامه فى البلاد العربية إمتداد يد الظلام على يد الحكم التركى العثمانى لخنق كل يد غلافة وكل فكر ثاقب وليحرم أبناء البلدان العربية كل فرص النمو والمشاركة إذا استورد كل حكامه المجرمين من تركيا لانزال العقاب والذل بكل من تسول له نفسه بالتمرد والاحتجاج ....

وعاش الاتراك فسادا وقسوة فى البلاد العربية واخذوا كل شىء ولم يعطوا أى روح أى امل للعمل والنهوض ... ووقفوا امام كل شىء علمى وامام كل عقلى حتى انتهت الحياة العلمية والفكرية ، عاد الناس لايقربون العلوم لايتبادلون فيها ولايعترفون منها الأخفية . . . كانت هذه الحياة العامة فى البلاد العربية اما فى السودان قبل هذه الحملة فقد وصلت الحياه السياسية إلى أسوأ حالات التمزق واستنفت الحكم السنارى كل مقومات الحكم اذ لم يطور الحياة انما قبع

فى كراسى الحكم يسيطر على التجارة والقوفل التجارية وجباية الضرائب وعاش البيت السنارى لنفسه ولم يعيش لمملكته ... فلم يخطر ببال ملك من ملوكهم حتى العظام كالشيخ عجيب فى تحسين حال البلد او تطوير نظام الحكم والاستفادة بخبرات الشعوب الاخرى .....

عاش البيت السنارى مقفولا على نفسه لا يفتح الباب الا للذين له مصلحة فيهم أو الذين يرغب فى التعرف اليهم .

لا يعنى ذلك انه كان ذكيا انما يعنى انه كان يفهم الحكم على انه وراثة ولا يوجد فى البلاد من يتطاول على هذا الحق . . نعم لم يفكر أهل البلاد فى شأن هذه الوراثة لان الحكم لم يكن له تأثير كبير على حياتهم ولان الحياة العامة نفسها لم تتعرض لهزات كبيرة حتى تدخل الدولة وتفرض سلطانها وهيبتها ... فالشيخ أو الزعيم هو الذى يعرف السلاطين والحكام لارتباطه بهم .. اما القرية والمجموعات الصغيرة فلم تتأثر بهذا الممثل لانه من قديم ولم يتغير فيه شىء الحق الذى يأخذه منه ومن أجدادهم فى القدم زاد بشىء بسيط ليدفع الضرائب التى عليه السلطان . . ومشاكل القرية محلولة ومشاكل القبيلة محلولة بين المجموعة.. ولم يعتاد الناس ان يخرجوا من هذا النطاق الصغير لعرض مشاكلهم على نطاق اوسع . فنفس الأسلوب الذى كان متبعا قبل السلطنة السنارية ظل ساريا بعد ثلاثة قرون من قيامها لم تتغير فى وجه المجتمع شىء فان كان هنالك تطور ظهر على المجموعات من الناحية الثقافية والعلمية فهو تطور طبيعى تقتضيه سنة التطور وليس للسلطنة السنارية فيه اى يد .

دولة لانت لها كل القبائل والعشائر وسلمت لها طواعية فلم تخشى استلام

هذا القيد ولم تحاول ان تطور حياة هذه المجموعات التى وكلت اليها أمرها وشئونها . . . بل اطمأنت إلى هذا الاطمئنان الذى أعطى لها وعاشت فى فلك العادات الملكية والصراع الطبيعى الذى يدور فى اسرة حاكمة . . . . فالاسر الحاكمة تخاف لنفسها من المشاكل لو تفرغت اليه مايشغلها عن كل هموم الدنيا ودسائس الاعداء وتغييرات الحياة . . هكذا عاشت السلطنة السنارية دولة منفرلة على نفسها لم يكن لها مجلس يخطط ولم تكن لها دووابن لجميع أوجه النشاط الانسانى بل ربما فكرت فيه وحجمت عن أى نشاط خوفا من الخسارة المادية .

بل كانت لها الرئاسات الكبيرة لشئون المال والعساكر وهو أمر ضروى وحيوى وبدائى جدا فى اى مجموعات نشات هاتين الوظيفتين وظهورهما لا يعنى تطور الحكم السنارى .

لو تبعنا حياة هذه السلطنة منذ القرن السادس عشر الميلادى حتى نهاية القرن الثامن عشر الذى تطور هذه المملكة من الداخل والخارج .

كان يمكن ان تكون هـــذه السلطنة وسلطنة دارفور من أعظم الممالك الاسلامية لانتقلت الامكانيات العلمية فى البلدان العربية التى تهدمت فيها أسس العمران والاستقرار . . .

فقد عاشت البلدان العربية الاسلامية فى حالة من الفوضى وقف كل شىء عن التقدم ووقف العلماء فى حيرة من امرهم فالاحسان الذى كان يأتيه من القصور وقف عنهم بل انشغل عنهم بمشاكل فوق قدرة القصور والقائمين عليها . وفى مثل هذه الحالات يهرب رجال العلم والفكر للأراضى الجديدة التى يشع

منها الاستقرار ويمجد فيها رجال العلم والفكر كان بالبلدان العربية حركة علمية طيبة رغم ذلك الاضطراب ولكنها كانت تبحث عن مأوى يجمع شملها وكان العلماء وهم أكثر الناس ابتعادا عن حياة المعارك والقتال إلى حياة العلم والدروس والتقدير والاحترام ... كانت تلك الحركة العلمية التي تمسكت باهداب بعض الرجاء في جاحة إلى منقذ وهي كالغريق تتقاذفها الامواج ... وطال بها الانتظار ... وبلعها يم الحياة وغرقت تلك الامكانيات العلمية ... فان كان لحكام المملكة أي السلطنة السنارية تلك اليد الممدودة وتلك الدعوة المسموعة وذلك التكريم الذي يسرى مع الريح يجلب الى سنار كل رجال العلم والفكر ... والرجال الذين اتوا لسنار وبعثوا الحياة العلمية في ارجاء السودان ووضعوا اللبنة الأولى للحركة العلمية والاسلامية كالشيخ القصير راجل العرب والشيخ تاج الدين البهاري وابراهيم البولاد واخوانه أولاد جابر .

الحركة العلمية والثقافية والاسلامية التي ظهرت في السودان لم يكن للسلطنة السنارية فيها أي مجهود بل كان ذلك المجهود الضئيل هو مجهود افراد .. وما يؤيد هذا الرأي إن كل العلماء الاجانب الذين جاءوا للسودان من رجال السودية أو من رجال العلم سكنوا بعيدا عن سنار .. وكل الحركات العلمية وكل الرجال الذين اشتهروا في هذا الميدان بعيداً عن سنار فإن كان لسنار أي فضل أو كانت يدها مبسوطة لدعاة العلم تدعوه وتكرمهم لكانت خلقت حركة ثقافية ولكانت جمعت كل أشتات الفكر العربي واحتضنته وبعثته من جديد الا ان اهتماماتها لم تصل إلى هذا الحد الذي وصلت اليه بغداد وحلب والقاهرة والاندلس ... لقد وصلت لذلك المستوى مع تلك الظروف المهيئة للنمو والتطور خلال ثلاثة قرون لكان السودان اليوم شيئا آخر .. فهى لهم تقدم

للعلم أى خدمة ولم تهتم به . . وان كان لها اهتمامها بالزائرين من رجال العلم والصوفية فهو اهتمام السودانى الكريم الذى لايتخل عن ضيفه . .

فلو بحثنا عن رجال العلم والاماكن التى استقروا فيها منذ القرن السادس عشر لوجدناهم بعيدو عن سنار وربما بعيداً عن نفوذ سنار بل اختاروا جانب العبدلاب فى شمال النيل .

فعند الشايقين استقروا أولاد جابر وعون الله وعند الدناقلة تلامذتهم سكنوا بعيداً عن فرى وعن سنار والسمانية سكنوا فى طيبة قرب السروراب وأرض الجزيرة كانت مأوى لكثير من هؤلاء العلماء منها شندى وبربر والحلفاية وتونى واريجى والميتمة وسنار وكردفان .

فاذا بحثنا فى النظام الادارى لسلطنة سنار فلا نجد أى تحسين أدخلته على نظامها منذ انشاءها حتى سقوطها بل ظلت تطبق نظاما اداريا قبليا لم تعدل فيه ولم تطوره حتى وصل الينا بكل مساوءه وخيراته . . واذا نظرنا فى نظامها الاقتصادى فلم تحاول ان تطوره بل جعلت التجارة وهى تجارة القوافل الكبيرة وتركوا لبعض المغامرين بعض الفرص للتعرض لحياة القوافل التجارية بالحراسة ولم يقوموا بانشاء الابار ونقط الحراسة من قطاع الطرق الذين كانوا يشكلون خطرا كبيرا على التجارة وقصة (الرباط) الرباطابى المقيم فى القرن الثامن عشر وما كان يفعله بالقوافل التجارية الداخلة على بربر والخارجة منها ببعيد ولم تستطيع اى السلطة الحاكمة ان تنتدب اليه وكان الامر لا يعنيها وحوادث قطاعى الطرق وانتشارهم وازدياد هذا النوع من التكسب يكشف

عن ضعف هذه الادارة حتى انتشر هذا النوع من العمل وجذب اليه الكثيرين وأصبح لقطاع الطرق وزن كبير فى الحياة العامة .. واحتلوا مكانة كبيرة فى الادب .. الشعبي والغنائي ...

أما فى الزراعة فلم يحاولوا أن يطوروا أسلوب الزراعة المطرية ولا أساليب نقل الماء من النيل وظلت كل أشكال الحياة العامة كما هى وانشغلوا بما يهم الملوك وهى حياة القصور والوراثة والملكية حتى انتهوا على أيدى الهمج ..

ربما يظن أن لمملكة سنار يد كبيرة فى تطور الثقافة أو العلم أو الادارة . فالحياة العامة منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادى إلى نهاية القرن الثامن عشر لم تتطور فى السودان تطورا ملموسا وان كان هنالك أى تقدم أو تطور هو تطور طبيعى يحدث لكل المجموعات البشرية حينما لاتجد عوائق لهذا التطور والحسنة التى أتت بها سلطنة سنار إنها أوحت بالنظام وأوقفت القتال بين القبائل ومحاولة تسلط بعضها على الآخر .. وأتاحت الفرصة للحياة العامة أن تنمو نموها الطبيعى ومهدت للثقافة العربية أن تنتشر ببطء وللتعاليم الاسلامية أن تتصالح مع المعتقدات القديمة وثنية كانت أو مسيحية ولكنها من جانبها لم تحاول أن تنشر الثقافة العربية أو التعاليم الاسلامية إنما كل ماحدث كان من نشاط الأفراد والمجموعات وحاجة الناس لهذه العلوم ولمعرفة تعاليم دينهم الذى كانوا لايعرفون عنه شيئا حين قامت هذه السلطنة وكما جاء فى مخطوطه ود ضيف الله وكاتب الشونة عن الحياة العامة قبل السلطنة السنارية أن الرجل كان يطلق المرأة ويتزوجها غيره فى نفس اليوم دون تتمة

العدة . . . وهذا الجهل بتعاليم الدين لم يجد التخطيط السليم لمحوه بل ظل حتى ظهور المهدى ومطالبته بتطبيق الشريعة التى كان يجهلها معظم الناس حتى ضج ذلك الشايقى من تعاليم الاسلام ودعوة المهدى فصاح قائلا :

لا مريسى ولا طنيبير ولا تنباك ولا سنجير

ودهكله من مهديك الكبير وعقرباً تطقك ياحمد الخير

فشلت السلطنة السنارية فى أن تخلق جهازاً إداريا وأن تنهض بالحياة العامه السودانية واستعانت بقبائل تفلى لمساندتها على حفظ العرش من الداخل ومن المؤامرات الداخلية التى تحاك عادة فى القصور وبين الأسر الحاكمة الكبيرة القديمة حتى مهدوا لهؤلاء الجند فى مملكة تقلى أن يستولوا على زمام الحكم وأن يبعدوا أهل البيت عنه .

وان كانت حياة السودان العامة فى ظل السلطنة السنارية على هذا الوضع فاهل السودان كانوا فى أحسن حال إذ ماقورنوا ببقية الدول العربية التى سقطت تحت نفوذ حكم المملكة العثمانية .. . فقد ترك سلاطين سنار للناس أن يطوروا حياتهم ولم يقفوا ضد هذا التطور ولكن ماحدث لبقية البلدان العربية أن المملكة العثمانية التركية وقفت أمام تطور هذه البلدان .. .وقفت أمام التطور الطبيعى ولم تقدم أى يد لرفع الحياة العامة بل خنقت كل محاولة للحركة حتى شلت كل شىء لينام الشرق فى سبات عميق من أول القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى ودخل نابليون الاسكندرية ومعه علماؤه ومفكريه

ليخططوا له مملكة جديدة وليحتفظ بطرق الهند الذى كانت تسلكه البضائع البريطانية .

وربما لو لم يأت نابليون ومعه ذلك العدد الهائل من العلماء والمفكرين الذين تأخروا بمصر لما حدث هذا التطور ولما افادوا الحياة ولما لفتوا نظر المصريين بأن هنالك عالم غير عالمهم وان هنالك علم غير علم الازهر وان بقايا التراث التى خلفتها الشعوب العربية لاتساوى شيئا بالنسبة لافكار جان جاك روسو وفولتير وغيرهم من المفكرين الغربيين .. وربما لولا حضارة مصر القديمة التى أغرت العلماء بالبقاء بالقرب منها ومحاولة تقبلها والبحث عن معانيها حتى توصل شامبليون إلى معرفة الخط الهيروغليفى ما استفاد الشرق تلك الفائده بقدر علاقته بركب العلوم الانسانية .

كان ذلك الجزء من حملة نابليون الذى ضم العلماء هو الخير فى تلك الحملة ، فتح باب الحياة الجديدة لأبناء مصر ... وتساعد الظروف مصر بان يحكمها ملك له طموح وله افكار وله تطلع بعيد وفى نفسه تمرد على السلطنة العثمانية وهو ابنها محمد على باشا .

كان محمد على طموحا وفهمه للحكم متطور وكانت افكاره .. لخلق مملكة خاصة به جعلته يبحث عن امكانياته المحلية فى الادارة والمال وخلافه .. فوجد الفرصة فى فرنسا التى كسرت القيد الملكى وبذرت بذور الجمهورية على الممالك القديمه وانتشرت فيها العلوم فارسل اليها أبناء مصر الذين يثق فيهم لتلقى العلم والنهوض بالحياه المصريه فى جميع مجالاتها حيه حضورهم .. كان يخطط لكل

شيء رأى امكانيات مصر لا تفي بأحلامه . . سمع عن الذهب في السودان . . .
فالتفت نحو السودان . . . للاستفادة من ذهبه ورجاله . . .

وسأل عن السودان فعرف ان به ممالك هرمة .. في الشمال مشيخة الشايقية التي تمردت على العبدلاب ثم مشيخة العبدلاب . . . والسلطان غر . ثم بقايا مملكة سنار التي استولى عليها الهمج وسلطنة دارفور في غرب السودان . . أرض واسعة وخيرات كثيرة وقبائل متفرقة . . . امكانياتها متخلفة . والذهب كما قيل له كثير لا يحد وجرد جيشه عام ١٨٢٠ بقيادة ابنه اسماعيل وسار الجيش ولم يجد عقبة في طريقه حتى أرض الشايقية الذين رفضوا الخضوع للجيش المزود بالبنادق والمدافع حتى عقد اسماعيل معهم صلحا وخدعهم وضمهم إلى جيشه وسار الجيش وتم له فتح السودان وكان الجيش يستعين بأهل البلاد والقبائل المختلفة لقتال القبائل الأخرى ....

كان دخول جيوش محمد علي للسودان له مزايا عدة وربما لو لم يتقدم محمد علي وهم ايجاد الذهب لما تطور السودان وحدث له ما حدث لمصر بدخول نابليون وعلماءه . . .

فعل محمد علي مثلما فعل نابليون في مصر بل ربما استفاد من فكرة نابليون...
وحين أرسل جنوده إلى السودان أرسل معهم بعض العلماء من الأزهر وبعض رجال الصوفية حتى يؤثروا في الناس وما تطلبه الظروف ليخدموا الامن ثم يستعين بهم بعد ذلك في ادارة مملكته الجديدة ...

كانت الادارة في مصر في عهد محمد علي هي ادارة حكومية منظمة لها دواوين

حكومية بكل فرع من فروع الادارة والعمران . اما فى السودان فلم تكن قد وضعت هذه اللبنة بعد ... ودخل جيش محمد على السودان وهو يحمل خطة لحكم البلاد على أسلوب حديث وخلق إدارة جديدة تقوم على نظم حديثة ومتطورة بالنسبة للادارة المحلية التى كانت سائدة ....

كان لدخول محمد على السودان ميزتان — أولهما توحيد ممالكه الصغيرة السلطنه السنارية — داوفور والشايقية فى دولة واحده هى السودان ثم كانت الميزة الثانية وهى ادخال الاداره الحديثة فى السودان وما يتبع ذلك الادارة من أساليب التطور والتقدم والعلوم .

كما قلنا أرسل محمد على ابنه اسماعيل لارض الذهب فمات اسماعيل محترقا بين نيران الحطب والقصب على ايدى الملك مساعد وشقيق الملك نمر . . . مات اسماعيل وكان صهره قد تم فتح داروور فعاد ليجد رماد الجسد ورماد الحطب فاشعل النار من جديد وشفى الرماد بالدماء ظنا منه ان الدم المسفوك يمكن أن يحيى الدم المحترق ... وطارد الملك نمر واحوه وقبليته ولم يشفى غليله تلك الدماء التى اراقها من اجل اسماعيل ....

حزن محمد على لوفاة اسماعيل ولكنه كرجل حرب ورأس دولة لم تثنه هذه الوفاة عن حلم الذهب — فبحث عن المعدنين وارسل الخبراء لأراضى الذهب وعادت البعث وتقاريرها لاتشجع باستخراج الذهب . . فالنسبة التى عثروا عليها قليله ولاتكفى تكاليفها . . . . ولم يصدق محمد على . . كل أحلامه التى وضعها فى السودان ونسى موت ابنه من أجلها تضيع بكلمات

الخبراء ... الذهب موجود فى السودان هذا اعتقاده ... الذهب موجود فى السودان . .

وفى عام ١٨٣٨ م بعد ان فشلت كل جهود حكامه فى ارسال الذهب اليه ساوره الشك وفضل الذهاب إلى السودان بنفسه وهو يرى كل امكانياته المادية لا الحربية التى ارسلها إلى السودان لتأتى له بفائدة ليقوى دولته واسطوله وليستطيع ان يقف على دول أوربا وانجلترا ويجعل له اسطولا قويا يمنع سفن القرصان من الاقتراب من شاطئه وبحره . . ولكن المال الذى كان عنده ضاع والامل الذى كان يرجو منه أن يسنده لرفع مستوى اسطوله باحضار الذهب من السودان ولى ...

ولم يثق بتقارير الخبراء والفنيين . . . واعد رحلته الشهيرة افازوغلى والخرطوم واخذ معه الخبراء والفنيين . . وذهب إلى ارض الذهب وجلس بقرب الخيام ينظر إلى تراب الذهب ويسأل اهل البلاد عن الذهب التى يتحدث الناس عنه والخبراء يقولون له ان نسبة الذهب هنا ضئيلة جداً . . .

ويعرضون عليه العينات وهو يراقب الحفر والتنقيب والتصفية ولكن الذهب كذب وضاع الحلم الكبير الذى كان يحلم به محمد على فى استغلال ذهب السودان فى تطوير جيشه واسطوله ومملكته وليقف قويا امام الدول الاوربية والانجليزية . .

الحكم التركى فى السودان :

(من ١٨٢١ — ٢٥٧١ تحت سلطة الدفتردار اسماعيل

(١) الاميرلاى عثمان بك (١٨٢٥ - ١٨٢٦)

كان ظالما وحكم البلاد فى أوج اضطرابها راعتمد على خيرات البلاد التى دمرتها الحروب .. اشتهر حكمه بالظلم والفساد والاعتماد ولانه على سلب حق الناس وذلك لاضطراب الأحوال العامة وعدم استطاعة الادارة الجديدة من ابقاء كل مطالب الادارة . . . . . . وشحت امكانيات البلاد من جراء الحرب فعاش الناس فى خوف وجوع ... توفى بالسل فى ابريل ١٨٢٦

محو بك ١٨٢٦ .

لم يدم كثيرا .. أول ماذكر فيـــه هو اشراك أهل البلاد فى الحكم ليستعين بهم فى حفظ الامن وكسب ثقتهم — عين الشيخ عبد القادر والذى كان شيخ خط . . . فقلده شياخة فى الكوع ومنحه كسوة فاخرة . . . ثم شيد بناية خاصة للاداره الحكومية فى الخرطوم ..

خورشيد باشا (١٨٢٦ — ١٨٣٩)

من الحكام المحنكين الذين أرسوا قواعد الادارة والنظام فى البلاد اتبع نظام الاستفادة بخبرات أهل البلد واستعان بالشيخ عبدالقادر فى تعديل الضرائب .. وقلده مشيخة البلاد من حجر العسل إلى جبال الفرتي وخلع عليه كسوة فاخرة وسيفا .

انتقد الظلم الذى سبقه وكشف العيوب التى جاء الحكام الجدد يكتبونها

تقرير لمحمد على وعلى بالاسلوب الحديث على تطوير الزراعة وايجاد الامن والاستقرار بين أهالى البلاد ..

وخطط لنشر التعليم والصناعة بالسودان ... عمده مدينة الخرطوم فى عهده .. وأدخل بناء المنازل من الطوب وزار محمد على السودان فى عهدة . . . وكذلك فى الحياة العامة .

أحمد باشا أبو ودان ١٨٣٢ — ١٨٤٢ م

وجد سلفه خورشيد باشا قد خطط له الحياة والادارة فسار على خطاه وطور الادارة ونظم الدواوين وشجع الملاحة وبناء السفن ضم بعد الاقاليم إلى السودان كاقليم التاكا فى سنة ١٨٤٠ ووسعت الفتوحات المصرية فى السودان الشرقى واخضع الحدلانقة عند نهر القاش وتمردت عليه قبائل الهدندوة .. قبيلة المحاربين الاقوياء المهابين وجمعت فرسانها وشمال كسلا فى غياتى وهيباى والكليتاب . . الا انه استطاع بفكره أن يتغلب عليه . . اذ فكر فى منع ماء القاش عن الغابة التى يجتمعون بهـــا فعطشوا ثم أشعل النار فى الغابه فذعروا وخرجوا حتى خضعوا له بعد أن انسحب شيخهم . .

بعد أن فتح شرق السودان وعاد للخرطوم وولى على كسلا مدير قسم السودان إلى سبع مديريات :

(١) فازوغلى (٢) سنار (٣) الخرطوم (٤) كسلا (٥) بربر

(٦) دنقلة (٧) كردفان

أحمد باشا المنكلى (١٨٤٤ — ١٨٤٥)

فى عهده عادت قبائل الباكا للتمرد من جديد فاستعان بشيوخ القبائل وكبار القوم منهم الأرباب محمد دفع الله والشيخ عبد القادر الذين والشيخ أبو او محمد كبير الشاكرين

عبد اللطيف باشا (١٨٥٠ — ١٨٥١)

عمل على صلاح الادارة فى فترة الركود التى حلت بسلفه خالد باشا فأزال المظالم . . . وجدد ديوان الحكومة وحضر فى عهده رفاعة رافع الطهطاوى لينشيء فرع مدرسة الألسن (المدرسة الاميرية ومعه بيومى بك . . .

وصل الشيخ عبـــد القادر إلى أعلى منصب سودانى وهو وظيفة معاون الحكمدارية مع مشيخه عموم الجزيرة

على باشا شركس (١٨٥٥ — ١٨٥٧)

عمم البلاد فى عهده مرض (الهواء الاصفر) ومات خلق كثير منهم الشيخ عبد القادر شيخ مشايخ الخرطوم وسنار . . خلفه إبنه الزين الذى ذهب إلى مصر معين معاونا فى نظارة الداخلية . . . .

زار سعيد باشا السودان . . . . ثم عين اراكيل بك نوبار حاكما للسودان (١٨٥٨ — ١٩٥٩)

ثم حكم بعده حسن بك سلامة ثم محمد بك اغاية عام ١٨٦٢ م ثم موسى باشا حماد لغاية ١٨٦٥ ثم خلفه جعفر بك صادق ليخلفه فى نفس العام جعفر باشا مظهر ثم ممتاز باشا إلى عام ١٨٧١ ثم اسماعيل باشا إيو الى إن استلم منه غردون عام ١٨٧٧ ثم محمد مروق باشا فى عام ١٨٨٠ حتى عام ١٨٨٢ وثم جاء بعده عبد القادر باشا فى مايو ١٨٨٢ حكمدار

ماذا خلف الحكم التركى

يصعب علينا أن نتباكى الآن على الفوضى التركية التى عمت السودان فى القرن التاسع عشر وأدخلته فى ثلاثة حروب اشتركت فيها كل القبائل. ن تعرضت للبطش التركى القاسى مباشرة حتى خضعت وسخرت لاخضاع بقية القبائل لاشتراك القبائل مع بعضها لاسكات الفتن الداخلية بعد الثورة المهدية ثم عودة الحملة على الثورة المهدية وإعادة فتح السودان من جديد .

حملة إسماعيل باشا

كانت حملة إسماعيل باشا لفتح السودان وتوحيده على حساب إستقرار القبائل والافراد وإدخال الفوضى بمحاولة هذه الحملة التركية لارغام الناس للخضوع والخنوع الذى لم يتعودوه

إطلاق يد الظ مين من الباشيبورق لجبى الضرائب وحفظ النظام أوقع الضرر فى يد شين مجرم قاسى لايعرف الرحمة ولا الكرم

كانت عملية توحيد الممالك الثلاثه وإخضاع أمرا فيه مشقة على الجيش الغازى إذ عليه أن يحارب ثلاث دويلات هى الشايقية وسنار والعبدلاب ودارفور الأمر الذى عرض جميع السكان لبطش هؤلاء الغزاة ففقدوا فيه الكثير من خيرتهم ورجالهم وإستقرارهم ومحاولة تسخيرهم للعمل بالجيش للمساعدة فى فتح الأقاليم الأخرى فيه من الاذلال أكبر وأعظم فقد إستغل الشايقية لضرب الجعليين واستغل الاثنين لضرب سنار ودارفور وحيث لم تستسلم هذه الدويلات والقبائل لهذا الغازى باسم الاسلام إذا كان منقطعها فى المقاومة لايحق لمسلم أن يقتلوا مسلما

لإرسال عدد عظيماً من أبناء السودان للتجنيد فى جيش الخديوى [illegible] الأبقار والجمال [illegible] ميزانية الخديوى فى تحقيق أحلامه [illegible] يحفظ النظام داخل مصر ويساعده على الفتوحات خارجها الأمر الذى قلل من الايدى المنتجة من الرجال الشباب وكذلك ذهاب كثير من خيراته لجيش الخديوى ولمندوبيه الذى فرضوا عيشهم بالقوة على الأفراد مستغلين طرق الاذلال والبطش وحتى أدخلوا الكراهية بكل [illegible] ضد الحكم التركى وفى إشعار تلك الفترة مايكشف غضب الناس وضيقهم بالحكم التركى

الثورة المهدية

إلتف الناس حول المهدى وهم كارهين لحالهم وحال الحكم التركى فالناس فى هذا الشعب الخلاص والراحة ولكن كيف الخلاص من هذا الناسى العنيد

الا بقـوة أكبر ووحدة أكبر وكان مالا مفر منه وهو الاحتكام للحرب والتمرد أملين بهذه الثورة الخلاص من ذلك الكابوس إلا أن الحرب إستمرت وشملت البلاد جميعها واشتركت كل القبائل فيها حتى كان النصر للمهدى وانصاره وقبائل السودان . وظن الناس بانتصر المهدى يعنى الراحة والاطمئنان والاستقرار والعودة للحياه الطبيعية بعد هذا التشرد والتغرب عن الديار وفقدان الأهل والارض والاقارب ولكن المهدى لا ينتظر ليحقق لهم أمانيه إلا ان تعرض بعد أن استولى على الخرطوم عام ١٨٨٥ م واستمرت حركة الثورة المهدية من عام ١٨٨٢ إلى ١٨٩٧ م فى ثلاثة حروب الأول لاجلال الاتراك والانجليز من السودان والثانية لتأديب القبائل الخارجة على طاعة عبد الله التعايشى ثم محاولة عبد الله التعايشى لغـــزو مصر وعودة الجيش المصر الانجليزى لفتح السودان مرة أخرى ثم عوده الانجليز وجيش الخديوى لاعادة النظام وتأديب المتمردين حتى عام ١٩١٦ بالقضاء على ثورة على دينار

هذه هى مظاهر السياسة للقرن التاسع عشر وما خلفته من فقر وإرهاق لإمكانيات البلاد والناس ولعدد الضحايا الهائل الذى راح من أجل هذه المعارك حتى يبدوا للناظر أن هذا القرن كان قرن الظلم والتخلف بالنسبة للشعب السودانى ولكن رغم هذا المظهر الخارجى للكبت والتنكيل إلا أن هنالك قوة أخرى كانت تنمو وهى قوة العقل وذلك باتساع مدارك الفرد العادى واهتمامه بأمور عديدة ورؤية شعوب جديدة واحتكاكه بالنظم جديدة استفاد منها رغم هذا المظهر الخارجى الأسود للقرن التاسع عشر . .

القرن التاسع عشر وعطاءه

رغم ماتعرضت له الديولات السودانية المبعثرة على مساحاته الشاسعة من تخريبة وما عانته القبائل من بطش إلا أن هذا القرن كان مفيدا فى توحيد تلك الديولات فى دولة واحدة وتوحيد كل تلك القبائل فى قومية واحدة هى السودان الحديث .

إستقرار السودان فى الادارة الحديثة المطورة نسبية عن إدارة الشايقية ودارفور وسنار وعرف نظام الإدارات الحديثة .

الازهر فى هذا القرن

كان للازهر أثر كبير على المعرفة فى السودان فى هذا القرن وفيه أنشئت الاروقة السودانية ولطلاب العلم وضمان عيشهم والاعتناء بهم فى عهد بدأ فيه الأزهر يتفتح فى جديد للمعارف العقليه ويشتد نشاطه .

وأول ما وصل إلى السودان من خير الأزهر العلماء والقضاه الذى أوسلهم محمد على باشا إلى السودان من خير الأزهر والذين كان لهم أثر كبير فى نشر الثقافة الدينية فى البلاد وخلف علاقات عامة واسعة ولم تكن الخرطوم فى ذلك الحين البلد الطيب ذا المدابح التى تسر فهى مدينة جديدة انشاتها الادارة التركية لم يظهر عليها علامات التحضر والمدنية

غير مدينة للجند والذين يخدمونهم وترتبط معيشتهم بوجود هؤلاء الجند والمستخدمين المدنيين الذين يعملون فى دواوين الدولة الجديدة .

رغم أن الخرطوم كانت قرية قديمة قبل الفتح التركى يسكنها بعض المزارعين إلا انها لم تكن ذات أهمية تذكر قبل القرن التاسع عشر وخاصة بعد أن تحطمت حضارة سوبه على أيدى قبائل الشلكك

. . . . . .

بهنس

معجم البلدان

(أهناس) بالفتح اسم لموضعين بمصر أحدهما اسم كورة فى الصعيد الأدنى يقال لقصبها اهناس المدينة وأضيفت نواحيها إلى كورة البهنسا .. وأهناس هذه قديمة اذلية وقد قرب أكثرها وهى على غرب النيل ليست ببعيدة من الفسطاط وذكر بعضهم أن المسيح عليه السلام ولد فى أهناس ذات النخلة المذكورة فى القرآن المجيد (وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا) موجوده هناك وان مريم عليها السلام أقامت بها إلى أن نشأ المسيح عليه السلام وسارا إلى الشام وبها ثمار وزيتون . وإليها ينسب دحية بن مصعب بن الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم خرج منها على السلطان وقصد الواح وغيرها ثم قتل سنة ١٦٩ ﻫ . واهناس الصغرى فى كورة البهنسا أيضا قرية كبيرة .

بهنسا : بفتحتين وسكون السين ونون والف قلعة حصينة عجيبة بغرب مرعش وسيمساط وبرستاقها هورستاق كيسوم مدينة نصر بن شبث الخارج فى ايام المأمون وقتله عبد الله بن طاهر وهو على سن جبل عال وهى اليوم من اعمال حلب .

البهنسا : بالفتح ثم السكون وسين مهملة مقصور مدينة بمصر الصعيد الأدنى غرب النيـــل وتضاف إليها كورة كبيرة وليست على ضفة النيل

وهى عامر كبيرة كثيرة الدخل وبظاهرها مشهد يزار يزعمون ان المسيح وامه اقاما به سبع سنين .

وبها برابى عجيبة وينسب إليها جماعة من أهل العلم منهم أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن الحسى ابن محمد العطار البهنسى حدث عن يحى بن نصر الخولانى توفى فى شهر ربيع الأول سنة ٣١٤ وأبو الحسن على بن القاسم بن محمد بن عبد الله البهنساوى روى عن بكران سهل الدمياطى وغيره روى عن أبو نصر على بن عبد الله .

. . .

النوبة

وخلفهم أمة يقال لهم علوا بن ملك النوبة وبينهم ثلاثة أشهر وخلفهم أمة أخرى من السودان تدعا تكنة وهم وعلوا عراة لايلبسون ثوبا البتة إنما يمشون عراة وربما سبي بعضهم وحمل إلى بلاد المسلمين فلو قطع الرجل أو المرأة على أن يستتر أو يلبس ثوبا لايقدر على ذلك لمعله إنما يدهنون إبشارهم بالادهان ووعاء الدهن الذى يدهن به قلفته يملأها دهنا ويوكى رأسها بخيط فتعظم حتى تصير كالقارورة فاذا لدغت إحدهم زبابة اخرج من قلفته شيئا من الدهن فإذ دهن به ثم يربطها ويتركها معلقة . وفى بلادهم ينبت الذهب وعندهم يفترق النيل ومن وراء مخرج النيل الظلمة . ونوبه أيضا بلد صغير بأفريقيه بين تونس واقليبيا . ونوبه أيضا موضع على ثلاثه إيام من المدينة له ذكر فى المغازى واقرية إيضا ناحية من بحر تهامة تسمى بالنوبه لانهم سكنوها ونوبه أيضا هضبة حمراء بجزيرة الحوأب فى ارض بنى عبد الله بن ابى بكر بن كلاب وفى حديث عبد الله بن حجر خرجنا من مليحة نوبه ذكره الواقدى .

• • •

النوبة

(نوبة) بضم أوله وسكون ثانية وبذ مدحدة والنوب جماعة من النحل ترعى ثم تنوب إلى وضعها فشبه ذلك بنوبة الناس والرجوع مرة بعد مرة وقيل النوب جمع نائب من النحل والقطعة من النحل تسمى نوبة شبهوها بالنوبة من السودان . وهو فى عدة مواضع . النوبة بلاد واسعة عريضة فى جنوبى مصر وهم نصارى أهل شدة فى العيش إول بلادهم بعد إسوان يجلبون إلى مصر فيباعون بها . وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه صالح النوبه على اربعمائة رأس فى السنة وقد مدحهم النبى ﷺ حيث قال من لم يكن له أخ فليتخذ أخا من النوبة وقال خير سبيكم النوبة . والنوبة نصارى يعاقبه لا يطؤون النساء فى الحيض ويغتسلون من الجنابة ويختتنون . ومدينة النوبة اسما (دمقلة) (دنقله) وهى منزل الملك على ساحل النيل وطول بلادهم مع النيل ثمانون ليله ومن دمقلة إلى إسوان أول عمل مصر مسيرة أربعين ليلة ومن دمقلة إلى اسوان الى الفسطاط خمسة ليال ومن اسوان الى ارض بلاد النوبة خمس ليال وشرقى النوبة امة تدعى البجة ذكروا فى موضعهم وبين النوبة والبجة جبال منيعة شامقة وكانوا اصحاب اوثان وقالوا والنوبة اصحاب ابل ونجائب وبقر وغنم ، ولملكهم خيل عتاق وللعامة براذين ويرمون بالنبل عن القسى العربية وفى بلادهم الحنطة والشعير والذرة ولهم نخل وكروم ومقل واراك وبلادهم أشبه شيء باليمن وعندهم اترنج مفرط العظم وملوكهم يزعمون انهم من حمير ولقب ملكهم (كابيل) وربما (قابيل) ، وكتابته الى عماله وغيرهم من كابيل ملك مقرى ونوبه وخلفهم أمته .

البجاء

(بجاوة) بفتح الواو — قال الزمخشرى بجاوة أرض بالنوبة بها ابل فرهه واليها تنسب الابل البجاوية منسوبة إلى البجاء وهم امم عظيمة بين العرب الحبش والنوبة .

البربر

ذكر هشام بن محمد أن جميع لقة الاصنهاجة وكتامه فانهم بنو افريقس بن قيس بن صفى بن سياه الاصفر كانوا معه لما قدم المغرب وبنى افريقية فلما رجع إلى بلاده تخلفوا عنه عمالا له في تلك البلاد فبقوا إلى الآن وتناسلوا .

أسماء قبائلهم :

هواره - امتاهه - خربسه - مفيله - درجرمه - ولطيه ومطماطه ، وصهاجه - نفزه - كتامة - كوانه - مزاته - ربوحه - نفوسه - لمطه - صيونه - معموده - غماره - مكناسه - قالبه - واريه - اتيته - كوميه - سخود - امكنه - خرزبانه - قطاطه - حيره - براثن - واكلان - قصدران - زرنجى - برغواطه - لواطه - زواوه - كزوله .

بربرة

هذه بلاد أخرى من بلاد الحبش والزنج واليمن على ساحل بحر اليمن وبحر الفرنج وأهلها سودان جداً ولهم لغة برأسها لا يفهمها غيرهم وهم بواد معيشتهم من صيد الوحوش وفي بلادهم وحوش غريبة لا توجد في غيرها منها الزرافة والببر والكركدن والنمر والفيل — وغير ذلك وربما لا توجد في سواحلهم العنبر وهم الذين يقطعون مذاكر بعضهم بعضا . وقد ذكرت ذلك وسنتهم فيه في الزيلع وذكر الحسن بن احمد بن يعقوب الهمذاني اليمنى وقال ومن الجزائر التي تجاور سواحل اليمن وجزيرة بربره وهي قاطعة من سواحل ابين ملتحقة في البحر بعدن من نحو مطلع سهيل إلى ماشرق عنها وفيها حاذى منها عدن وقابله جبل الدخان وهي جزيرة ستقوطرا مما يقطع أن عدن ثابتا على السمت . واما صفة صيدهم حدثني غير واحد ممن دخل بلادهم ان عندهم نوعا من التنين يشبه الخباز يجمعونه ويطبخونه ويستخرجون ماءه ثم يطبخونه حتى ينعقد ويصير كالزفت .

بربرة

هذه بلاد أخرى

المريسة (بفتح اوله وتخفيف الراء وياء ساكنة وسين مهملة — جزيرة فى بلاد النوبة كبيرة يجلب منها الرقيق .

مريسه بالفتح ثم الكسر والتشديد وياء ساكنة وسين مهملة قرية بمصر وبلاية من ناحية الصعيد اليها ينسب الحمر المريسية وهى من أجود الحمير وامشاها.

« والحمار حينما يشرب المريسة لاشك سوف يمشى سريعا حزباً فى التخدير والشبع »

ينسب اليها بشر بن غيات المريس صاحب الكلام مولى يزيد بن الخطاب أخذ الفقه عن أبى يوسف القاضى صاحب أبى حنيفه ثم اشتغل بالكلام .

انشدنى أبو القاسم النحوى الاندلسى الملقب بالعلم لبعض المغاربة يهجو البربر .

رأيت آدم فى نومى فقلت له أبا البرية ان الناس قد حكموا
ان البربر نسل منك قال انا حواء طالقة ان كان ما زعموا

مقرى

(مقرى) بالضم ثم السكون وراء والف مقصوره تكتب ياء لانها رابعة من أقرت الناقة تقرى فهى مقرية والمكان مقرى اذا ثبت ماء الفحل فى رحمها : قرية على مرحلة من صنعاء وبها معدن العقيق .

(مقرى) بالفتح ثم السكون وراء والف مقصورة تكتب ياء لمجيئها رابعة قرية بالشام من نواحى دمشق هكذا وجدناها مضبوطة بخط ابى الحسن على بن عبيد الكوفى المتقن الخط والضبط وكذا نقله ابن عرى فى كتابه والمحدثون واهل دمشق على ضم الميم قال البحترى

أما كان فى يوم الثنية منظر - ومستمع ينبى عن البطشة الكبرى
وعطف ابى الجيش الجواد بكره — مدافعة عن دير مروان أومقرى .

(مقرى) بضمتين وتشديد الراء — بلد بأرض النوبة افتتحه عبد الله بن سعيد ابن أبى سرح سنة ٣١

العلاقى

العلاقى حصن فى بلاد البجة فى جنوب أرض مصر به معدن التبر بينه وبين مدينة أسوان فى أرض فياحة يحتفر الانسان فيها فازوجد فيها شيئا فجزء منه للمحتفر وجزء منه لسلطان العلاقى وهو رجل من بنى حنيفة من ربيعة وبينه وبين عيذاب ثمان رحلات .

كانم

كانم بكسر النون من بلاد البربر فى اقصى المغرب فى بلاد السودان وقيل كانم صنف من السودان وفى زماننا هذا شاعر بمراكش المغرب يقال له الكانمى مشهود له بالاجادة ولم أسمع شيئًا من شعره ولاعرفت إسمه قال البكرى بين زويله وبلاد كانم أربعون مرحلة وهم وراء الصحراء فى بلاد زويلة ولا يكان أحد يصل اليهم وهم سودان مشركون ويزعمون أن هناك قوماً من بنى أمية صاروا اليها عند محنتهم ببنى العباس وهم زى العرب وأحوالها .

• • •

فهرست الكتاب

الحضارة العربية وأثرها على شرق السودان
قبل ظهور الاسلامية ثم جعلت من الدراسات
الافريقية التى ظهرت أساسا الافريقية السودان
القديم وحاولت أن أجد الصورة القديمة
التى عاشت بعيدة عن أثر الحضارة الفرعونية
وحاولت أن أشير إلى الحضارة الافريقية
بما فيها من عبادات وفنون ونظم اجتماعية
ثم تابعت تاريخ المسيحية فى الشرق وفى
وادى النيل والهضبة الحبشية من خلال
نشاط المسيحية فى شمال النيل والهضبة الحبشية
استطعت أن أتوصل إلى حال المسيحية فى
السودان وما قدمته للسودان .

كما أضفت إلى ذلك دراسة عن حال
الثقافة العربية وتطورها فى السودان ونشأة
الصوفية فى البلاد العربية وتاريخ وصولها
إلى السودان مع مقارنة حال الصوفية
بالسودان بالنسبة للصوفية الأولى وتعاليمها
وفكرها .

كما حاولت أن أتتبع الصراع بين
الافريقية والفرعونية والمسيحية والعربية
والاسلام داخل السودان حتى القرن التاسع
عشر الميلادى .

المؤلف

حسب الله محمد أحمد

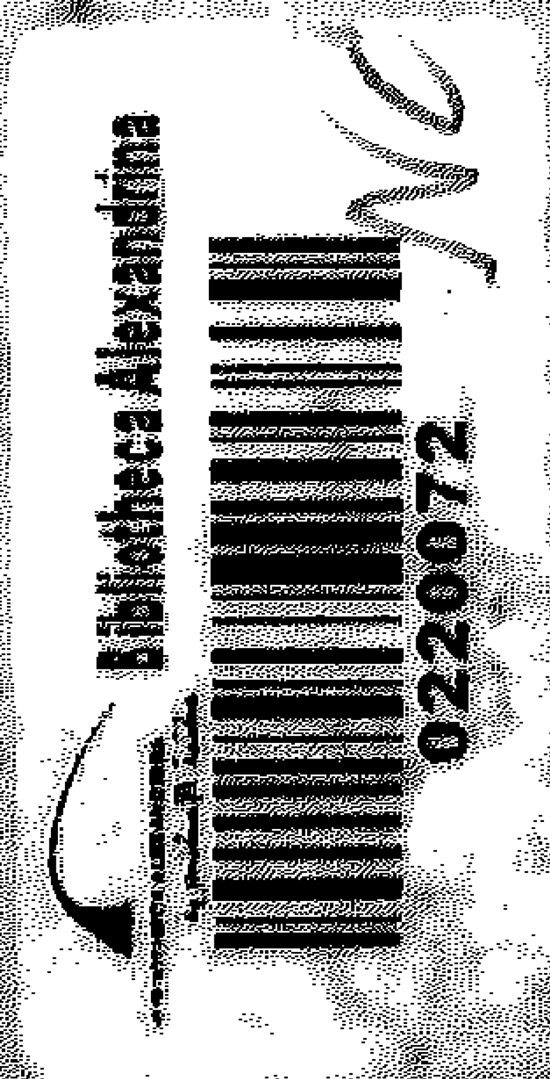
عضو جماعة بعث التاريخ السودانى

الناشر

دار يوليو للترجمة والنشر بالقاهرة

صمم الغلاف

الفنان حسن فؤاد



الثمن ٥٠ قرشاً

جماعة بعث التاريخ السوداني